مقرر

تـــــــاريخ أوروبـــــا في العصور الوسطى

أستاذ المادة

د. عمرو عبد العزيز منير

الإجـــابة في الاختبارات تعتمد على

فهمك أولا ـ الكتاب ثانيا

المحاضرات ثالثا ـ رأيك الشخصي رابعا

الاختبار قد يأتي موضوعيا أو مقاليا أو كلاهما

لا تدع قلمك يسبق فكرك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

تمهيد

مجتمعات العصور الوسطى

بداية العصور الوسطى

نهاية العصور الوسطى

المراحل الرئيسية وخصائص كل منها

converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن الدارس للتاريخ يلاحظ أن عالم العصور الوسطى قد اشتمل على ثلاثة مجتمعات كبيرة هي - حسب ظهورها التاريخي - المجتمع البيزنطي الذي ورث الجانب الشرقي من أملاك الامبراطورية الرومانية والمجتمع الأوروبي الذي عاش على أراضي الجانب الغربي للامبراطورية الرومانية، والمجتمع الإسلامي الذي بدأ من شبه جزيرة العرب ثم ما لبث أن احتوى أملاك الدولة الفارسية وجانباً كبيراً من أملاك الامبراطورية الرومانية هو الشام وآسيا الصغرى والشمال الإفريقي من مصر حتى المحيط الأطلسي وأسبانيا وغير ذلك في آسيا وإفريقيا.

والمجتمع الأول وهو البيزنطي قد اتخذ من الديانة المسيحية ديناً له شأنه في ذلك شأن المجتمع الأوروبي، ولكنه اختلف عن المجتمع الأوروبي في اتخاذ المذهب الأرثوذكسي مذهباً مسيحياً رسمياً لدولته. وقد اتخذ هذا المجتمع من مدينة القسطنطينية عاصمة له ليحكم الأراضي التابعة له التي تضمنت شعوباً مختلفة، منها ما هو آسيوي أو إغريقي أو سلافي وغير ذلك من الشعوب التي كانت تتحرك في شمال أوروبا وغربي آسيا. والملاحظ هنا أن أملاك الامبراطورية البيزنطية قد تقلصت مع الزمان ولكن عاصمتها وهي القسطنطينية ظلت باقية طالما بقيت الامبراطورية البيزنطية.

أما المجتمع الثاني وهو المجتمع الأوروبي فقد اشتمل على العناصر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن الدارس للتاريخ يلاحظ أن عالم العصور الوسطى قد اشتمل على ثلاثة مجتمعات كبيرة هي ـ حسب ظهورها التاريخي ـ المجتمع البيزنطي الذي ورث الجانب الشرقي من أملاك الامبراطورية الرومانية والمجتمع الأوروبي الذي عاش على أراضي الجانب الغربي للامبراطورية الرومانية، والمجتمع الإسلامي الذي بدأ من شبه جزيرة العرب ثم ما لبث أن احتوى أملاك الدولة الفارسية وجانباً كبيراً من أملاك الامبراطورية الرومانية هو الشام وآسيا الصغرى والشمال الإفريقي من مصر حتى المحيط الأطلسي وأسبانيا وغير ذلك في آسيا وإفريقيا.

والمجتمع الأول وهو البيزنطي قد اتخذ من الديانة المسيحية ديناً له شأنه في ذلك شأن المجتمع الأوروبي، ولكنه اختلف عن المجتمع الأوروبي في اتخاذ المذهب الأرثوذكسي مذهباً مسيحياً رسمياً لدولته. وقد اتخذ هذا المجتمع من مدينة القسطنطينية عاصمة له ليحكم الأراضي التابعة له التي تضمنت شعوباً مختلفة، منها ما هو آسيوي أو إغريقي أو سلافي وغير ذلك من الشعوب التي كانت تتحرك في شمال أوروبا وغربي آسيا. والملاحظ هنا أن أملاك الامبراطورية البيزنطية قد تقلصت مع الزمان ولكن عاصمتها وهي القسطنطينية ظلت باقية طالما بقيت الامبراطورية البيزنطية.

أما المجتمع الثاني وهو المجتمع الأوروبي فقد اشتمل على العناصر

converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرومانية بعد انهيار الامبراطورية الرومانية، هذا بالإضافة إلى العناصر التي وفدت إليه على شكل هجرات أو غزوات وهو ما يعرف في التاريخ باسم الغزوات الجرمانية. وقد حملت هذه العناصر معها حضارتها التي اختلطت بالحضارة الرومانية وظهر مجتمع جديد كان في بداية الأمر يعتنق غالبيته الديانة المسيحية على المذهب الأريوسي، ثم ما لبث أن تخلص من الأريوسية واتخذ المذهب الكاثوليكي. وإذا كانت مدينة روما ظلت مركزاً لهذا المجتمع في مطلع العصور الوسطى من الناحية السياسية والروحية فإن هذا المركز قد تلاشى في مراحل لاحقة واقتصر على السيادة الروحية فقط لتواجد المركز البابوي بها.

وفيما يتعلق بالمجتمع الثالث وهو المجتمع الإسلامي الذي بدأ بظهور الإسلام، فقد أصبح له دولته المتميزة سياسياً وحضارياً لقيامها على مفهوم إسلامي مستمد من شريعتها. وإن كان هذا المجتمع قد بدأ صغيراً مع الدعوة المحمدية فإنه ما لبث أن انتشر سريعاً وساد أقاليم شاسعة لما بعثته الدعوة المحمدية في الشعوب المعاصرة.

وما يعنينا في هذه الدراسة هو المجتمع الأوروبي في غرب أوروبا. وواقع الأمر أن العصور الوسطى ليست عصوراً منفصلة عن العصور القديمة أو العصور الحديثة فهي مرحلة من مراحل التاريخ الطويلة يصعب تحديد بدايتها أو نهايتها بحادثة محددة مثل تولية ملك أو أمبراطور أو معركة عسكرية لها أهميتها. ومن المتفق عليه أن التطور التاريخي يسير في حركة غير ملموسة تكون مدخلاً لعصر آخر له أبعاده السياسية والحضارية التي تميزه عن مرحلة سابقة وأخرى لاحقة.

وإذا كانت العصور الوسطى تتوسط التاريخ القديم والحديث وهي فترة امتدت أكثر من عشر قرون، فليس معنى ذلك أن هذه المرحلة قد سارت على وتيرة واحدة في الجوانب السياسية والحضارية، فقد اختلفت هذه الجوانب من مرحلة إلى مرحلة ومن منطقة إلى أخرى. بمعنى أن ما

converted by Tif Combine - (no stamps are applied by registered version)

ساد العصور الوسطى من نظم قد اختلف عنه في نهايتها، وما ظهر من حضارة في إيطاليا في فترة ما يختلف عما ظهر من حضارة في انجلترا في الفترة ذاتها. وعلى ذلك يتضح ان لكل مرحلة من مراحل العصور الوسطى خصائصها المتميزة عن غيرها مع شيء من التجاوز.

ولما كان لكل مرحلة من مراحل التاريخ الوسيط مايميزها عن غيرها، فمن هنا أطلق بعض المؤرخين عبارة العصور الوسطى المظلمة على المرحلة الأولى من العصور الوسطى لما سادها من حروب وغزوات وهرطقات دينية. ولكن هذا المفهوم قد تغير بعد قيام المؤرخين المحدثين بالبحوث التاريخية عن هذه المرحلة وما تلاها من مراحل، وهي البحوث التي أوضحت الجوانب الإيجابية لفترة العصور الوسطى بأكملها وأظهرت الجوانب الحضارية التي سادت مجتمع أوروبا في العصور الوسطى، وهي الحضارة التي ارتكزت عليها العصور الحديثة في أوروبا وفي العالم أجمع.

وعلى أية حال فالمدخل الطبيعي لدراسة العصور الوسطى هو تحديد بدايتها ونهايتها، وهو أمر صعب دار حوله جدل كثير واجتهد كل باحث في إيضاح وجهة نظره حول بداية ونهاية العصور الوسطى. وما يسطر على الصفحات التالية عرض لأهم الآراء حول بداية ونهاية العصر الوسيط، وقد حاولت إدماجها في وحدات متجانسة أو إلى أسباب متشابهة حتى يتيسر فهمها بسهولة.

أولاً: آراء تدور حول أعمال بعض الأباطرة:

يرى البعض اختيار عصر الامبراطور دقلديانوس Dicoletian (٢٨٤ - ٣٠٥م) ليكون مدخلاً للتاريخ الوسيط. ويرجع ذلك إلى ان الامبراطور دقلديانوس حاول إعادة تنظيم الامبراطورية على أسس إدارية اختلفت كثيراً عن الأنظمة التي سادت الامبراطورية من قبل، كما أنه ترك مدينة روما عاصمة الامبراطورية واستقر في آسيا الصغرى واتخذ من مدينة

converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نيقوميديا Nicomedia مقراً له هذا بالإضافة إلى موقفه المعادي للديانة المسيحية وما لاقاه المسيحيون في عصره من اضطهاد حتى عرف عصره بعصر الشهداء وأصبح عام ٢٨٤م وهو العام الذي يبدأ به حكمه بداية للتاريخ القبطي في مصر. ولما كانت المسيحية قد اعترف بها بعد نهاية حكم دقلديانوس بفترة قصيرة، ولما كانت المسيحية أيضاً من معالم العصور الوسطى، فمن هنا كانت وجهة نظر هؤلاء المؤرخين تبدو مقبولة ومعقولة.

ويتخذ البعض عصر الامبراطور قسطنطين الأول Constantine I (٣٠٥-٣٣٧م) مدخلاً للعصور الوسطى، لأن قسطنطين تمكن من القضاء على الحرب الأهلية داخل الامبراطورية وأصبح حاكماً لا منافس له، كما صاحب عهده تغييرات جذرية في مجالات متعددة. ومن هذه التغيرات الاعتراف بالديانة المسيحية كدين في الدولة إلى جانب الوثنية عندما صدر مرسوم ميلان Edict of Milan عام ٣١٣م. هذا بالإضافة إلى بناء مدينة القسطنطينية واتخاذها عاصمة للامبراطورية، ثم إصلاحاته المتعددة في الجوانب التشريعية والعسكرية والإدارية.

وتشير مجموعة أخرى من المؤرخين إلى الامبراطور جستينيان Justinian (٥٢٧-٥٦٥م)، على اعتبار أن عهده يفصل بين القديم والوسيط. ويعللون وجهة نظرهم بالاعمال الكبيرة التي قام بها هذا الامبراطور في الداخل والخارج، ومن ذلك ما قدمه لنا من تشريعات ظلت باقية لفترة طويلة من الزمن، وما صاحب عصره من حركة معمارية ظل بعضها إلى يومنا هذا، هذا بالإضافة إلى ما قام به من محاولات عسكرية لإعادة أراضي الامبراطورية وبخاصة في استرداد شمال إفريقيا من الوندال وإيطاليا من القوط الشرقيين وجانباً من اسبانيا من يد القوط الغربيين. ولما كانت محاولته هذه تعتبر آخر محاولة قام بها امبراطور روماني، فإن ما حدث يعتبر نهاية لمجد الامبراطورية الرومانية لأن خلفائه من بعده فشلوا في الحفاظ على هذه الأراضي، وعلى ذلك يعتبر عصره مرحلة جديدة تنقلنا إلى عصر

converted by Tif Combine - (no stamps are applied by registered version)

جديد هو عصر التاريخ الوسيط.

ثانياً: أسباب دينية:

سبق أن أوضحنا أن البعض اختار عصر قسطنطين ليكون مدخلاً للتاريخ الوسيط نظراً لما قام به هذا الامبراطور في مجالات متعددة. ولكن هناك فريق من المؤرخين يرون في عام ٣١٣م بداية للتاريخ الأوروبي الوسيط لصدور مرسوم ميلان في هذا العام نظراً لما أبداه هذا المرسوم من تسامح تجاه المسيحيين وجعل الديانة المسيحية ديانة معلنة بعد ما كانت حركة سرية. ولكن فريق آخر من المؤرخين يرى أن هذا التسامح لم يدم، فقد أصيب بنكسة في عهد الامبراطور جوليان المرتد Julian the Apostate (٣٦١-٣٦٣م) الذي ارتد من المسيحية إلى الوثنية وجعل الأخيرة ديناً رسمياً للدولة. ولكن هذه المحاولة قد فشلت تماماً وانتصرت المسيحية. ومن هنا يعتبر هؤلاء المؤرخون عصر جوليان بداية للعصور الوسطى على اعتبار أن عصره كان آخر عصور الوثنية وأول عصور المسيحية إحدى دعائم العصور الوسطى.

ومن الفريق الذي ينظر إلى الجانب الديني على أنه بداية للعصور الوسطى يتخذ البعض المرحلة التي تحولت فيها بعض العناصر الجرمانية وهم القوط Goth من الوثنية إلى المسيحية وإن كانت على المذهب الأريوسي، ويضعون عام ٣٧٦م بداية لهذا التحول وهو العام الذي بدأ فيه المبشر أولفيلاس Olfilas (٣١٠-٣٨٣م) التبشير في القوط، وما لبث أن اعتنق هذا المذهب عناصر أخرى تحركت مع القوط لأسباب متعددة ودخلت إلى أراضي الامبراطورية وأقاموا دولاً كانت علامة بارزة في تاريخ أوروبا العصور الوسطى.

وفي ختام تلك النواحي الدينية نقول إن بعض المؤرخين يضعون حكم الامبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٣٧٩-٣٩٥ م) نقطة البداية للتاريخ الوسيط ويحددون سنة ٣٧٩م لتكون نهاية للتاريخ القديم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبداية الوسيط. ومرجع ذلك أن هذا الامبراطور قرر في هذا العام القضاء على العناصر الوثنية وعلى اتباع المذهب الأريوسي. وقد تجلى ذلك في مجمع القسطنطينية عام ٣٨١م الذي أقرّ نهائياً عدم شرعية المذهب الأريوسي وفرض العقوبات على أتباعه. كما وقف في وجه الوثنيين وأقفل مراكز عبادتهم وأصدر التعليمات الكفيلة بعدم مباشرتهم طقوسهم وحرق ما هو مدون من تعاليمهم.

ثالثاً: أسباب عسكرية:

وترى مجموعة من المؤرخين أن معركة أدرنة Adrianpole التي دارت رحاها عام ٣٧٨م تصلح لتكون نهاية للتاريخ القديم وبداية للتاريخ الوسيط. ويعللون وجهة نظرهم بأن القوط الغربيين بعدما عبروا الدانوب استقروا في مواشيا Moesia وتراقيا Thrace، قد ضاقوا بهذه المناطق ودخلوا في صراع مع الامبراطورية وحاربوها وانتصروا عليها في معركة أدرنة وهي المعركة التي قتل فيها الامبراطور فالنز Valens (٣٦٤ - ٣٧٨م) وهزمت جيوش الامبراطورية هزيمة ساحقة. وكان لهذه المعركة والنتائج المترتبة عليها أثراً كبيراً في تاريخ الامبراطورية حتى أن بعض المؤرخين شبهوها بمعركة كاناي Canay التي وقعت في عام ٢١٦م بين الامبراطورية الرومانية وهانيبال وقتل فيها ما يقرب من خمسين ألف وأسر حوالى ثلاثة آلاف من قوات الامبراطورية.

رابعاً: نظم إدارية:

يرى فريق من المؤرخين أن عام ٣٩٥م وهو العام التي توفي فيه الامبراطور ثيودوسيوس نهاية للتاريخ القديم ومطلع للتاريخ الأوروبي الوسيط. وتستند أفكارهم إلى أنه في هذه السنة قسمت الامبراطورية الرومانية إلى قسمين بين أبناء ثيودوسيوس، تولى القسم الشرقي منها ابنه أركاديوس Arcadius (٣٩٥ - ٤٠٧م) وابنه الآخر هونوريوس Honorius (٣٩٥ - ٤٢٣م) القسم الغربي وعاصمة روما. وبذلك أصبح كل قسم دولة

converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قائمة بذاتها. وبمعنى آخر أن ذلك كان بداية لدولة في الشرق عرفت باسم الامبراطورية البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية استمرت حتى عام ١٤٥٣م، وقيام دولة في الغرب عاصمتها روما لم تلبث أن تعرضت لغزوات العناصر الجرمانية التي أقامت على أرضها دولاً وممالك كانت من معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى.

خامساً: أفكار تتعلق بمدينة روما:

تدور أفكار بعض المؤرخين حول مدينة روما، وما كان لها من عظمة ومجد باعتبارها عاصمة الامبراطورية الرومانية منذ قيامها، هذا بالإضافة إلى كونها مقر الكرسي الرسولي بعد قيام القديس بطرس بتأسيس كنيستها. وإن سقوط هذه المدينة الخالدة في أيدي عناصر غير رومانية كان إيذاناً بنهاية التاريخ القديم وبداية التاريخ الوسيط. ويرى الفريق المؤيد لهذا الرأي في عام ٤١٠م تحديداً لذلك، لأن القوط الغربيين - بقيادة الأريك - Alaric قد تمكنوا في هذا العام من غزو إيطاليا، والزحف على روما واقتحامها في الوقت الذي لجأ فيه الامبراطور الغربي هونوريوس إلى رافنا Ravenna واتخذ منها عاصمة له بعد روما.

سادساً: آراء تتعلق بمنصب الامبراطور الغربي:

يرى العديد من المؤرخين في عام ٤٧٦م نهاية لتاريخ الامبراطورية الرومانية وبداية تاريخ العصور الوسطى لأنها السنة التي تمكن فيها أودواكر Odoacer زعيم الهرول Herules - إحدى العناصر الجرمانية - من دخول مدينة رافنا وعزل الامبراطور الغربي رومولس أوغسطولس Romulus Augustulus (٤٧٥ - ٤٧٦م) الذي كان في الثانية عشر من عمره، ونفيه إلى جنوب إيطاليا مع تخصيص معاش مناسب له.

وإذا كان البعض يضع عام ٤٧٦م نهاية للتاريخ الروماني وذلك لانتهاء حكم الأباطرة الرومان للقسم الغربي للامبراطورية الرومانية، فإن البعض يضع على المعيار نفسه عام ٨٠٠م بداية لتاريخ الوسيط على

converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اعتبار أنه في هذا العام توج شارلمان Charlemagne (٧٦٨ - ٨١٤ م) أمبراطوراً في الغرب الأوروبي وتم إحياء الامبراطورية تحت اسم الامبراطورية الرومانية المقدسة بعد ما خلا الغرب من شخص يحمل لقب الامبراطور طوال الفترة الممتدة من ٤٧٦ - ٨٠٠م.

بعد هذا العرض المحدود لأهم الآراء التي دارت حول سقوط الامبراطورية الرومانية وبداية التاريخ الأوروبي الوسيط ولكل منها ما يؤيدها، يمكن القول أن هناك عوامل متداخلة أثرت بشكل أو بآخر في تحول المجتمع الأوروبي إلى التاريخ الوسيط، وإن هذه العوامل سارت بدرجة غير ملموسة حتى شكلت التاريخ الوسيط. وعلى أية حال فإنه إذا تمعنا في الآراء التي سبق عرضها نجد أن القرن الرابع الميلادي قاسماً مشتركاً في معظم الحالات، وأن هذا القرن قد شهد تطوراً في مجالات سياسية وحضارية كان لها أكبر الأثر في المجتمع الأوروبي ومن ذلك الاعتراف بالديانة المسيحية ديناً في الدولة ثم الاعتراف بها ديناً رسمياً للدولة، وظهور بعض الغزوات الجرمانية التي اجتاحت أوروبا وازدياد حدتها مع زيادة ضعف الامبراطورية، والتقسيم الإداري الذي فصل الجزء الشرقي عن الجزء الغربي من الامبراطورية. وعلى ذلك يمكن القول أن القرن الرابع الميلادي يعتبر مدخلاً لتاريخ أوروبا العصور الوسطى.

نهاية العصور الوسطى:

وكما ظهرت الآراء حول بداية العصور الوسطى فقد تعددت الأفكار حول نهاية العصور الوسطى. وإذا كان ما حدث في القرن الرابع من تغييرات على المجتمع الروماني هو الذي دفعنا إلى تغيير اسم هذا المجتمع إلى مجتمع العصور الوسطى، فإنه لا بد أن تحدث تغييرات في المجتمع الوسيط تجعلنا ننهي بهذه التغيرات المجتمع الوسيط إلى مجتمع آخر وهو ما نطلق عليه مجتمع العصر الحديث. ومع هذه التغيرات ظهرت بعض الآراء لوضع نهاية التاريخ الأوروبي الوسيط. وقد حاولت إدماجها في عناصر متشابهة حتى تصبح واضحة المعالم.

Converted by tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أولاً: آراء تدور حول الجوانب الحربية:

يرى بعض المؤرخين إنهاء العصور الوسطى بعام ١٤٥٣م ويعللون وجهة نظرهم بحادثين وقعا في تلك السنة كان لهما أثرهما البالغ الأهمية في الشرق والغرب الأوروبي ففي الشرق سقطت القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين بعدما ضيقوا الحصار عليها بعد بناء قلعة أناضولي حصار عام ١٣٩٧م على الشاطىء الآسيوي على مسافة ستة أميال شمالي العاصمة، ثم قلعة روملي حصار لتقابلها على الشاطىء الأوروبي عام ١٤٥٢م. ومع سقوط هذه المدينة يأفل نجم مجتمع الامبراطورية البيزنطية أي نصف مجتمع أوروبا العصور الوسطى وينفذ الأتراك إلى أوروبا حاملين معهم أفكاراً جديدة قضت على أنظمة الامبراطورية البيزنطية ومهدت لقيام أنظمة أخرى ساهمت في قيام العصر الحديث.

أما فيما يتعلق بالأحداث التي وقعت في العام نفسه (١٤٥٣م) في الجانب الغربي من أوروبا، ففي هذا العام تنتهي حرب المائة عام التي دارت رحاها بين انجلترا وفرنسا وانتصار الأخيرة بعد سقوط مدينة بايو Bayonne ومدينة بودرو Bordeaux على التوالي. ولعل اتخاذ بعض المؤرخين لهذه الأحداث علامة على نهاية العصور الوسطى مرجعه إلى ما ترتب عليها من نتائج شملت الجوانب القومية والفكرية والاقتصادية والمعمارية في انجلترا وفرنسا ثم انسحبت على بقية الغرب الأوروبي.

ثانياً: آراء حول عصر النهضة:

يضع بعض المؤرخين عصر النهضة فاصلاً بين التاريخ الوسيط والحديث. ومرجع ذلك إلى أن عصر النهضة اشتمل على تطورات واسعة في كافة المجالات. ففي مجال اللغة كانت اللغة اللاتينية هي لغة الكتابة في أوروبا العصور الوسطى وهذا يعني أن طائفة معينة هي التي كانت تطلع على ما كتب في هذه المرحلة. ولكن تحولاً كبيراً طرأ على هذا الجانب عندما كتب دانتي اليجيري Dante Alighieri (١٢٦٥-١٣٢١م) - وهو

converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشاعر الفلورنسي الذي اعتبروه كبير شعراء عصره- كتب باللغة الإيطالية بدلاً من اللاتينية ولعل أعظم ما كتبه هو الكوميديا الإلهية Divine Comedy التي صاغها شعراً. وفي هذا المجال تجدر بنا الإشارة إلى الشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري (٩٧٣-١٠٥٧م) صاحب رسالة الغفران ولما لهذه الرسالة من أثر على كتابات دانتي. وإذا كان دانتي قد برز في إيطاليا فإن الشاعر الإنجليزي جوفري تشوسر Geoffrey Chaucer (١٣٤٠-١٤٠٠م) يعتبر أبرز الشعراء الإنجليز قبل وليم شكسبير. وقد قدّم تشوسر لمعاصريه عدة مؤلفات ختمها بكتابه الذي لم يتم وهو قصص كانتربوري The Canterbury Tales. وكان لاستخدام هذا الشاعر اللغة الإنجليزية في الكتابة أثراً كبيراً على معاصريه. وفي فرنسا يبرز لنا الشاعر الفرنسي فرانسوا لبيون François Villon (١٤٣١-١٤٩١م) الذي استخدم اللغة الفرنسية في الكتابة بمنهج ساخر. ومما لا شك فيه أن التحول إلى الكتابة باللغة المحلية وهي اللغة التي يستطيع الكثير استخدامها بدلاً من اللاتينية التي احتكر معرفتها القليل كان له أبلغ الأثر وأعطى الفرصة للعديد للاطلاع على آراء المفكرين في هذه المرحلة.

وفيما يتعلق بالفنون نذكر الرسام الإيطالي سيمون مارتيني Simon Martine (١٢٨٤-١٣٤٤م) الذي تميزت أعماله بالرشاقة، ومن بعده رفاييل سانزو Raphael Sanzio (١٤٨٣-١٥٢٠م) الرسام المهندس المعماري الإيطالي الذي اعتبروه أعظم الفنانين العالميين في مختلف العصور، ونكتفي في هذه المرحلة بذكر ثالث وهو مايكل أنجلو Michel Angelo (١٤٧٥-١٥٦٤م) وهو النحات والرسام والمهندس المعماري. وواقع الحال أن هؤلاء الفنانين وغيرهم قد خرجوا على تقاليد العصور الوسطى وخاصة كنيستها، وقدموا أعمالاً فنية في غاية الروعة والجرأة وتركوا لنا فناً مختلفاً تماماً عن فنون العصور الوسطى.

ثالثاً: آراء مرتبطة بالجانب الديني:

لما كانت الكنيسة وما فرضته من تعاليم وسيطرة على أوروبا من أهم

converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معالم العصور الوسطى، لذلك كان الخروج على الكنيسة وأفكارها التي سادت مجتمع العصور الوسطى يعتبر نقلة من مرحلة إلى مرحلة أخرى. لذلك يرى البعض أن حركة الإصلاح الديني التي بدأت بمهاجمة رجال الدين ليعدهم عن مثل المسيحية وبساطتها نهاية للعصور الوسطى. ومهما كان موقف البابوية من أمثال من نادوا بذلك فما لا شك فيه أن مركز البابوية قد تأثر كثيراً منذ القرن الرابع عشر الميلادي نتيجة الأسر البابوي (١٣٠٥ ـ ١٣٧٧م) والانشقاق الديني الأكبر (١٣٧٨ ـ ١٤١٧م). ويجدر بنا الإشارة هنا إلى اثنين من الذين نادوا بالإصلاح الديني في هذه المرحلة هما يوحنا هس John Huss (١٣٧٣ ـ ١٤١٥م)، المصلح الديني البوهيمي الذي اتهم بالهرطقة وأعدم حرقاً، ويوحنا ويكلف John Wycliffe (١٣٣٠ ـ ١٣٨٤م) المصلح الديني الإنجليزي الذي أنكر سلطة البابا إذا تعارضت مع تعاليم الكتاب المقدس لذلك اتهم بالهرطقة. ولا شك أن هذين المصلحين قد مهدا لدعوة مارتن لوثير Martin Luther (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م) الراهب الألماني الذي تزعم حركة الإصلاح البروتستانتي في ألمانيا، ومن بعده هيولاتيمر Hugh Latimer (١٤٨٥ ـ ١٥٥٥م) المصلح البروتستانتي الإنجليزي الذي حكم عليه بالموت حرقاً بتهمة الهرطقة. ونخلص من ذلك أن حركة الإصلاح الديني امتدت حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادي وأن الحكم بالموت حرقاً في هذه المرحلة يشير إلى أن أفكار العصور الوسطى كانت سائدة حتى هذه المرحلة أيضاً.

رابعاً: أفكار تدور مع الكشوف الجغرافية:

مما هو معروف أن الكشوف الجغرافية وما ترتب عليها من نتائج في كافة المجالات كان لها أثرها البالغ عن مجتمعات العصور الوسطى في العالم أجمع. هذه الكشوف الجغرافية التي قام بجانب منها الملاح البرتغالي بارثليميدياز Bartholomeu Diaz (١٤٥٠ ـ ١٥٠٠م) واكتشف طريق رأس الرجاء الصالح ١٤٨٧م، ومن بعده فاسكو دي جاما

converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Vasco de Gama (١٤٦٩ - ١٥٢٤م) الذي قام بأول رحلة بحرية إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح (١٤٩٧ - ١٤٩٨م)، وفرديناند ماجلان Ferdinand Magellan (١٤٨٠ - ١٥٢١م). الملاح البرتغالي الذي اعتبروه أول من قام برحلة حول العالم. وفي مجال الكشوف الجغرافية يلمع كريستوفر كولمبوس Christopher Columbus (١٤٥١ - ١٥٠٦م) الذي اكتشف أمريكا الجنوبية دون أن يدري عام ١٤٩٢م. ويتخذ أصحاب هذا الرأي هذا العام منطلقاً لعصر جديد ونهاية للعصور الوسطى لما ترتب على هذه الكشوف من نتائج في المجالات السياسية والاقتصادية بصفة خاصة، وفي المجالات الفكرية بصفة عامة.

وعلى أية حال وبعد هذا العرض المحدود لأهم الآراء التي دارت حول نهاية العصور الوسطى نكرر أن التحول من مرحلة التاريخ الوسيط إلى التاريخ الحديث لم تتم في سنة بذاتها وإنما هي عملية تحول تتم تدريجياً وبطريقة غير ملموسة، وأن كل ما ورد من آراء لها وجاهتها، ولكنه يمكن اتخاذ القرن الخامس نهاية للعصور الوسطى نظراً لما حدث في هذا القرن من تطورات فكرية وسياسية ودينية واقتصادية واجتماعية أدت إلى الانتقال من العصر الوسيط إلى العصر الحديث.

مراحل العصور الوسطى:

يتضح من الصفحات القليلة السابقة أن الفترة التي نسميها بالعصور الوسطى فترة طويلة استمرت حوالى ألف ومائة عام. ومع طول هذه الفترة لا يمكن القول إن الناس الذين عاشوا في هذه المرحلة ساروا على نظام واحد طوال هذه الفترة، فقد كانت الأحوال تتبدل وتتحول وإن كان ذلك بطيء الخطا. ولإيضاح ذلك نقول إن الناس الذين عاشوا أيام جستينيان في القرن السادس الميلادي قد اختلفت حياتهم وأفكارهم عن الذين عاشوا أيام شارلمان في القرن الثامن الميلادي، واختلف الاثنان أيضاً في معيشتهم عن الحياة التي عاشها الفرد أيام الملك الإنجليزي هنري الثالث Henry III (١٢١٦ - ١٢٧٢م). وعلى ذلك يميل بعض المؤرخين

المحدثين إلى تقسيم تاريخ العصور الوسطى إلى مراحل متعددة يمكن وضعها في ثلاث مراحل رئيسية لكل مرحلة منها ما يميزها عن غيرها مع شيء من التجاوز في الزمان والمكان.

المرحلة الأولى:

وهي المرحلة التي تبدأ ببداية العصور الوسطى وهي ما حددناها بالقرن الرابع وتمتد حتى القرن العاشر. وفي هذه المرحلة نلاحظ تزايد اضمحلال الامبراطورية الرومانية وبداية الغزوات الجرمانية، كما بدأت الفتوحات الإسلامية في القرن السابع والثامن حتى وصلت غرباً إلى إسبانيا، كما شاهدت هذه المرحلة تحركات الفايكنج Viking في شبه جزيرة اسكندناوه في القرن التاسع. وبمعنى آخر إن هذه المرحلة شهدت تحركات واسعة النطاق شملت الأراضي الأوروبية. وقد صاحب ذلك انعدام الأمن لعدم قدرة الحكومات على السيطرة على ما تحت أيديها من أراضي. ومع ذلك كله فقد تمت في هذه المرحلة عملية انصهار الحضارة الرومانية مع الحضارة الجديدة التي جاءت بها العناصر الجديدة التي انبثقت من أراضي أوروبا مستقراً لها. كما شهدت هذه المرحلة أيضاً الهرطقات الدينية حتى ساد المذهب الأرثوذكسي في الامبراطورية البيزنطية والمذهب الكاثوليكي في غرب أوروبا.

المرحلة الثانية:

وتلي المرحلة الأولى مرحلة أخرى تبدأ من القرن الحادي عشر وتستمر حتى القرن الثالث عشر. ونلاحظ في هذه المرحلة تمتع الغرب الأوروبي بقدر من الأمن النسبي ووجود النظام الإقطاعي Feudalism وما صاحبه من الفروسية Kinghthood وما احتوته من مُثل عُليا. كما ظهرت الجامعات واهتم البعض بالمعرفة خاصة دراسة الفلسفة اليونانية والقانون الروماني. ونشاهد أيضاً التحول" الذي ظهر في الفنون المعمارية، ونمو المدن، وقيام أوروبا تحت زعامتين هما الزعامة الدينية بقيادة البابا والدنيوية بزعامة الامبراطور. ويتضح من هذه المرحلة أن أوروبا قد دخلت مرحلة

Scanned by CamScanner - (no stamps are applied by registered version)

النكوين وأن حضارتها في هذه المرحلة بدأت تتخذ شكلاً مميزاً اختلف عن المرحلة السابقة، وظهرت به نهضة لها خصائصها عرفت باسم نهضة القرن الثاني عشر.

المرحلة الثالثة:

وتنحصر هذه المرحلة في القرن الرابع عشر، وفي هذه المرحلة تغيرت أفكار العصور الوسطى بفعل تصادم أفكار المرحلة السابقة مع الأفكار الجديدة التي ظهرت في أوروبا بفعل التطور أو من جراء دخول أفكار جديدة نتيجة الاحتكاك بين الشرق والغرب وخاصة عن طريق الأندلس وسقلية والحروب الصليبية. هذا الاحتكاك الذي أثرى الغرب الأوروبي بالكثير من العلم والمعرفة، وليس لنا في هذا المجال أن نستشهد بأحد بل يكفينا أن نذكر بعض علماء المسلمين في هذه المرحلة. فقد كتب جابر بن حيان (٧٠٢ـ٧٦٥م) عن الطب والكيمياء، ووضع الخوارزمي (٧٨٠ـ٨٥٠م) أقدم جداول في حساب المثلثات، وكتب الفرغاني حوالى عام ٨٦٠م كتاباً عن الفلك ظلت تعتمد عليه أوروبا لزمن طويل، كما عمل ثابت بن قرة (٨٢٦ـ٩٠١م) بالطب والفلك. كما كان البيروني (٩٧٣ـ١٠٤٨م) فيلسوفاً ومؤرخاً وجغرافياً ولغوياً ورياضياً وفلكياً وشاعراً وعالماً في الطبيعة. ونذكر أيضاً الشاعر والطبيب والفيلسوف ابن طفيل (١١٠٧ـ١١٨٥م) وابن رشد (١١٢٧ـ١١٩٨م) الذي كان أكبر فلاسفة المسلمين تأثراً في العقول، وقد عرف في العصور الوسطى باسم أفروس Averroes، وابن البيطار (ت ١٢٤٨م) عالم النبات صاحب كتاب الأدوية، وابن النفيس (ت ١٢٨٨م) الطبيب الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى.

ولعل من جراء تأثير هؤلاء العلماء وغيرهم من داخل أوروبا ومن خارجها تغير تفكير الناس في أوروبا في هذه المرحلة في نواحي عديدة، فإذا نظرنا إلى نظام الحكم على سبيل المثال نجد أن نظرة الشعب إلى النظام الملكي قد تغيرت وأصبحت تنظر إليه على أنه رأس الدولة بدلاً من رأس الإقطاع، وأكثر من ذلك أن بعض شعوب أوروبا قد طالبت الملكية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بتحديد سلطاتها وهو ما أدى إلى ظهور البرلمانات. ومع هذا التحول الفكري في نظام الحكم أصبح الناس يهتمون بأمور دولتهم واضمحلت الفكرة التي كانت سائدة بأن أوروبا وحدة واحدة.

وإذا نظرنا إلى الجانب العلمي نلاحظ ظهور اللغات المحلية بدلاً من اللاتينية وهذا يؤكد ما أوردناه من تفكك الوحدة الأوروبية، ويبدو أن هذا التحول قد أثر على التعليم لبعض الوقت حتى أننا نجد أن الحركة العلمية في الجامعات قد أصابها الجمود، ولعل ذلك مرجعه إلى أن هذا التحول يحتاج لبعض الوقت حتى تتفهم الناس الحضارة الوافدة إليها واللغة الجديدة التي ظهرت.

أما ما يتعلق بالجانب الديني فقد تزعزع مركز البابا والكنيسة معاً وهاجمها الناس في مواضع عديدة وهو ما لم يكن مألوفاً في مراحل سابقة. وعلى الجانب الديني نذكر الحروب الصليبية التي ابتعد عنها الناس كثيراً بعد ما ضعف التعصب الديني وبدأ الناس يهتمون بشؤونهم وتنمية مواردهم في بلادهم.

وخلاصة القول إن عالم العصور الوسطى بدأ في القرن الرابع وانتهى في القرن الخامس عشر الميلادي، وأن هذا العصر لم يسر على وتيرة واحدة بل يمكن تقسيمه إلى فترات ثلاث لكل منها ما يميزها. وأن فترة العصور الوسطى أسهمت في التطور الحضاري الذي نقلنا من التاريخ القديم إلى التاريخ الحديث.

converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثاني

نهاية الإمبراطورية الرومانية
وعصور دقلديانوس وقسطنطين وخلفائه

أسباب سقوط الامبراطورية الرومانية

عصر دقلديانوس

عصر قسطنطين

خلفاء قسطنطين

Converted by tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تبين لنا من الصفحات السابقة ان القرن الرابع الميلادي هو القرن الذي يمكن أن يبدأ منه تاريخ العصور الوسطى مع شيء من التجاوز ، واتضح لنا كذلك أن في هذا القرن سارت الحضارة القديمة وهي الحضارة الرومانية في أوروبا جنباً إلى جنب مع ما استجد من المتغيرات التي نقلتنا إلى العصور الوسيطة . وبذلك يكون المدخل الطبيعي لدراسة تاريخ العصور الوسطى هو القرن الرابع حيث نلاحظ انهيار الامبراطورية الرومانية وبداية معالم التاريخ الأوربي الوسيط . ومن ثم فإن القاء الضوء على القرن الرابع وما ساده من انظمة وتغييرات هو الدراسة التمهيدية لهذا الكتاب .

وعلى أية حال فمنذ القرن الثالث الميلادي تعرضت الامبراطورية الرومانية لأزمات عنيفة هددت كيانها وهزت دعائمها ، فانتشر الفساد في جميع أركان الحياة وكثرة الغارات على الحدود خاصة غارات البرابرة على حدود نهر الدانوب ، هذا بالإضافة الى الخطر الفارسي على الحدود الشرقية . وعلى ذلك أصبحت الامبراطورية الرومانية مهددة بالانهيار . ويمكن تقسيم أسباب انهيار الامبراطورية الى أسباب داخلية وأسباب خارجية . وعلى رأس الاسباب الداخلية سوء احوال الجيش والحركات الانفصالية وسوء الأوضاع الاقتصادية .

وفيما يتعلق بأحوال الجيش فيمكن القول أن القوات العسكرية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تحكمت في شؤون الحكم وأخذت تولي وتعزل من شاءت من الأباطرة، وقد أدى هذا كله إلى عدم الاستقرار. وبذلك حاد الجيش عن مهمته الرئيسية وهي الدفاع عن البلاد، فبدلاً من أن يتولى الامبراطور سلطته بواسطة الجيش اصبح الجيش هو الذي يتولى شؤون الحكم عن طريق الامبراطور الذي يختاره. وقد أدى هذا كله إلى عدم الاستقرار داخل البلاد.

أما الحركات الانفصالية فهي مترتبة على سوء احوال الجيش، فقد وُجدت جماعات متنافسة على الحكم من العسكريين ادت الى حروب داخلية حتى شملت الامبراطورية وظهرت الحركات الانفصالية التي هددت وحدة الامبراطورية، وحاول بعض الاباطرة القضاء على هذه الظاهرة بالفصل بين السلطة العسكرية والمدنية لدى حكام الاقاليم وتصغير حجم الوحدات الادارية.

وسوء الأوضاع الاقتصادية مترتب على الحروب الداخلية والحركات الانفصالية. فقد أدى اختلال الأمن إلى سوء الأحوال الاقتصادية، ولكي تعالج الدولة عجزها المالي في ميزانيتها لجأت الى زيادة الضرائب بدرجة لم يتحملها صغار المزارعين فهجروا اراضيهم، ولم تُجد محاولات الاصلاح المالي فسارت الأمور من سيء إلى أسوأ.

أما أسباب انهيار الامبراطورية الخارجية فيمكن حصرها في الخطر الفارسي الذي تزايد في هذه المرحلة والحق هزائم عديدة بجيوش الامبراطورية على الجبهة الشرقية. ولم تكن الجبهة الغربية بأحسن حال من الحدود الشرقية، فقد انتشرت قبائل البرابرة وراء نهري الدانوب والراين وتزايدت هجماتها وعجزت الامبراطورية عن وقف هذا التيار وتوفير الأمن لمواطني الحدود.

- دقلديانوس Diocletian ٢٨٤ - ٣٠٥

ولد دقلديانوس بالقرب من مدينة سالونا Salona في إقليم دالماشيا عام ٢٤٥ م، وقد أطلق إسمه على مدينة صغيرة تقع في هذا الإقليم،

converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حيث كان مسقط رأس أمه . وكان والداه عبدان في بيت أنوليوس Anulinus أحد أعضاء مجلس السناتو. وعلى ما يبدو أن والده حصل على حرية الأسرة ، وأن دقلديانوس قد حصل على وظيفة كاتب ، وهي من الوظائف التي يمكن أن يشغلها أمثال دقلديانوس . وبفضل جهوده ونبوغه وصل إلى مرتبة التنصل ، ثم تولى وظيفة قائد حرس القصر الإمبراطوري وهي من الوظائف الخطيرة ، وتجلت كفاءته العسكرية في حرب فارس . وبعد موت نومريانوس Numerianus (٢٨٣ ـ ٢٨٤ م) اعترف به بأنه أجدر شخص بعرش الامبراطورية .

ويبدو ان أول ما قام به دقلديانوس هي تعيين مكسيميان Maximian زميلاً له في الحكم ، وبذلك حذا حذو ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius (١٦١ ـ ١٨٠ م) ومنحه لقب قيصر Caesar في بداية الأمر ، ثم أضفى عليه لقب أوغسطس Augustus فيما بعد ، والواقع أن مكسيميان كان صديقاً لدقلديانوس ورفيقه في السلاح .

قام دقلديانوس ببعض الاصلاحات ليواجه بها الأزمة التي انتابت الامبراطورية ، فأعاد النظر في نظم الامبراطورية والغى ما اعتبره فاسداً وابقى على ما رآه غير ذلك ، واستحدث بعض التنظيمات التي رأى انه يستطيع بها حل مشاكل الامبراطورية .. واستهدفت اصلاحات دقلديانوس تقوية سلطة الامبراطور ، واقامة جهاز اداري دقيق يمكنه من السيطرة على شؤون الامبراطورية ، وفصل بين السلطة العسكرية والمدنية . وقد رأى دقلديانوس أيضاً أن الامبراطورية التي يهاجمها البرابرة من كل جانب تتطلب قوة عسكرية كبيرة في كل موضع من المواضع المعرضة لغاراتهم . لذلك كله قسم دقلديانوس الامبراطورية الى قسمين شرقي وغربي . حكم كل منهما حاكم يحمل لقب اوغسطس ، وتولى دقلديانوس القسم الشرقي بينما تولى مكسيميان القسم الغربي . وتم تقسيم الامبراطورية الى أربعة أقسام ادارية عرفت بإسم Prefecture، الأولى منها هي ايطاليا وعاصمتها ميلان Milan ، والثانية غالة وعاصمتها تريف Trier الواقعة على نهر الراين ، والثالثة

converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلليريا Illyricum وعاصمتها سرميوم Sirmiumوهي بلغراد الحالية ، أما الرابعة منها هي الجانب الشرقي وعاصمتها نيقوميديا الواقعة على الشاطىء الأسيوي للبسفور . هذا وتولى وظيفة القيصرين جاليروس Galerius الذي تبناه دقلديانوس وقسطنطيوس Constantuusالذي تبناه مكسيميان . وألزما كل من القيصرين بطلاق زوجته والتزوج من ابنة متبنيه ، واقتسم هؤلاء الأربعة الامبراطورية فيما بينهم ، فتولى قسطنطيوس مهمة الدفاع عن غالة واسبانيا وبريطانيا واتخذ من تريف مقراً له ، واعتبرت ايطاليا وشمال افريقيا في نطاق حكم مكسيميان واتخذ من ميلان مركزاً لحكمه ، أما دقلديانوس فاحتفظ بإقليم تراقية Thrace وآسيا الصغرى ومصر ، وحكم جاليروس إلليريا وأقام في سرميوم الواقعة على نهر الدانوب . وكان كل من الحكام الأربعة سيداً في نطاق اقليمه ، ولكن سلطتهم المتحدة إمتدت على الإمبراطورية بأكملها ، وكانت القرارات والأوامر تصدر باسمهم جميعاً . ويلاحظ أن هذا التقسيم لم يتم إلا بعد إشتراك مكسيميان في الحكم لست سنوات .

. وكان النظام الرباعي يقضي بأنه عندما يعتزل الاوغسطس الحكم يخلفه القيصر الذي يرقى إلى أوغسطس ويعين لمساعدته قيصرا جديدا وهكذا تباعا . أما الجيش فكانت قواه موزعة بين شركاء الامبراطورية الأربعة . ورغم كل هذه الاحتياطات ذابت الوحدة السياسية في العالم الروماني شيئاً فشيئاً وساد مبدأ التقسيم الذي كان سببا في الفصل الدائم بين اجزاء الامبراطورية في بضع سنين قليلة . وثمة عيب آخر إلى جانب نزعة التقسيم وهو فداحة تكاليف الادارة الحكومية الجديدة مما أدى إلى زيادة الضرائب .

وعلى أية حال فإن تجربة دقلديانوس لم تلق النجاح المرجو رغم فكرتها الرائعة ، فإلى جانب المشاكل المتأصلة ابتليت الامبراطورية بعدة نكبات ، منها هجمات البرابرة المستمرة على الحدود ، وقيام الحرب الأهلية . وهذا بدوره أدى إلى تفشي الطاعون ونقص عدد السكان وضعف التجارة والصناعة . وترتب على ذلك أيضاً زيادة الأسعار بدرجة كبيرة أدت إلى نقص

Converted by tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قيمة العملة مما دفع دقلديانوس إلى إصدار القرارات الخاصة بتحديد أسعار السلع والمواد الغذائية ، ووضع العقوبات لكل من يخالف ذلك ولكن دون جدوى . وكان من أكبر المشاكل التي سادت عهد دقلديانوس مشكلة المسيحية التي عارضها الامبراطور بعنف حتى أنه صادر أملاك الكنائس ومنع المسيحيين من إقامة شعائرهم والزمهم بعبادة الأوثان . وكان لتعسف دقلديانوس مع المسيحيين أن اطلق على عصره عصر الشهداء .

وفي عام ٣٠٥ م اعتزل دقلديانوس الحكم وعمره تسعة وخمسين عاما بعد أن اصيب بعلل الشيخوخة المبكرة ، وقضى دقلديانوس اعوامه التسعة الاخيرة من عمره معتكفا عن الحياة العامة . وفي الوقت نفسه اعتزل مكسيميان الحكم في ميلان وفقا لاتفاق سابق مع دقلديانوس .

قسطنطين الكبير Constantin the Great (٣٠٦ - ٣٣٧ م)

تمثل العيب الأساسي في نظام الحكم الرباعي في أنه كان لمكسيميان ابناً هو مكستيوس Maxentius ، وكان لقسطنطينوس ابناً هو قسطنطين ، وتحكم في كلاهما العطف الأبوي على نظام الانتخاب ، وحاول جاليروس أن يفرق بين قسطنطينوس وابنه ، ولكن هذه المحاولات لم تفلح ولحق قسطنطين بأبيه في الجزر البريطانية . وعندما مات الوالد في مدينة يورك York نادت الحامية الرومانية بقسطنطين أوغسطسا .

وفي الوقت عينه أقام مكستيوس نفسه حاكماً على ايطاليا وافريقيا واتسم حكمه بالطغيان فنفرت منه الرعية ، وكان في ذلك فرصة طيبة لقسطنطين الذي زحف بجيشه وتولى إدارة غاله ، ثم ما لبث أن غزا ايطاليا وهزم مكستيوس وقتله عند جسر ميلفيان Milvian عام ٣١٢ م خارج مدينة روما ، واعدم أبناءه ونكل بكل من ينتمي إليه ، وتوقع أعوانه أنهم ملاقون نفس المصير . ولكن قسطنطين الذي امتاز بخططه الدفاعية البارعة في الحرب امتاز أيضاً بالمناورات السياسية في السلم فاصدر عفواً عاماً هدأت

converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

به الخواطر . وعندما زار مجلس السناتر أكد احترامه لهذا المجلس ووعد بتدعيم مكانته وامتيازاته القديمة ، ورد المجلس على هذا بإصدار مرسوماً يقضي بتعيين قسطنطين في المكان الأول بين الأباطرة الذين يحملون لقب اوغسطس . وواقع الأمر لم يكن قسطنطين في حاجة إلى مثل هذا المرسوم لأن المجلس لم تعد له سلطة فعالة بل كانت السلطة الحقيقية في يد قسطنطين معتمداً على رجال الجيش وعلى النصر الذي احرزه على منافسيه .

ويلاحظ انه في الفترة الممتدة من ٣٠٥- ٣١١ م وهي الفترة المضطربة التي تلت اعتزال دقلديانوس ومكسيميان ، كان يحكم الامبراطورية جاليروس بالاشتراك مع قسطنطيوس الأول وسيفريوس الثاني Severus II وليسينوس Licinius وقسطنطين الأول ومكسيميان في فترات مختلفة . ومنذ عام ٣٠٩ م كان هناك ستة حكام يحملون لقب اوغسطس ، ثم انفرد قسطنطين الأول وليسنيوس بالحكم من ٣١٢ - ٣٢٤ م ، وساد هذه الفترة ايضاً الفوضى والاضطراب والحرب الأهلية نتيجة لمطامع كل منهما ، وتثبت الحرب الأهلية من جديد وانتصر قسطنطين على منافسه عام ٣٢٤ م وانفرد بالسيادة على الامبراطورية بعد معركتي ادرنة Adrianoph وكريسبوليس Chrysopolis ، وانتهى الأمر بموت ليسينوس . وألغى قسطنطين النظام الرباعي وعين حكاماً يساعدونه في إدارة شؤون الامبراطورية ـ ويلاحظ انه قبيل وفاة قسطنطين تم اعادة تقسيم الامبراطورية من جديد ، وفي هذه المرة قسمها بين أولاده لكي يجنب البلاد النزاع الدموي ، ولكن الخلافات ما لبثت ان قامت بين أولاده ونتج عنها الفرضى والاضطراب ، ورغم هذا فإن مبدأ تقسيم الإمبراطورية إلى اقاليم أصبح المبدأ السائد فيما بعد .

شخصية قسطنطين

اعطت الطبيعة شخص قسطنطين وعقله أثمن ما لديها ، فكان فارع الطول مهيب الطلعة ، محمود السيرة ، واحتفظ منذ طفولته حتى آخر أيام

converted by Tif Combine - (no stamps are applied by registered version)

حياته بقوته وصحته بفضل ما التزم به من العدة وضبط النفس ، وكان بشوشاً سمحاً يمزح في تحفظ ، ولم يكن لقلة تعليمه أثر على تقديره للعلم والتعليم ، ولذلك حظت العلوم والفنون في عهده بالتشجيع والرعاية . وكان عندما يعمل فهو يعمل دون كلل أو ملل ، وكانت له عزيمة ماضية ، فكان يقرأ ويكتب ويفكر ويستقبل السفراء وينظر في شكاوى رعاياه . وكان عندما يتبنى مشروعاً فإنه يعمل فيه بكل حواسه ولا يعوقه عنه عائق . وفي ميدان المعركة كان قائداً يقود رجاله في عزم. وكان طموحاً إلى أبعد الحدود وعرف كيف يضع يده على نبض امبراطوريته وهي في محنتها . ويبدو أن ذلك قد ملك حواسه منذ اللحظة التي نادت به الحامية الرومانية في انجلترا اوغسطسا ، لأنه كان مدركاً لم تنطوي عليه نفسه من مواهب وتطلعه الى انه سوف ينجح في حروبه ضد منافسيه لتفهمه لروح شعب الامبراطورية ، التي قارنت بين حكمته وعدالته وبين الرذائل المتأصلة في منافسيه مكستيوس وليسينوس. لذلك يمكن القول أن نجاحه ينسب إلى قدراته أكثر مما ينسب الى حظه .

وواقع الأمر أن الحديث عن الأمبراطور قسطنطين وكيفية توليه العرش الامبراطوري وعن شخصيته وعهده تضيق بها هذه الصفحات ، لذلك فإننا نكتفي بإلقاء الضوء على عملين من أهم أعماله ، أولهما : الاعتراف بالديانة المسيحية ، وثانيهما بناء مدينة القسطنطينية لتكون عاصمة جديدة للامبراطورية .

الاعتراف بالديانة المسيحية

المقصود بالاعتراف بالديانة المسيحية هو أن قسطنطين أعلن الاعتراف بالديانة المسيحية كدين داخل الامبراطورية وليس ديناً رسمياً ، والأمر الأخير تم في وقت لاحق لعهد قسطنطين ، أما مسألة اعتناق قسطنطين المسيحية فهو موضوع آخر، وسوف نتناول كل موضوع منهما على حدة .

Scanned by Tal Combiner (no changes are applied by registered version)

١ ـ الاعتراف بالمسيحية ديناً داخل الامبراطورية :

عندما اعتلى قسطنطين العرش البيزنطي كانت الديانة المسيحية قد تغلغلت في كيان الامبراطورية منذ حوالي ثلاثة قرون ، وقد حاول بعض الاباطرة القضاء على هذه الديانة بالعنف والدم مثل دقلديانوس وجالريوس . فقد كان جالريوس رجلاً دموياً شديد البأس على المسيحيين ولم تجد قسوته نفعاً بل انتشرت المسيحية أكثر من ذي قبل . وقد وجد جالريوس نفسه بعد سنوات من الاضطهاد ان سياسة العنف هذه سياسة فاشلة ، واقتنع آخر الأمر بأن العنف والاستبداد لا يقضيان على شعب بأسره وعلى معتقداته الدينية ولعل ذلك ناتج عن اعتلال ألم بصحته لفترة ليست بقصيرة ، فأصدر عن طيب خاطر ـ لاصلاح ما أفسدته يداه ـ مرسوماً عاماً يحمل اسمه واسم ليسينوس . ومن هذا المرسوم « . . . لقد اتجهت ارادتنا الى بسط مزايا رأفتنا المألوفة على هؤلاء الافراد المسيحيين التعساء ، ولذلك نرخص لهم بإعلان آرائهم الخاصة في حرية تامة ، وفي عقد اجتماعاتهم السرية دون خوف او ازعاج شريطة ان يظهروا دوماً الاحترام اللائق للقوانين والحكومة القائمة ، وإنا لنأمل ان يكون تسامحنا دافعاً الى الصلاة والتضرع الى الإله الذي يعبدوه من أجل سلامتنا ورخائنا وسلامتهم ورخائهم وسلامة الجمهورية ورخائها » .

وعلى ما يبدو أن أعوان جالريوس لم ينشروا هذا المرسوم كما هو ، وإنما نشروا تعليمات الى حكام الولايات تحدثوا فيها عن رفق الأباطرة بالمسيحيين وأشاروا فيه على رجالهم بوقف محاكمة المسيحيين وغض الطرف عن الاجتماعات السرية . واعقب ذلك اطلاق سراح المعتقلين منهم ، ولكن ذلك لم يدم طويلاً بسبب حكم جالريوس القصير ٣٠٥ ـ ٣٠٦ م وما تبع ذلك من اضطرابات داخل الامبراطورية .

مرسوم ميلان ٣١٣ م .

بعد ما انتصر قسطنطين على منافسيه في موقعة ميلفيان عام ٣١٣ م أعلن الامبراطور قسطنطين مرسوم ميلان الشهير الذي أعاد السلام والهدوء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الى الكنيسة المسيحية . وواقع الأمر ان قسطنطين لم ينفرد بإصدار هذا المرسوم بل شاركه في مسؤوليته شريكه في الحكم على النظام الدقلديانوسي الاغسطس ليسينوس، وقد استقبل هذا المرسوم على انه قانون أساسي من قوانين العالم الروماني ، ومن هذا المرسوم :

« عندما تقابلنا نحن قسطنطين أوغسطس وليسينوس. أوغسطس في ميلان مكللين بالرعاية والعناية ، أخذنا نبحث في جميع الوسائل الخاصة بالصالح العام لرعايانا . ومن هذه المسائل التي تهم الكثيرين وتعود بالنفع عليهم مسألة حرية العقيدة . لذلك قررنا إصدار مرسوم يضمن للمسيحيين وكافة الطوائف الأخرى حرية اختيار وممارسة العقيدة التي يرتضونها ، وبذلك نضمن رضاء جميع الآلهة والقوى السماوية علينا ، كما نضمن رضاء جميع رعايانا ممن يعيشون في كنف سلطاننا . وهكذا قررنا عن ثبات وتعقل الا يحرم أي فرد كائناً من كان من اختيار المسيحية ديانة له . ولكل فرد الحرية في اختيار الدين الذي يناسبه . وبذلك نضمن استمرار تأييد الرب لنا بنفس الكرم والقوة اللذين تعودناهما منه ... وهذا المرسوم الذي صدر من فيض كرمنا يجب ان يذاع على الجميع ويجب أن يحاط به الجميع علماً وينشر في كل مكان حتى لا يفوت أحد الأخذ به .

والنص الخاص بالفقرة الأخيرة كما هو منشور باللغة الانجليزية كالآتي :

So that the form of this ordinance and of our benevolence may come to the attantion of all men. It will be convenient for you to promulgate these letters everywhere and bring them to the Knowledge of all, so that ordinance of our benevolence may not be hidden.

وعلى ذلك فنحن أمام الحقائق التالية :

١ ـ ان المسيحية ظلت حركة سرية منذ بدايتها حتى إعلان مرسوم ميلان عام ٣١٣م.

Converted by tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ ـ تتناول بعض الأباطرة المسيحيين بالاضطهاد والتعذيب وغالي بعضهم في ذلك .

٣ ـ لم يكن مرسوم ميلان اول مرسوم بالتسامح مع المسيحيين بل سبقه المرسوم الذي حمل إسم جالريوس وليسينوس.

٤ ـ ان مرسوم جالريوس لم يعمل به لقصر مدة حكم الامبراطور .

٥ ـ لعل في العبارة الأخيرة الواردة في مرسوم ميلان ما يؤكد ذلك وان عبارة Not be hidden تشير إلى الخوف من سابقة حدثت تحوم حول ما تنطوي عليه هذه العبارة من معنى ويخشى تكرارها .

٦ ـ إن مرسوم ميلان لم يصدره قسطنطين منفرداً بل صدر منه ومن شريكه في الحكم ليسينوس.

واستكمالاً لمحتوى مرسوم ميلان نقول أن المرسوم قضى برد كل الحقوق الدينية الى المسيحية التي كانوا حرموا منها ظلماً وعدواناً ، ونص على ان تعاد للكنيسة كل أماكن العبادة والأراضي العامة المصادرة دون جدل او ابطاء او تكلفة . واقترن هذا الانذار الصارم بوعد كريم يقضي بأن يدفع ـ لمن اشتروا املاك الكنيسة ودفعوا مبالغ كبيرة ـ تعويض من خزانة الامبراطورية .

ومع تتبع قضية الاعتراف بالمسيحية ندخل في قضية أخرى ، وهي متى أصبح قسطنطين مسيحياً؟ لعل النصوص التي تركها المؤرخون المعاصرون لعصر قسطنطين هي التي اوجدت جدلاً حول هذا الموضوع . فنجد احدهم يسجل ان الامبراطور اعتنق المسيحية منذ اللحظة الأولى من حكمه ، بينما يرى آخر ان ايمان قسطنطين مرجعه الى شارة الصليب التي ظهرت في السماء عام ٣١٢م. وموجز هذه الرواية ان قسطنطين عندما كان يعد العدة للقاء منافسه مكسنتيوس شهد في السماء راية الصليب وعليها طرة نصها « عز نصره » ، مكتوبة بأحرف من نور ، وان الأمبراطور اتخذ تلك الطرة شعاراً للوائه في حروبه . وهناك رواية ثالثة تختلف عن هذه وتلك ، ورابعة تقول ان قسطنطين لم يُعمد الا على فراش المرت ، وانه تلقى في

converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النزع الأخير التعاليم المسيحية حيث وضع الاسقف يده على رأسه وأتم اجراء الطقوس الدينية ، ثم ما لبث ان اسلم الامبراطور الروح . ولعل ما دفع المؤرخين الى هذا الخلط وتعدد رواياتهم سلوك قسطنطين نفسه .

والواقع ان هناك تدرج بطيء غير محسوس انتهى بإعلان قسطنطين نفسه حامياً للمسيحية . فلقد كان من الشاق على قسطنطين ان يمحو من ذهنه ما تلقنه من عادات ومعتقدات وثنية ، وأن يؤمن بالديانة المسيحية ويعلن ذلك بين يوم وليلة ، فلقد علمته ايضاً التأملات التي يحتمل انها شغلت ذهنه ان يسير بخطى حذرة في تغيير الديانة الوطنية وهو تغيير له خطره وأهميته . والخلاصة ان تيار المسيحية تدفق طوال سني حياته في حركة هادئة وإن كانت سريعة الخطى . ولكن حذر قسطنطين عوق تارة وانحرف تارة اخرى بالاتجاه العام للمسيحية . فلقد وازن قسطنطين دائماً بين آمال رعاياه وبين مخاوفهم ، ومن ذلك أنه كان يصدر مرسومين في وقت واحد ، الأول ينص على الاهتمام الشديد بيوم الأحد وفي ذلك نصر للمسيحيين ، والثاني يحض على استشارة العرافين وفي ذلك نصر للوثنية . ولا شك ان مثل هذه الأمور جعلت المواطنين من مسيحيين ووثنيين يرقبون سلوك امبراطورهما بنفس القدر من القلق وإن اختلفت مشاعر كل منهما .

واستكمالاً لهذه القضية نضع سؤالاً نقول فيه ، ما هي الدوافع التي دفعت قسطنطين الى الاعتراف بالمسيحية ؟ اختلفت الآراء حول هذه الدوافع ، فالبعض يرى أن قسطنطين اعترف بالديانة المسيحية عن اقتناع وعن ايمان وحجتهم في ذلك منبثقة من خُلق قسطنطين وتصرفاته إزاء المسيحيين . ومن ذلك مثلاً بناء العديد من الكنائس . والرأي المضاد يعتمد على تصرفات قسطنطين تجاه الوثنية التي لا تقل سخاء عن ما قدمه للمسيحيين . ويرى فريق ثالث أن إيمان قسطنطين بالمسيحية مرجعه الدوافع السياسية وعلى رأس هذه المجموعة المؤرخ هنري جريجوار Henry Gregoire ، فيقول هنري في معرض حديثه عن فترة حكم قسطنطين من كان يريد الشرق فعليه أن يكون مسيحياً أو صديقاً

للمسيحيين. ولم يكن قسطنطين يستطع أن يسيطر على الشرق وهو الجزء الغني من الامبراطورية برجاله وموارده إلا بمهادنة المسيحيين ، خاصة في الوقت الذي بدأت فيه العناصر الجرمانية تتحرك صوب غرب الامبراطورية .

وفي نهاية الأمر نستطيع القول ان قسطنطين كان رجلاً على مستوى عال من الذكاء فلم يكن يستطيع أن يعلن أنه مسيحي فيغضب الوثنيين ولم يكن يستطيع ان يعلن انه باق على وثنيته وفي هذه الحالة يتطلب الأمر منه أن يتخذ موقفاً من المسيحيين وهذا ما لم يحدث ، بل انه عايش الاثنين معا وأنه كان يميل إلى المسيحية شيئاً فشيئاً حتى اصبح في آخر الأمر مسيحياً .

٢ ـ بناء القسطنطينية .

دأب قسطنطين وتبعاً لدواعي الحرب والسلم على التحرك في يقظة تامة على حدود مملكته الشاسعة . وكان دوماً على أهبة الاستعداد لملاقاة أي عدو خارجي أو داخلي . وعندما تقدمت به الأيام بدأ يتدبر مشروعاً تستقر به قوة العرش الامبراطوري في مكان أشد ثباتاً من روما ، وبدأ يفكر في بناء عاصمة جديدة للامبراطورية. ولم يكن موضع القسطنطينية هو الموضع الأول الذي اختاره قسطنطين في بداية الأمر ، فقد طرأت على ذهنه عدة أماكن لتكون مقر حكمه الجديد ، فنجد انه نظر الى مسقط رأسه مدينة نيش Nish الواقعة على نهر مورافا Morava شمال شبه جزيرة البلقان ، ومدينة سرديكا Sardica (صوفيا Sofia الحالية) ومدينة نيقوميديا التي اتخذها دقلديانوس من قبل . ولما كان قسطنطين يفضل منطقة الحدود بين أوروبا وآسيا ليتمكن من ضرب البرابرة الذين كانوا يقطنون الدانوب ، ويراقب بعين ساهرة تحركات الفرس ، فلقد كانت نيقوميديا أنسب المدن لتكون عاصمة الامبراطورية . ولما كان قسطنطين لا يريد ان يربط مدينته الجديدة بذكرى دقلديانوس ، لذلك آثر اختيار موضعاً آخر يرقب منه تحركات الفرس والبرابرة ، وكان هذا الموضع هو قرية بيزنطيوم التي بنى على انقاضها مدينة القسطنطينية .

ومرقع المدينة الجديدة في شكل مثلث على خليج البسفور يلتقي طرفه المنفرج الذي يمتد شرقاً الى شواطىء آسيا بأمواج البسفور ، وتحد الميناء الجزء الشمالي من المدينة ، أما الجنوب فتحفه مياه بحر مرمرة ، ومن ناحية الغرب تقع قاعدة المثلث التي تواجه قارة أوروبا . واكتسب ميناء القسطنطينية إسم القرن الذهبي لأن الانحناء الذي يرسمه يمكن تشبيهه بقرن الغزال ، ولفظ ذهبي يعبر عن الثروة التي تدفقت على المدينة من أقصى الأرض الى ثغر المدينة الواسع الأمن ، لأن الميناء كان واسعاً ومناسباً جداً لعملية الشحن والتفريغ حيث يندر حدوث المد والجزر . وكان طول لسان البسفور من مصب نهر ليكوس Lycus ـ الذي يمد المدينة بالماء العذب ـ الى الميناء أكثر من سبعة أميال ويبلغ عرض المدخل نحو خمسمائة ياردة ، ويمكن عند الضرورة وضع سلسلة متينة تحمي الثغر والمدينة من هجوم أي اسطول معاد كما كان الحال في مدن العصور الوسطى مثل مدينة دمياط في مصر .

والعاصمة الجديدة تقع على خط عرض ٤٣ وخط طول ٢٩ وتسيطر المدينة على تلالها السبعة وهي تتمتع بمناخ صحي معتدل وتربة خصبة ومدخلها الى القارة الآسيوية قصير المدى ، والدفاع عنه ميسور . كما أن خليجي البسفور والدردنيل يعتبران بوابتين للقسطنطينية ويستطيع من يسيطر عليها أن يغلقهما في وجه أي اسطول معاد ويفتحهما في وجه السفن التجارية ، وما يتبع ذلك من تدفق الثروات الطبيعية والمصنوعات من الشمال والجنوب عبر البحر الأسود والبحر المتوسط .

لعل في كل ما سبق مبرراً كافياً لاختيار قسطنطين لهذا الموقع ، ولكن ثمة مزيج من المعجزة والخرافة كان يعكس في كل عصر قدراً من العظمة على نشأة المدن الكبرى . ولهذا نرى قسطنطين ينسب اختيار هذا المكان الى القوة الإلهية واهتم بأن يسجل في ايجاز بأنه امتثالاً لأوامر الله ، وضع الأساس الخالد لمدينة القسطنطينية ، واستطرد خيال الكتاب الاحقين لعصره وسجلوا ان شبحاً تراءى ليلاً لقسطنطين وهو نائم في رحاب بيزنطة .

Protected by full-text content use terms are applied by registered version

وقالوا ، ان ربة المدينة وحارستها وهي سيدة عجوز تحولت فجأة الى شابة ظهرت في أزهى زينتها حين البسها الامبراطور بيديه شارات الامبراطورية ، وأفاق قسطنطين من نومه وفسر الفأل السعيد وامتثل لإرادة السماء دون تردد . ووردت أسطورة اخرى تقول ان الامبراطور سار على قدميه تتبعه حاشيته كلها ، ورسم بحربته الخط الذي يجب بناء التحصينات الجديدة بحذائه ، ولما سار غرباً على ساحل القرن الذهبي وابتعد عنه ميلين قال له رجاله ، لقد تجاوزنا الحدود التي تتطلبها المدينة ولكن قسطنطين أجاب : « سأسير في طريقي حتى يرى الدليل الخفي الذي يسير أمامي انه من المناسب ان اتوقف .

على أية حال أختيرت قرية بيزنطة مرقماً للمدينة الحديثة ، ولما كان أساس الاختيار عسكرياً ، فإنه رغم موقع المدينة الحصين فقد حصنت أيضاً بالأسوار وأنفق قسطنطين على المدينة بسخاء لبناء الأسوار والأروقة وقناطر المياه ، وعمل جمع غفير من العمال والصناع في بنائها الذي استمر من عام ٣٢٤ - ٣٣٠م . ولما حان موعد الاحتفال بذكرى مولد المدينة وهو الحادي عشر من مايو عام ٣٣٠ م وضع على عربة من عربات القصر تمثال قسطنطين الذي صنع بأمر منه من الخشب المموه بالذهب ، وسارت مواكب الحراس حاملة الشموع المضاءة مرتدية أثمن الثياب ، وفي اليوم نفسه نقش على عامود من الرخام مرسوم امبراطوري يخلع اسم « روما الجديدة » على المدينة ولكن إسم القسطنطينية فاق هذه التسمية .

خلفاء قسطنطين ٣٢٧ - ٣٧٨ م

توفي قسطنطين في عام ٣٣٧ م بعد أن أمضى سنواته الأخيرة في سلام نسبي هيأ له الفرصة لمواصلة إعادة التنظيم الاداري المدني والعسكري للامبراطورية . وخلفه على العرش أبناؤه الثلاثة مجتمعين وهم قسطنطين وقسطنطيوس وقنستانز Constans، وكان الأخوة الثلاثة ميالين بطبعهم الى الشقاق والخلاف ، ولكن هذا الخلاف ما لبث ان انتهى

converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عندما توفي كل من قسطنطين عام ٣٤٠م وقسطانز في عام ٣٥٠م فانفرد قسطنطيوس بالحكم بعد ما هزم منافسه ماجنيتيوس Magnentius في عام ٣٥١م واستمر في الحكم حتى وفاته عام ٣٦١ م . وفي خلال هذه السنوات عادت الأخطار الخارجية تحدق بالأمبراطورية ، فالخطر الفارسي قائم على حدود الامبراطورية من جهة الشرق ، كما ان خطر القبائل الجرمانية على نهر الدانوب والراين في الغرب أصبح أقوى وأشد . وكان ذلك بسبب ظهور قبائل الهون Huns . هذا الخطر الذي توقف لبعض الوقت عندما قضى القيصر جوليان Julian ابن عم الامبراطور على هذا الغزو . وقد أعلى هذا الانتصار من شأن جوليان فنادى به جنوده امبراطوراً عام ٣٦٠ م ، ولكن قسطنطيوس توفي قبل أن تنشى الثورة في البلاد فخلفه جوليان على العرش دون اراقة دماء .

جوليان Julian ٣٦١ - ٣٦٣ م .

كان الاهتمام بتوفير الأمن والرفاهية للرعية هي شغل جوليان الشاغل ، وكان يخصص اوقات الفراغ الشتوية التي اعتاد قضاءها في باريس في أعمال الإدارة المدنية . ولقد وجد جوليان متعة في شخصية الحاكم والقاضي أكثر من شخصية القائد العسكري . وكان من عادته ايضاً قبل ان يذهب للحرب إحالة معظم القضايا العامة والخاصة إلى حكام الولايات حتى إذا عاد راجع كل اعمالهم . كما أعاد جوليان معظم مدن غاله الى سابق عهدها بعد ان ظلت ردحاً طويلاً من الزمن عرضة للاضطرابات الأهلية وحروب المتبربرين . وانتعشت روح الاقبال على العمل أملا في المتعة والتنعم ، وازدهرت الصناعة والتجارة مرة أخرى تحت حماية القوانين . وزخرت الهيئات المدنية مرة أخرى بالأعضاء النابغين المرموقين ، وتجلى الرخاء الوطني ورغد العيش في كثرة الاتصالات بين الأقاليم وبعضها .

ولم يكن كل هذا سبباً في شهرة جوليان التاريخية ، بل اكتسب شهرته بارتداده الى الوثنية . وقد كان معروفاً بهذه الميول من قبل بسبب

converted by Tif Combine - (no stamps are applied by registered version)

نشأته . وبعد ان اصبح امبراطوراً أعلن عن ذلك صراحة وأصدر مرسوماً يقضي بفتح المعابد الوثنية وتقديم القرابين على المذابح من اجل عبادة الآلهة . ولا شك أن مثل هذا العمل قد انعش آمال الوثنيين بعدما عادت لهم الحقوق الدينية والسياسية . وحتى لا يغضب جوليان رجال الدين المسيحي فإنه دعاهم الى قصره كما دعا رجال الدين الوثنيين وأعلن لهم انه يريد ان تعيش الامبراطورية في تسامح ، ولكل فرد الحرية في اختيار الدين الذي يراه . وبذلك نقول ان جوليان حذا حذو قسطنطين من الجانب النضاد ، فإن كان قسطنطين اعترف بالديانة المسيحية ثم مال اليها في آخر الأمر ، فإنه على العكس نجد جوليان اعاد للوثنية كيانها في أول الأمر ثم عاد اليها بعد ذلك . فقد أبعد جوليان المسيحيين من الوظائف العليا وأحل محلهم الوثنيين ، كما رفع الرموز والصلبان المسيحية من بيارق الجيش واسلحة الجنود ووضع مكانها شارات وثنية ، كما منع تعيين المدرسين المسيحيين في المدارس وجعل هذه الوظائف مقصورة على الوثنيين حتى يشب الجيل الجديد وهو متشرب بالديانة الوثنية . وكان في ذلك ضربة قاصمة للمسيحية لأن بعض المدرسين من المسيحيين تحولوا الى الوثنية حتى يحافظوا على وظائفهم.

جوفيان Jovian ٣٦٣ - ٣٦٤ م .

ورغم كل هذا فإن هذه الحركة انتهت بالإخفاق ، فلم يعد العالم متقبلاً للوثنية وكانت المسيحية أنسب له . وان كان جوليان قد فشل في هذا الجانب فإنه فشل ايضاً في الجانب العسكري ، فلقد حاول غزو فارس وأمعن في تقدمه ولكنه مات أثناء عودته في عام ٣٦٣ م . فانتخب الجيش قائداً مسيحياً يدعى جوفيان الذي وقع معاهدة مهينة تقضي بهدنة لمدة ثلاثين عاماً نظير تنازله عن اربع ولايات ، كما تنازل أيضاً عن سيادة الامبراطورية على دولة أرمينيا ، ولكن هذا الامبراطور الجديد ما لبث أن مات في العام التالي ٣٦٤ م .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالنز Valens ٣٦٤ - ٣٧٨ م .

نادى الجيش بالقائد فالنتيان امبراطوراً بعد وفاة جوفيان . وقد آثر فالنتيان أن يحكم الامبراطورية من روما ، لذلك ترك أخاه فالنز امبراطوراً شريكاً له في القسطنطينية . وكان فالنز هذا يعتنق المسيحية على المذهب الاريوسي فكرهه الناس واعتبروه مهرطقاً ، ولذلك اتسم حكمه بالفتن المتواصلة . وكانت نهايته عندما دفع الهون بالقوط الغربيين الى حدود الامبراطورية حيث حصلوا على إذن من الامبراطور بعبور نهر الدانوب والاستقرار داخل الامبراطورية ، ويلاحظ ان هذه الحادثة تعتبر بداية استقرار البرابرة داخل حدود الامبراطورية . وعلى اية حال لم يستقر السلام بين الجموع الدخيلة وبين موظفي الامبراطورية ، وعندما شجر النزاع بينهم زحف القوط الى القسطنطينية فخرج فالنز لملاقاتهم على عجل دون ان ينتظر المدد القادم من الغرب فلقى جيشه هزيمة قاسية في معركة أدرنة عام ٣٧٨ م . وقتل فالنز في هذه المعركة وبموته تظهر أسرة جديدة على عرش الامبراطورية وهي أسرة ثيودوسيوس Theodosius .

تاريخ أوروبا جدير بالدراسة، فهي لم تصل إلي ما وصلت إليه من علم وثقافة واختراع وابتكار واحترام لمبادئ الحرية والديمقراطية والمساواة إلا بعد أن مرت بعصور مظلمة مازالوا يخجلون منها. تلك هي الفترة بين سقوط روما وسقوط القسطنطينية. ولكي نبدأ التاريخ مع بدايته نقول باختصار: اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية بعد أن كان أسلافه يعذبون المسيحيين بهدف القضاء علي تلك العقيدة الجديدة التي تنكر عبادة الأوثان، تنادي بالرحمة والمحبة، وبوحدة الإنسانية ورفض الاستعباد. انتقل قسطنطين إلي الشرق وأسس القسطنطينية. اهتم بشئون الدين أصدر مرسوما سنة٣١٣ للسماح بالمسيحية ومنع الاضطهاد ودعا لتوحيد الكنائس. خلفه تيودوسيوس وكان متزمتا فقام بهدم المعابد الوثنية ومنع أي ديانة أخري غير المسيحية، وأصبح لرجال الدين وآرائهم مكانة خاصة.

ثم انهارت الامبراطورية الرومانية أمام القبائل الجرمانية، وانهزمت القوي السياسية والعسكرية. انقسمت البلاد وتوزعت السلطة المركزية علي المحليات التي استولي النبلاء علي أجزائها. وظهر نظام الإقطاع في مجموعات ضعيفة متناثرة، لم يبق في الساحة واقفا سوي السلطة الدينية منفردة والانفراد بالسلطة يفسد، سيطر رجال الدين علي القرار وعلي العقول.. جعلوا ينشرون ما يرون من مبادئ، يفسرون الآيات حسب مصالحهم وليس بما جاء بالإنجيل، بدأ رجال الدين يستمدون السلطة الدنيوية، تناسوا رسالتهم الروحية السماوية، واهتموا بأمور الدنيا، وتمسكوا بالسيطرة التي تلغي العقل والفكر والرأي والمبادرة، اعطوا لأنفسهم حق الادانة والعقاب، اصبحت الفتوي صنعة من لا صنعة له، وحققوا منها ثراء واسعا نصبوا أنفسهم مشرعين ومحاسبين وقضاة ومنفذين للأحكام الصادرة ضد أي فكر يقوض سلطاتهم أو يسمح للإنسان أن يفكر لنفسه.(فرضوا علي الشعوب كيف يفكرون وماذا يفعلون وماذا يقولون بل وأي ملابس يرتدون)، حرم المفكرون من الحق في إبداء الرأي أو الاختلاف ومجادلة الحجة بالحجة.

عندما أراد البابا جيريجوري السابع تجميع القوي المحاربة في أوروبا حوله قام بحروب الفرنجة - التي يطلق عليها خطأ الصليبية لأن الجنود كانوا يرسمون الصليب علي ملابسهم - وعندما فشل أن يجد آية في الإنجيل تبرر الغزو ادعي انها لحماية المقدسات المسيحية في فلسطين. وهناك قتل العرب المسيحيين والمسلمين واليهود وكهنة الكنيسة الشرقية علي حد سواء بل قاموا بغزو مماثل لقمع الكاثوليك في جنوب فرنسا لعصيانهم الأوامر، اضطهدوا كل من تجرأ علي تقديم فكر مستنير.. هؤلاء حوكموا وصدرت ضدهم أحكام بالعقاب والنفي وتوقيع الغرامات بأشكالها، وإن أراد صاحب فكر الدفاع عنهم عوقب بدوره. ارتكبوا الجرائم باسم الدين وقتلوا الأبرياء باسم العقيدة وهي منهم براء، فرقوا بين الأزواج، شككوا الإنسان في كل ما يفعل وكل من حوله وجرموا كل سلوك قد يؤدي الي يقظة عقلية جعلوا الكتابة خطيئة، والقراءة خطيئة، والفن عثرة، والمبادرة بالرأي انحرافا يستحق العقاب.

قامت محاكم التفتيش لعقاب المخالفين وصدرت صكوك الغفران والفتاوي لمكافأة الملتزمين، رفضوا المعتقدات الأخري جميعها وتصوروا أن عقيدتهم وحدها صحيحة.

***

كانوا يخشون أكثر ما يخشون ليس العدو لكنهم كانوا يخشون عقل الإنسان.. الذي هو أروع وأعظم هبة من الخالق للمخلوق فهو الذي يمكنه من أن يثور ضد سلطانهم وينتقص مما يتمتعون به من مزايا ومكاسب. كان النور عدوهم الأول فالنور يظهر الحقائق ويوضح الأمور ويضع كل شئ في نصابه الصحيح وحجمه الطبيعي. اذا غاب النور ساد ظلام لا رؤية فيه ليتخبط البشر ويتطاحنوا صراعا حول ما لا يعرفون.. ولا يدركون ما يفعلون لأنهم لا يرون بعد أن فقدوا الرؤية والرؤي.

عندما قدم كوبرنيكس نظريته التي تقول إن الأرض جرم سماوي متحرك اعتبر زنديقا يستحق الموت، وعندما أيده جاليليو اعتبر مخالفا لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية وحكم عليه بالاقامة الجبرية خارج روما مدي الحياة. وضعوا قائمة بالكتب المحرمة وكانوا يعاقبون من يحوزها بما فيها كتب ابن رشد حول تفضيل العقل علي النقل، رفضوا مدرسة ارسطو لانها تقوم علي العقل والمنطق ولا تناسب الهيمنة الدينية، استعملوا اسلوب الحرمان من الكنيسة لعقاب كل من خالفهم حتي لو كان امبرطورا مثل هنري الرابع في المانيا لانه رفض تسلطهم، وفريدريك الثاني(أعجوبة الدنيا) لتمرده، تمسكوا بمظاهر الاخلاق بسلوك غير اخلاقي ضد الدين رفضوا الفكر العلمي بل كفروه وانتشرت الخرافات والخزعبلات والتفسير الديني للظواهر الطبيعية والاجتماعية، انتشر ظلام خيم علي العقول فتوقفت، ساد الخوف والجمود، ارتد الزمان وتوقفت مسيرة العلم والتقدم.

عندما اراد شاعر ان يصور اهوال الموقف قال: لو ان عصفورا تغني بصوته الملائكي.. لعوقب لانه لم يردد الاغاني الدينية ولعلهم عاقبوا عصفورا علي شدوه؟!

لكن.. هذه الاحوال الظالمة والمظلمة ما كان يمكن ان تستمر لأن الله - سبحانه - يجرب البشر ولا ينساهم وصحيح العقائد السماوية لابد ان يظهر يوما وينتصر لها، اما كيف كان الخروج من تلك الحقبة الي التحرر والنور والمعرفة.. فهذه قضية أخري.

***

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم التاريخ

بسم الله الرحمن الرحيم

الاختبار النهائي للفصل الدراسي الثاني ١٤٣٤هـ/ ١٤٣٥هـ
المادة : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى . رقم المجموعة ( ) رقم التسلسل ( )
اسم الطالب / .....
الرقم الجامعي/ .....

•• استعن بالله ثم أجب عن **الأسئلة الآتية** ولا تدع قلمك يسبق فكرك . (نموذج رقم ٤)

السؤال الأول :

– تاريخ أوربا جدير بالدراسة فهى لم تصل إلى ما وصلت إليه من علم وثقافة واختراع وابتكار وتقدم إلا بعد أن تعلمت من الفترة ما بين سقوط روما إلى سقوط القسطنطينية . ناقش أهم نظريات بداية العصور الوسطى .

السؤال الثاني :

– اكتب مقالا تاريخيًا عن نشأة الرهبنة في في أوروبا العصور الوسطى وعن أهم الحركات الإصلاحية التي دعت لإصلاح الحياة الدينية في أوروبا القرن التاسع الميلادي . مع إبداء الرأي.

السؤال الثالث:

١ ـ في رأيك ما هى أهم معالم حكم شارلمان ومميزات عصره ؟
٢ – تحدث عن مشروع (أوتو الكبير) وحلم إعادة تأسيس الإمبراطورية الرومانية الغربية .
٣– هل كان قسطنطين مسيحيًا حقًا؟ وضح ذلك مع إبداء رأيك .

سؤال خاص لمن لم يختبر الشهري:

١– تحدث عن أهم المميزات والخصائص العامة للعصور الوسطى الأوروبية ؟ مع إبداء الرأي .
٢– اعرض لأهم النظريات التي دارت حول نهاية العصور الوسطى ؟

والله الموفق والمستعان ،،،

العزيز عبد

**••ابني الطالب : لا يوجد سقف يحد من حريتك في طرح الأفكار ، ولست مقيداً بتأييد أو مجاراة ما طُرح أثناء المحاضرات .

•• ابني الطالب : التقييم سيتم على أساس الجرأة على طرح الأفكار ووجهات النظر ، ومن ثم تنظيمها والتدليل عليها ، وليس على كم المعلومات التي ستسردها.

الفصل الأول
روما تنعى من بناها

بومبى وقيصر

فى سنة ٤٩ ق م اشتعلت الحرب الأهلية بين الزعيمين الرومانيين بومبى وقيصر، وقد حلت الهزيمة ببومبى فى معركة فرسالوس ببلاد اليونان، ففر إلى مصر، حيث قتل فى العام التالى. وبعدها بسنوات أربع أعلن يوليوس قيصر دكتاتورا مطلقا، على أن الغيورين على التقاليد الجمهورية فى مجلس السيناتو قاموا باغتياله فى قلب المجلس فى ١٥ مارس ٤٤ ق م.

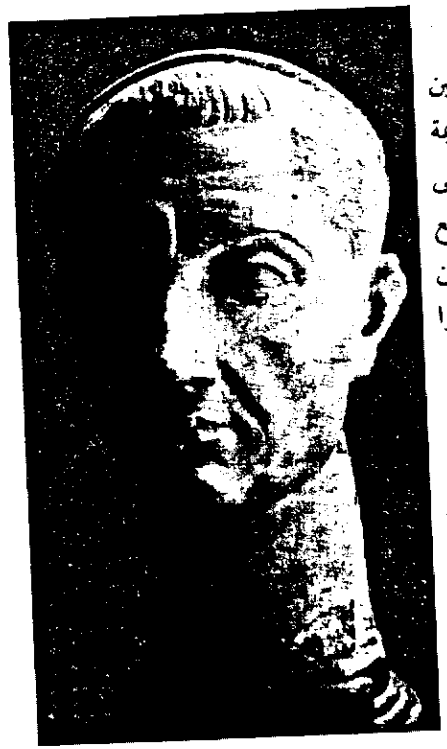

يوليوس قيصر

مارك أنطونى

واشتعلت الحرب الأهلية من جديد بين معسكر أوكتافيان ومارك أنطونى وليبيدوس من ناحية، وبين بروتوس وكاسيوس من ناحية أخرى. وقد جرَّ هذا الصراع الدامى أطرافا أخرى إلى ساحة القتال، فقد وقف البارثيون مع معسكر بروتوس، بينما ألقت مصر بثقلها وراء مليكتها كليوباترا وعشيقها الرومانى مارك أنطونى. وبعد هزيمة بروتوس وكاسيوس فى معركة فيلبى سنة ٤٢ ق م ببلاد اليونان، كون المنتصرون حلفا ضم أوكتافيان ومارك أنطونى وليبيدوس. ولكن الخلاف سرعان ما دبَّ بين الحلفاء، فأزيح ليبيدوس سنة ٣٦ ق م، ثم ما لبث الخلاف أن نشب بين أوكتافيان ومارك أنطونى. وفى سبتمبر ٣١ ق م ألحق أوكتافيان الهزيمة بمارك أنطونى وحليفته كليوبترا فى موقعة أكتيوم البحرية ببلاد اليونان أيضا. وبانتهاء أنطونى وكليوبترا خلا المسرح تماما لأوكتافيان.

أوكتافيان أغسطس

كان أوكتافيان حفيدا لجوليا شقيقة قيصر، وقد تبناه قيصر وخلع عليه اسمه وأعده لكى يخلفه فى الحكم من بعده. أقدم أوكتافيان على خطوات هامة فى إدارة إمبراطوريته الشاسعة التى امتدت من اسكتلندة فى الغرب حتى نهر الفرات فى الشرق، ومن نهر الدانوب شمالا حتى بلاد النوبة جنوبا، فخفض فيالقه من ستين إلى ثمانية عشر فيلقا، وقام بتوطين أكثر من مائة ألف من قدامى المحاربين الرومان فى الولايات الإمبراطورية فى الشمال الأفريقى والشام وآسيا الصغرى. وقد تحملت الخزانة المصرية تغطية نفقات هذا التوطين بعد أن أصبحت مصر ولاية رومانية.

هذا، وقد شغل أوكتافيان منصب القنصلية دون انقطاع ما بين عامى ٣١، ٢٣ ق م، ثم خوله السيناتو بسلطات عليا على كل فرق الجيش فى الولايات الإمبراطورية. واختار أوكتافيان لنفسه لقب «المواطن الأول» (Princeps)، ثم خفض عدد أعضاء السيناتو من ألف إلى ستمائة عضوا، مع الاحتفاظ لنفسه بحق تعيين من يراه مناسبا للعضوية. وفى نهاية الأمر صار أوكتافيان ـ أو أغسطس (المهيب) كما صار يعرف ـ يجمع فى يديه سلطات القائد الأعلى للجيوش الرومانية وصلاحيات التريبون أو القاضى الأكبر. وفى سنة ١٣ ق م اتخذ لقب «الكاهن الأكبر» (Pontifex Maximus)، وهكذا جمع فى شخصه السلطتين الزمنية والدينية.

الإمبراطور أغسطس

آداب العصر

ومع الإحساس بالسلام فى الإمبراطورية، ازدهرت الفنون والآداب على يد عديد من كتاب العصر وعلى رأسهم ڤرجيل، وليڤى، وهوراس، وأجريبا، ومايكيناس. وقد أنتج الشاعر ڤرجيل ملحمته الخالدة «إينياس» مؤسس مدينة روما الأسطورى، وجعل من بطله إينياس المثل الأعلى للكفاح ومغالبة تقلبات الأوقات والحكمة والتقوى والتفانى من أجل الواجب. أما ليڤى فقد تقفَّى تاريخ روما منذ البدء حتى عصر أغسطس، معرجا على لحظات

الفصل الأول
روما تنعى من بناها

يوميى وقيصر

يوليوس قيصر

فى سنة ٤٩ ق م اشتعلت الحرب الأهلية بين الزعيمين الرومانيين يومى وقيصر، وقد حلت الهزيمة بيومى فى معركة فرسالوس ببلاد اليونان، ففر إلى مصر، حيث قتل فى العام التالى. وبعدها بسنوات أربع أعلن يوليوس قيصر دكتاتورا مطلقا، على أن الغيورين على التقاليد الجمهورية فى مجلس السيناتو قاموا باغتياله فى قلب المجلس فى ١٥ مارس ٤٤ ق م.

مارك أنطونى

واشتعلت الحرب الأهلية من جديد بين معسكر أوكتافيان ومارك أنطونى ولبيدوس من ناحية، وبين بروتوس وكاسيوس من ناحية أخرى. وقد جرَّ هذا الصراع الدامى أطرافا أخرى إلى ساحة القتال، فقد وقف البارثيون مع معسكر بروتوس، بينما ألقت مصر بثقلها وراء مليكتها كليوباترا وعشيقها الرومانى مارك أنطونى. وبعد هزيمة بروتوس وكاسيوس فى معركة فيلبى سنة ٤٢ ق م ببلاد اليونان، كون المنتصرون حلفا ضم أوكتافيان ومارك أنطونى ولبيدوس. ولكن الخلاف سرعان ما دبَّ بين الحلفاء، فأزيح لبيدوس سنة ٣٦ ق م، ثم ما لبث الخلاف أن نشب بين أوكتافيان ومارك أنطونى. وفى سبتمبر ٣١ ق م ألحق أوكتافيان الهزيمة بمارك أنطونى وحليفته كليوباترا فى موقعة أكتيوم البحرية ببلاد اليونان أيضا. وبانتهاء أنطونى وكليوباترا خلا المسرح تماما لأوكتافيان.

أوكتافيان أغسطس

كان أوكتافيان حفيدا لجوليا شقيقة قيصر، وقد تبناه قيصر وخلع عليه اسمه وأعده لكى يخلفه فى الحكم من بعده. أقدم أوكتافيان على خطوات هامة فى إدارة إمبراطوريته الشاسعة التى امتدت من اسكتلندة فى الغرب حتى نهر الفرات فى الشرق، ومن نهر الدانوب شمالا حتى بلاد النوبة جنوبا، فخفض فيالقه من ستين إلى ثمانية عشر فيلقا، وقام بتوطين أكثر من مائة ألف من قدامى المحاربين الرومان فى الولايات الإمبراطورية فى الشمال الأفريقى والشام وآسيا الصغرى. وقد تحملت الخزانة المصرية تغطية نفقات هذا التوطين بعد أن أصبحت مصر ولاية رومانية.

هذا، وقد شغل أوكتافيان منصب القنصلية دون انقطاع ما بين عامى ٣١، ٢٣ ق م، ثم خوله السيناتو بسلطات عليا على كل فرق الجيش فى الولايات الإمبراطورية. واختار أوكتافيان لنفسه لقب «المواطن الأول» (Princeps)، ثم خفض عدد أعضاء السيناتو من ألف إلى ستمائة عضوا، مع الاحتفاظ لنفسه بحق تعيين من يراه مناسبا للعضوية. وفى نهاية الأمر صار أوكتافيان ـ أو أغسطس (المهيب) كما صار يعرف ـ يجمع فى يديه سلطات القائد الأعلى للجيوش الرومانية وصلاحيات التريبون أو القاضى الأكبر. وفى سنة ١٣ ق م اتخذ لقب «الكاهن الأكبر» (Pontifex Maximus)، وهكذا جمع فى شخصه السلطتين الزمنية والدينية.

الإمبراطور أغسطس

آداب العصر

ومع الإحساس بالسلام فى الإمبراطورية، ازدهرت الفنون والآداب على يد عديد من كتاب العصر وعلى رأسهم ڤرجيل، وليڤى، وهوراس، وأجريبا، ومايكيناس. وقد أنتج الشاعر ڤرجيل ملحمته الخالدة «إينياس» مؤسس مدينة روما الأسطورى، وجعل من بطله إينياس المثل الأعلى للكفاح ومغالبة تقلبات الأوقات والحكمة والتقوى والتفانى من أجل الواجب. أما ليڤى فقد تقفَّى تاريخ روما منذ البدء حتى عصر أغسطس، مُعرجا على لحظات

الفخار والبطولة فى سجلاتها. وخاطب فى «أناشيده» فضائل الرومان وبأسهم، موصيا بضرورة الرجوع إلى طرائق البساطة الأولى.

وكذلك ارتقت الفنون التشكيلية فى عهد أغسطس، ومن روائع العصر: مذبح السلام الرخامى، وميادين السوق، ومعابد قيصر وجوليا وإميليا، ومنصة الخطباء. هذا إلى جانب المسارح والحمامات العامة والمتنزهات والبحيرات الصناعية والمكتبات. ونظرا لاستخدام الرخام بكثرة فى أعمال البناء والترميم فى عصر أغسطس، فإن كاتب سيرته سيوتونيوس قد لاحظ أن سيده قد تسلم روما وهى مبنية من الطوب ثم تركها وهى من الرخام.

الصراع على الحكم

توفى أغسطس سنة ١٤م، فخلفه فى الحكم ابنه بالتبنى طيبريوس (١٤ ـ ٣٧م)، وكان جنديا ماهرا وشجاعا، وسار على درب أغسطس فى سياسته الخارجية والداخلية. ولكن خلفاء طيبريوس الثلاثة كانوا سبّة فى جبين البيت الحاكم، فقد كان أولهم مجنونا (كاليجيولا ٣٧ ـ ٤١م)؛ وكان الثانى تافها (كلوديوس ٤١ ـ ٤٥م)؛ والثالث معتوها متوحشا (نيرون ٥٤ ـ ٦٨م). وبمقتل نيرون انتهى بيت قيصر ـ أغسطس، فظهر على المسرح أربعة قادة يتكالبون على العرش، وهلك فى الصراع خمسون ألف نسمة فى مدينة روما وحدها فى عام واحد. وانتهى الأمر بفوز قسباسيان (٦٩ ـ ٧٩م)، وبدأ سلسلة من الأباطرة الأقوياء وهم: تيتوس، ودوميتيان،

مدينة روما - رسم تخيلى

ونيرفا، وتراجان، وهادريان، وأنتونينوس بايوس، ثم ماركوس أوريليوس (٧٩ ـ ١٨٠م). غير أنه فى سنة ١٩٣م فرض الحرس البرايتورى ضابطا اسمه برتيناكس للجلوس على العرش الإمبراطورى، وبذلك بدأت سابقة خطيرة فى الحكم الرومانى. ويلاحظ أنه من بين الثلاثة وعشرين إمبراطورا الذين حكموا فى القرن الثالث حتى مجىء الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤م)، هلك عشرون منهم فى الصراع على كرسى الحكم. وخلال هذا الصراع على السلطة دمرت مدن أنطاكية، وبيزنطة، وليون، وأعدم عدد من أعضاء السيناتو.

ولعل من أهم التغيرات التى طرأت على المجتمع الرومانى فى تلك الحقبة أن عددا وافرا من أبناء الطبقة الوسطى تحت وقع الضرائب الثقيلة قد تدنوا إلى مستوى الطبقات الدنيا (Humiliores)، وهكذا بعد أن كان المجتمع الرومانى يضم طبقات ثلاثا: عليا ووسطى ودنيا، لم يعد هناك غير طبقتين العليا والسفلى واختفت تماما الطبقة الوسطى.

من التحولات الخطيرة أيضا فى القرن الثالث للميلاد، انهيار نظام دويلة المدينة (Polis)، وسقوط سماتها الحضارية من دستورية وعدالة اجتماعية وسيادة السلام. وقد كان طبيعيا مع هذا التدهور أن تتحول أحوال الشعب الرومانى إلى الغوغائية، كما تحكم البرابرة الجرمان من الضباط المرتزقة فى مصير الحكم والحكام.

الحرس الإمبراطورى

ولعل أخطر التحولات جميعا ما حدث للمواطن الأول، أى الإمبراطور نفسه، ففى أيام مجده الأولى كان يملك كل السلطان الدنيوى والدينى، وكان عقاب من يجرؤ على مخالفته الإعدام أو مصادرة الأملاك، أو الانتحار. على أنه عندما تحلل نظام الحكم وصارت الأمور بيد الحرس الإمبراطورى من الجند المرتزقة، صار الإمبراطور مجرد دمية فى أيدى هذا الحرس الذى بات يخلع ويقتل ويعين من يشاء من الجنرالات وأعضاء السيناتو للجلوس على العرش؛ وذلك مقابل رشوة دسمة لقادة الحرس. ومع هذا التدهور انقطعت الصلة تماما بين الحاكم والرعية، وانتهزت المجالس المحلية فى الولايات الفرصة للنهب والسلب واكتناز المال. ومع هذا التدنى السياسى والاقتصادى والاجتماعى لجأ الناس إلى الملذات الحسية هروبا من الواقع المر الأليم، وغصّ المجتمع الرومانى بالانتهازيين والمرابين والعاطلين ومحدثى النعمة، وهذه جميعا علامات الانفصام ومؤشرات إلى اقتراب النهاية.

المجالدون

ولكى نستشف روح العصر علينا أن نقلب فى آدابه وفلسفاته السائدة فى حديثه عن رياضة المجالدين (Gladiatoers) وهى الرياضة التى ملكت على قلوب الرومان من خاصة وعامة. يقول

ترتوليان (قرن ٣م) بأن الرومان باتوا يشتهون الموت؛ «فالرجال يضحون عبثا بأرواحهم، والنساء يضحين بأجسادهن، وفى الحالين امتهان لكرامة الإنسان روحا وجسدا».

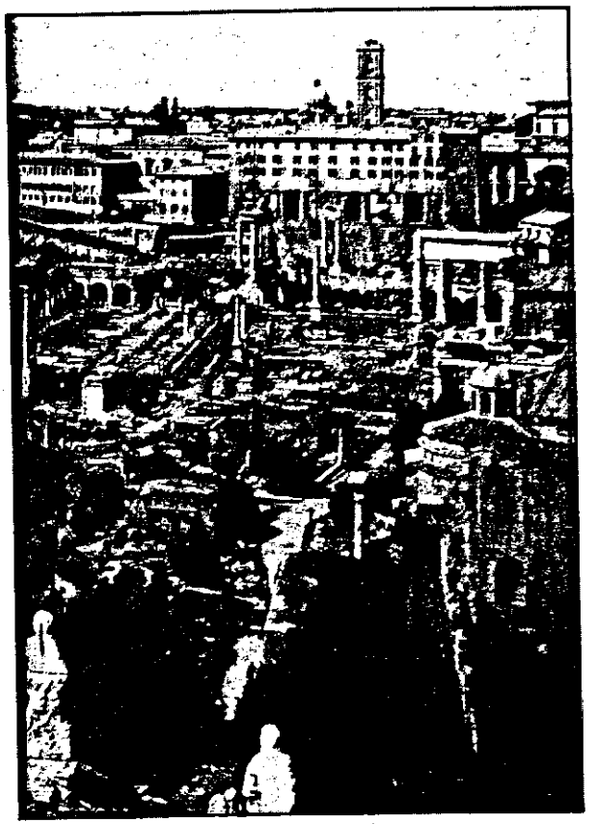

آثار مدينة روما

ويذكر فى هذا الصدد أنه فى سنة ١٧٤ ق م تجالد أربعة وسبعون رجلا على شرف روح والد تيتوس فلافيوس. وبعد انتصار قيصر على بومبى فى واقعة فرسالوس، أقام قيصر حفل مجالدات بين ستمائة من الرجال ابتهاجا بالنصر، وكان قيصر يريد المزيد من المجالدين لولا اعتراض السيناتو على ذلك. وأما أغسطس فقد بلغ المجالدون فى عهده عشرة آلاف من الرجال، وبعد أن ضم الإمبراطور تراجان ولاية داكيا إلى حظيرة الإمبراطورية، ظل آلاف المجالدين يقتلون واحدهم الآخر فى احتفال دام أربعة أشهر كاملة.

لوحة من الفسيفساء - تصور «الجلادين» - العصر الرومانى

كانت المجالدات تتم فى أول الأمر فى الساحة العامة لمدينة روما، وكان ضحاياها من المحكوم عليهم بعقوبة الإعدام، أو من الأسرى فى الحرب من غال، وأسبان، وتراقيين، وجرمان، وأغارقة، وسوريين، وآسيويين. ومع انهيار الجمهورية الرومانية وقيام العصر الإمبراطورى بدأ الرومان أنفسهم يشاركون فى المجالدة. ويعكس هذا التحول شعورا باليأس واشتهاء الموت لدى الرومان، كما عبر عن ذلك الكاتب كبريان (قرن ٣م). وكان على المجالد أن يقسم يمينا بأن يتحمل ما يحل به من جرٍّ أو وثاقٍ أو تقطيع بالسيف. ولم يكن هذا القسم موجها كالعادة للآلهة فى الكابيتول (الآلهة العلوية) وإنما إلى الآلهة السفلية من سادة الموت وأمراء دروب الظلمات (Dei inferni).

انتحار «كليوباترا»

هذه الروح، روح اشتهاء الموت لدى الرومان والتى عبر عنها تيرانس (قرن ٢ ق م) ظلت لصيقة بالآداب اللاتينية، فقد استخدمها بعد ذلك بستة قرون القديس أغسطينوس عندما شبه الخاطئ اليائس من الرحمة الإلهية بهؤلاء المجالدين الذين كتبوا على أنفسهم الهلاك. وهكذا تحول جمهور السيرك الرومانى وقيصرهم جميعا إلى جلادين،

احتفالات السيرك - لوحة من الفسيفساء - العصر الرومانى

وصار «استعذاب الموت» (amor mortis) وباءً رومانيا، ومع ترسخ هذه العلة من السادية والماسوكية فى نفوس الرومان، رفع الرومان من رذيلة إهدار كرامة الإنسانية والتلذذ بهذه المهانة حتى صارت واحدة من فضائلهم!

وجريا وراء هذه القسوة اللا آدمية صار مألوفا عن الرومان إعدام أسرى الحرب بالجملة، وقتل الفارين من ميدان القتال دون محاكمة، وتعذيب الشهود فى قضايا المحاكم. والتطور الآخر فى هذا المجال أن الكثيرين من أبناء الشيوخ الرومان وطبقة الفرسان قد تحايلوا على القوانين ودخلوا ساحة المجالدة ولكأنهم يشتهون العار والموت معا، وهذا دليل دامغ على تسرب روح القنوط واليأس إلى نفوس المجتمع الرومانى من عامة وخاصة.

ويرجع «لوكان» هذا التدهور الأخلاقى إلى أيام الصراع بين ماريوس وسوللا (قرن ١ ق م)، وما تبع ذلك من حمامات الدم بعد سيطرة ماريوس على روما. كما يمثل عام ٣١ ق م، سنة انتصار أوكتافيوس اغسطس على خصومه وخروجه سيدا أوحد على الإمبراطورية، بالنسبة للكثيرين حربا غير متكافئة بين معسكرين غير متكافئين، وبأنه بعد انتصار أغسطس وانتحار أنطونى وكليوباترا، صار التقليد فى المجتمع الجديد الركوع أرضا لتقبيل قدم «المواطن الأول»، وبات النفاق السبيل الأمثل للتسلق على سلم القيصر «المؤله». وقد عبر عن هذا التدهور والانحطاط خير تعبير الفيلسوف إبكتيتوس بقوله: «كم من المهانة بات على المرء أن يتحملها كى يصبح مرموقا فى روما... لقد بات علينا أن نقبل القدم، وأن نلثم أيدى العبيد من حشم وخدم حتى يُنعَم علينا بالوظائف العليا والقاب الشرف فى الدولة». ثم يوجه الكاتب حديثه إلى واحد من أرستقراطية روما الذى كان قد شغل منصب القنصلية مرتين قائلا له: «إنك لا تعدو أن تكون عبدا كأى عبد آخر بيع مرات ثلاثا فى أسواق النخاسة، رغم أنك لم تعرض سلعة فى أسواق العبيد، ورغم أنك قد تحدرت من أب وأم من الأحرار.. ولكنك الآن لا تملك إلا أن تصبح واحدا من كثيرين تحت مظلة السيد القيصر... وهذا الشعور بالأمان الكاذب هو العبودية نفسها... إن سيدكم يمسك بالسوط تماما مثلما يفعل تاجر النخاسة».

ليس غريبا فى هذا الجو المخيف أن يقبل الجميع فى روما على ساحة المجالدة، فهى أصدق الساحات للتعبير عن حال المجتمع الرومانى وهو فى مهب الريح. وقد وصل الحد فى السيرك إلى أن الجلادين كانوا يستعينون بقضبان من الحديد الملتهب لمطاردة خصومهم فى ساحة القتال. ويمكن تفسير المجالدة أيضا على أنها ضرب من ضروب الإلهاء لانتزاع التصفيق من الغوغاء فى السيرك لشجاعة زائفة، بعد أن فشلت الفيالق الرومانية فى ميادين القتال ضد البارثيين فى الشرق وضد جماعة الجرمان على الراين والدانوب، فهى على حد تعبير ترتوليان «عزاء» (Solacium) للجميع.

ويشبه الفيلسوف سنيكا المواطنين الرومان عن بكرة أبيهم بحشد وافر من المجالدين الذين لا أمل لهم فى الحياة الكريمة، فليس ثمة وطن مأمون، ولا قضية يكافحون من أجلها، ولا عدو واضح المعالم أمامهم، وإنما بات المواطن يقتل مواطنا آخر دون سبب معقول إلا شهوة فى الموت.

ولقد فسر المعاصرون سفك الدماء الغزيرة فى السيرك فى الاحتفالات التى أقامها يوليوس قيصر سنة ٤٦ ق م على أنها خبيثة لتعطش قيصر للمزيد من الدماء. كما أن نهاية شيشيرون الخطيب الرومانى المرموق، فى ٧ ديسمبر سنة ٤٣ ق م، فى أعقاب مهاجمته لاستبداد قيصر، قد جاءت شبيهة بطقوس المجالدة، فعندما هاجمه زبانية قيصر وهو فى محفته فى شوارع روما، مدَّ لهم شيشيرون عنقه طواعية لتطيح بها السيوف وهو فى حال استسلام كامل. كما فسر البعض هذا الدم المهراق فى السيرك والشارع الرومانى على أنه طقس وثنى ترتوى من خلاله ربة الأقدار المنتقمة «نيميسيس» (Nemesis)، جزاءً وفاقا لآثام الرومان.

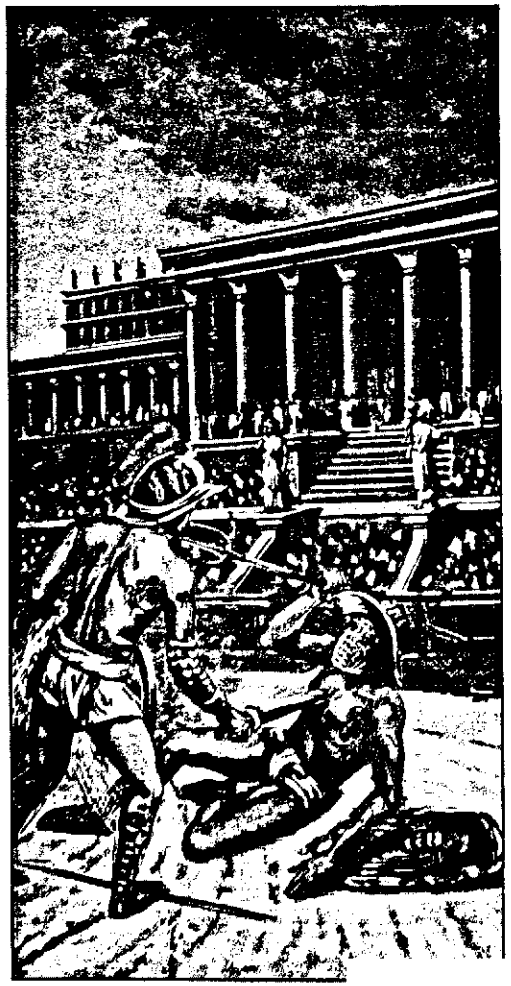

المصارعة حتى الموت

كاليجيولا

يلاحظ أيضا أن روما قد ابتليت بعدد وافر من الأباطرة المتهوسين بداء جنون العظمة، وكلما ازداد جنون القيصر ازدادت معه رذيلة النفاق الاجتماعى المستمدة شعائره من ساحة المجالدة: ويروى لنا سيوتونيوس كيف أن اثنين من منافقى البلاط فى عهد الإمبراطور المختل كاليجيولا وهما سيكوندوس وإفرانيوس أقسما عندما اعتلت صحة الإمبراطور بأن يدخلا ساحة المجالدة إن منت الآلهة بالشفاء على صاحب الجلالة. وحدث أن شفى صاحب الجلالة من وعكته، فطلب من الاثنين المبادرة بتنفيذ وعديهما، وكان له ما أراد!

وبعد أن تغلغل اليأس فى نفوس الرومان، نمت فى ضمائرهم مشاعر شبه رومانسية مع الموت نفسه، وصار المجالد يرمز إلى عدة أمور، فهو عند الطبقات المغلوبة على أمرها يرمز إلى الأمل الضائع، وعند الخاصة من الأحرار والميسورين يمثل حالة من الانتحار الرواقى، بعد أن ملّ أصحابه حياة الدعة والفجور. وعندما كتب بترونيوس قصة «أرملة إفيسوس»، وذلك فى عهد الإمبراطور المختل نيرون، فإنه كان يشير من طرف خفى إلى التدهور الذى أصاب المجتمع الرومانى آنذاك. وتدور القصة حول تلك الزوجة الشابة الجميلة التى مات رجلها، وعندما دفن فى قبره رفضت أن تبرح القبر. ولما أن باتت رائحة الجثة المدفونة تزكم الأنوف، ارتمت الخادمة على سيدتها الحزينة تتوسل إليها بالخروج من عالم الموتى وألا تدفن نفسها حية هكذا، ثم قدمت الخادمة لسيدتها كسرة من الخبز لتفتح شهيتها من جديد. وفجأة حدث تحول رهيب فى سيكولوجية المرأة، إذ بادرت بهجران القبر، وأقبلت على الحياة فى نهم زائد، وانغمست فى كل ما هو حسى ولذيذ وفاجر، حتى غدت امرأة كل عريد فى المدينة. وانتهى بها المطاف بقيامها برحلة إلى قبر زوجها، فأخرجت عظامه من التراب وراحت تنثر عليها الأشواك وتوحلها بالتراب والسباب!

تصوير جدارى فى غرفة الطقوس السرية - العصر الرومانى

يتفق المعاصرون على أن الحرب الأهلية فى روما هى المسئولة عن الشرخ الذى أصاب الشخصية الرومانية فى صميمها، فبعد مقتل كراسوس لم يعد العالم كله كافيا لطموحات وشهوة بومبى وقيصر؛ ولذا فإن الحرب اشتعلت بين الاثنين، وهكذا كانت الحال مع أوكتافيانوس ومارك أنطونى.

ويعنى هذا كله أن أوصال الإمبراطورية قد مزقت بحد السيف، ولم يعد البر أو البحر ليكفى أطماع رجلين، حتى نصل إلى البطل الأوحد أو الأبد الأكبر.

لقد قهر القياصرة البر والبحر ومدارات الشمس والقمر، ولكنهم لم يشبعوا أو يقنعوا، وهم فى هذا أيضا يشبهون البطل المأساوى تانتالوس الذى سقط غريقا فى لجة من الماء العذب، ولكنه يموت عطشا. وهم أيضا كذاك البخيل الذى يرقد على كنز هائل، ولكنه لا يعرف كيف يتمتع به أو يفيد بجزء منه أحدا من الآخرين، وحصيلة هذه الشهوات الفجة هى الغثيان (Taedium vitae) والشعور بالسأم؛ إذا لم يعد شىءٌ فى الحياة يثير الشعور بالسعادة أو حتى الاهتمام. ويشبّه سنيكا معاصريه من الروم بقوم مؤرّقين جافاهم النوم فاستحوذهم القلق، ولذا فإنهم يتحركون جيئة وذهابا دون هدف واضح «حتى يبلوا كالحذاء القديم».

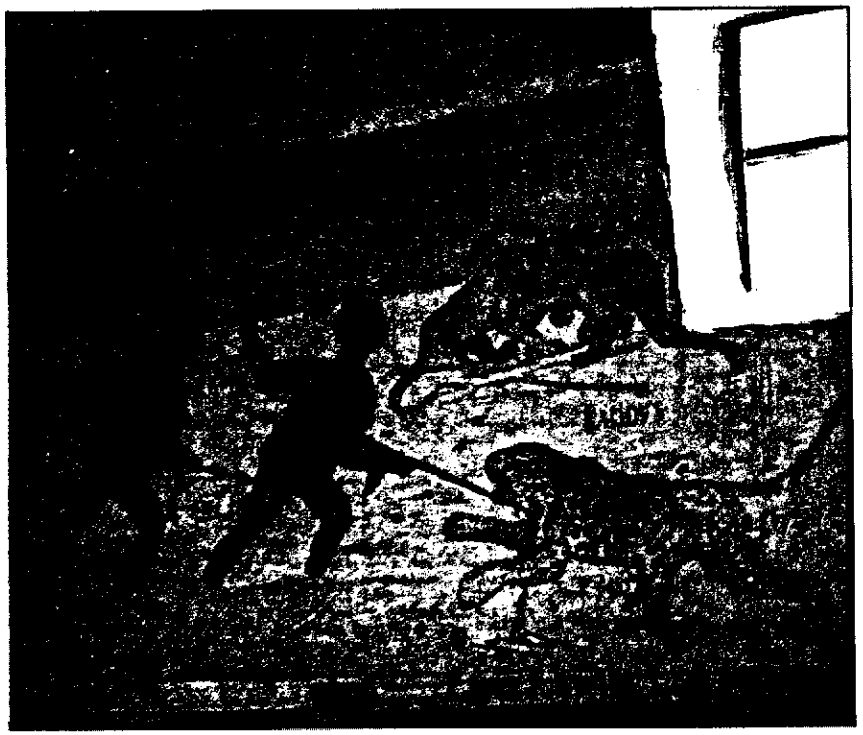

مصارعة الحيوانات المفترسة - تصوير جدارى - العصر الرومانى

إن هذا الشعور بالخواء هو الذى دفع الرومان وسادتهم إلى دروب من الشذوذ والعبثية بحثا عن الإثارة: من قبيل ذلك ما يروى عن الإمبراطور ڤتليوس الذى قيل: إنه كان يعد لنفسه طبقا غريبا من الطعام أسماه «خلطة منيرڤا»؛ وهى مؤلفة من كبدة الحداة، ومخ الطاووس، ولسان البلبل، وطحال الغنم. وقد جمع الإمبراطور هذا العجب من الخليط من أركان الإمبراطورية من

حدود فارس حتى مضايق إسبانيا. وجاء الطبق الذى كان يعده الإمبراطور ألوجابالوس أشد غرابة وعجبا؛ فهو خليط من حوافر الخيل، وعُرف الديكة، وأعناق البيغاوات، ولسان العندليب.

ويرى الكاتب المعاصر سيوتونيوس أن الإمبراطور كاليجيولا كان يهتاج عندما يكتمل القمر بدرا، وبأنه كان يعتلى سطح القصر لمغازلة القمر، كذلك راح كاليجيولا يشيد عمارة يستحيل إقامتها هندسيا لشذوذها وخروجها عن العقل المنطقى السليم. وأما نيرون فكان يحفر ممرات فى الصخور دون هدف واضح، وكان يعمل على إقامة تحصينات فى بطن البحر، كما أنه أقام واحدة من ڤيلاته وسط أكوام القمامة!.

وكان كاليجيولا يشكو بأن عهده خالٍ من المصائب الكبرى والأوبئة أو الهزائم المروعة وكوارث الزلازل،ومذابح الحرس الإمبراطورى، ويود لو أن حكمه شهد هذه المصائب جميعا حتى يشعر بالإثارة والسعادة، وحتى يذكر التاريخ اسمه مقرونا بهذه الأحداث العظام!

أما عن الرواية المتواترة عن حرق نيرون لمدينة روما، فهى ليست افتراءً أو ادعاءً؛ إذ يذكر لنا سيوتونيوس صراحة أن نيرؤن قد دبر فعلا إحراق المدينة لكى يشيد على رمادها قصرا ذهبيا، وأيضا كى تثير النيران المستعرة فى خياله المريض أشجانا كتلك التى كابدها بريام ملك طروادة وهى تحترق على يد اليونان. وقد ألمح الفيلسوف سنيكا فى روايته «ميديا» إلى هذا المعنى فى قوله: «كم هو جميل أن أجر العلم معى عندما تنتهى أيامى».

فى هذا المناخ المضطرب قلبا وقالبا كان من الطبيعى أن يشعر القياصرة أنهم وحدهم دون سواهم على المسرح، فأصبح وقع الموت هنا وهناك مجرد تمثيلية على خشبة هذا المسرح، وتبلدت مشاعر القوم حتى باتوا يتلهون بالموت نفسه تماما كما يتمضغون الطعام ويرشفون الشراب أو حتى يثرثرون. وهذا الشعور السلبى تجاه الأشياء هو الذى زاد من هوس الناس بالمجالدة والاستمتاع بمنظر الدم وهو يراق، وهو الذى جعل الموسرين يبحثون عن أندر الحيوانات فى غابات أفريقيا وآسيا بأسعار خيالية، تحملها السفن وهى مقيدة فى أقفاصها لمجرد إطلاقها فى السيرك ذات أمسية لتفترس إنسانا سيئ الحظ، وذلك وسط هتاف ورقص العامة والخاصة وسيدهم القيصر فى مدينة المدائن روما.

ويتفق الكُتّاب من معاصرين ومحدثين على أن قصر الإمبراطور الرومانى نفسه قد انتهى به الأمر ليصبح قفصا كبيرا يخطو داخله الطاغية جيئة وذهابا وهو متورمٌ بنوبات الغضب وجنون العظمة. وبعد أن «تأله» الأباطرة ولم يعد أحد يجرؤ على انتقاد أفعالهم المخبولة، راحوا يبحثون عن سبل شاذة لإثارتهم وتلهيتهم. ويروى عن كاليجيولا أنه كثيرا ما كان يقبض على أعضاء مجلس الشيوخ ويأمر بجلدهم أمام عينيه دون أى سبب يذكر إلا للتسلية، وبلغ به الحد أن أطاح

برقاب العديد من الناس على ضوء المشاعل ذات ليلة وهو يتبختر مع بعض حريمه فى ردهة قصر والدته. ويتوافق مع هذه التحولات شيوع ظاهرة الانتحار بالسم، ويرى البعض أن انتحار كليوباترا ومارك أنطونى كان واحدا من سلسلة الانتحار الجماعى هروبا من واقع الإمبراطورية المرير.

وينبغى القول عند هذا المنعطف المأساوى فى تاريخ الحضارة الرومانية أن الحكام والمحكومين من جلادين وضحايا، صاروا جميعا فى قفص واحد من السأم. ويُروى أن نبلاء روما فى وسط المآدب التى يقيمونها كانوا ينفجرون فجأة بالبكاء والنحيب، وأن البعض كانوا يقفون وسط ضيوفهم لرثاء أنفسهم بالمرثيات والبكائيات الشعرية. وكان الشذوذ واحدا من دروب الهروب من الواقع الأليم، بل إن بعض الرجال قد قاموا بقطع أعضائهم الجنسية (galli)، والبعض الآخر من الرجال قد دخلوا فى بيوت دعارة للذكور (ludi). كما حفلت مجالس القوم بعبث الكلام، وأفرط الجميع فى الشراب والسهر، وراحت النساء تفاخرن بعدم العفة، خاصة من بين الطبقات العليا فى المجتمع الرومانى من أمثال فولڤيا، وچوليا، وأجريبينا، ودوماتيلا، وغيرهن كثيرات.

وقد صاحب هذا التدهور الأخلاقى إعجاب الرومان بمناظر الرعب والفزع، حتى إنه فى مزادات أسواق النخاسة كان النبلاء لا يهتمون بشراء العبيد الأصحاء أو أصحاب الطلعة البهية، وإنما كان غرامهم بالمشوهين والممسوخين وذوى الخلقة الغريبة من أصحاب العيون الثلاثة أو ذوى الرءوس التى تشبه رأس النعامة والأيدى كأيدى السلاحف. ويحكى أن بعض الآباء قد عمدوا إلى تشويه خلقة الأبناء كى يباعوا بسعر خاص فى أسواق العبيد المخصصة للممسوخين (Teraton Agora).

المجتمع الرومانى

ومع هذا المزاج الأنكد راجت نخاسة الأقزام والعمالیق بل والهياكل العظمية، وكان الأباطرة أشد الناس حرصا على اقتناء هذه المخلوقات الممسوخة، فقد أمر الإمبراطور كلوديوس أن ينادى المنادون فى شوارع روما ليقبل العامة على السيرك على وعد بأن يروا «ما لم ترَه عين من قبل...».

لقد غرقت الإمبراطورية الرومانية فى مستنقع اختلطت فيه الأشياء بأضدادها: ما بين تخمة ومجاعة، تواجد وغيبة، تبجح وجمال، تقوى وفجور، ثرثرة وصمت رهيب، إثارة وتبلد، حركة وسكون، فرح وحزن، إحباط وإشباع. وعن هذا التشوش يقول مارتيال فى وصفه لواحد حكم عليه بإحراق يده اليمنى بأنه كان المتفرج الوحيد على مشهد إحراق ساعده الأيمن، وكان عليه أن يصفق باليد اليسرى فى جنازة على يده اليمنى!

وفى محاولة لتشخيص الداء لا بد من الاعتراف بأن طغيان القيصر وحاشيته هو الذى جرّ الخراب على المجتمع الرومانى، لقد كان الخوف من الحاكم الأبد سببا فى الشلل الاجتماعى.

ويروى عن يوليوس قيصر ابن روما المدلل بأنه كان يأمر بعض النبلاء بالقيام بدور «المهرج» لإدخال السرور على نفسه المكتئبة. وانعدمت الثقة بين الناس، ولم يعد سادة الأمس يأمنون على أنفسهم، فهم لا ينامون فى عمق خوفا من غدر عبيدهم بهم وهم نيام. وازداد النفاق والتملق، حتى إن تاكيتوس يشبه حاشية القيصر «بلاعقى الأحذية

رجل وامرأة - نحت بارز - العصر الرومانى

بلسان مسموم»، فى حين أن سنيكا يصف المديح المتزايد «بالدعارة الكلامية» (Fasclinae lingua).

ولم يكن توزيع قيصر القمح بالمجان والسماح للعامة بدخول السيرك مجانا أيضا إلا ضربا من ضروب النفاق وإلهاء الناس عن مشكلات الفقر والبطالة والهوة السحيقة التى باتت تفصل بين من يملكون ومن لا يملكون، ومن نفس القبيل كانت المآدب العامة التى كانت تقدم للفقراء والمساكين، والتى وصفها المعاصرون «بولائم المهابيل» (Festa Stultorun). وفى هذه المآدب كانت السنة المحرومين تلعق الطعام الدسم وتلعن فى

طفلان عازفان يقرأ نصوصا شعرية فى غرفة الطقوس السرية - تصوير رومانى

نفس الوقت جشع الأغنياء: فلقد سخروا من أغسطس نفسه وألمحوا إلى أنه «الخصى الذى يحكم العالم»، كما أشاروا إلى طيبريوس بأنه «كالماعز» الطائشة، أما عن الإمبراطور ماركوس أوريليوس، فقد عرف عن زوجته فاوستينا أنها كانت على علاقة آثمة بشاب يدعى ترتوللوس. وفى واحدة من المآدب العامة، وفى حضور الإمبراطور نفسه ظهر أحد المهرجين يمثل دور «المغفل» وراح يسأل من حوله: «مع من تخوننى زوجتى؟» فيرد القوم عليه «مع تواللوس - مع تواللوس - مع تواللوس». ولكن الغبى لا يفهم، فيصيح القوم «لقد أخبرناك اسمه ثلاث مرات: تواللوس، تواللوس، تواللوس.. أى ترتوللوس... هلا فهمت أيها الذكى؟».

الاحتفالات الرومانية الماجنة

لقد جن جنون الرومان واختلت الموازين تماما، فقد كانت عادة تيرون أن يغلق بوابات المسرح ويبقى هو على الخشبة ليقوم بالتمثيل منفردا، ويظل هكذا ساعات طوال، والويل لمن يجرؤ على مغادرة القاعة. أما كاليجيولا فكان يصر على بقاء الجمهور لمشاهدة تقطيع أوصال ضحاياه حتى يصاب الناس بالإغماء. كذلك عرف عن نيرون أيضا أنه فى إحدى حفلاته الماجنة أمر أحد العبيد بأن يضاجع زوجة سيده على مشهد من الأضياف والسيد نفسه، كما أنه أمر أحد المجالدين باغتصاب إحدى الفتيات على مشهد من الضيوف ومن والديها!.

من هذا العرض يتضح دون لبس أن المجتمع الرومانى كان فى حالة انتحار جماعى، وفى حالة اضمحلال وسقوط من داخله، وهذه حقيقة تؤيدها كل شواهد العصر.

الأحوال الاقتصادية

ولم تكن الإمبراطورية الرومانية تستند فى نظمها الاقتصادية إلى مبادئ سليمة؛ فالفتوحات الكبرى فى الغرب والشرق لم يكن يحركها هدف واضح كفتح أسواق خارجية لإنعاش التجارة مثلا، أو بغرض توطين العاطلين من رعاع المدينة ودهماء الريف على سبيل المثال، فالذى حدث أن سلمت هذه الولايات المفتوحة للقناصل السابقين والجنرالات المتقاعدين الذين انحصر همهم الأكبر فى اكتناز الثروات حتى عن طريق الربا، وذلك على حساب أهالى الولايات وبطبيعة الحال على حساب دخل الخزانة الإمبراطورية.

ويلاحظ أن هذه الإمبراطورية الكبرى لم تكن تعتمد فى الحصول على رغيف الخبز لعاصمتها من الريف الإيطالى المجاور، وإنما كانت لقمة العيش تشحن للعاصمة من شمال أفريقيا أو من مخازن الغلال فى الإسكندرية. كما وأن العملة فى القرن الثالث أخذت فى الاختفاء من الأسواق، ليحل محلها نظام المقايضة البدائى، وصارت رواتب الجند تدفع لهم حصة من القمح بدلا من العملة، إلى جانب هذا أغفلت روما قوتها البحرية ولم تؤمّن مجالات نشاطها البحرى فى البحر الأحمر والبحر الأسود وسواحل بلاد الغال الشمالية، ثم إن البحر الأبيض نفسه سرعان ما بات نهبا للقراصنة اليونان.

الإمبراطور دقلديانوس

وإذا نظرنا إلى الريف الرومانى، حيث الزراعة وتربية الماشية والتعدين، نجد أن العبء كله كان يقع على كاهل العبيد، وكان أقل صغار الملاك يملك عبدا أو عبدين، فى حين أن كبار الملاك كانوا يملكون آلافا من العبيد. وعندما تحل ضائقة بأحد صغار الملاك فإنه كان يلجأ إلى الاستدانة من كبار الملاك والمرابين الذين كانوا يتقاضون ربا على الديون تجاوز نسبة ١٢٪ أو يزيد. وفى القرن الثالث بوجه خاص صار الأهالى يضجون من وطأة الضرائب الثقيلة التى فرضتها الدولة لتغطية نفقات الفيالق المنتشرة فى ولايات الإمبراطورية، ولسداد أعباء الأجهزة البيروقراطية المتعددة، وقد ازداد الأمر سوءا فى عهد الإمبراطور دقلديانوس الذى ابتدع نظام الحكم الرباعى (Tetrarchy)، وقسم الإمبراطورية إلى اثنتى عشرة ولاية تضم ستا وتسعين مقاطعة، ولكل من هذه الأقسام وتوابعها حكامها وأجهزتها وجيوشها. وقد وقعت أعباء تمويل كل هذه الأجهزة على كاهل دافعى

الضرائب من أبناء الطبقة الوسطى وصغار الملاك. وحتى هذا النظام الإدارى الصارم سرعان ما تصدع بسبب تناطح القياصرة والأباطرة فى النصفين الغربى والشرقى للإمبراطورية، كلٌ يتآمر للانفراد بالسلطة ولو على جثث الآخرين من رفاقه. ومع هذه الفوضى والحرب الأهلية زاد عدد الساسة العاطلين الذين باتوا يلقون بتأييدهم تارة مع هذا الفيلق وأخرى مع تلك الفرقة، وذلك فى مقابل رشوة دسمة. وهكذا اشتعلت الحرب الأهلية، حتى إن أباطرة تلك الفترة عرفوا باسم «أباطرة المعسكرات». أما موظفو الإدارة فى الولايات فقد فرضوا «إتاوة» على الموسرين من أهل البلاد فازدادت الأحوال سوءا على سوء.

يضاف إلى هذا أن العائلات السيناتورية كانت معفاة من الضرائب ليس فقط عن ضياعها فى إيطاليا وإنما أيضا عن الضياع التى كانت تملكها هذه العائلات خارج حدود إيطاليا. وفى القرن الرابع صارت عضوية السيناتو مجرد لقب شرفى يمنُ به الأغسطس على من يشاء من أتباعه وخلصائه، وقد كان سخيا فى هذا الصعيد. وكان شرف السيناتورية يعفى صاحبه من دفع الضريبة عن ضياعه، وهكذا وقع عبء دخل الخزانة الإمبراطورية كله على الطبقة الوسطى. كما أن الحكومة الرومانية فرضت على صغار الملاك ضريبة أخرى لمواجهة عبء الإدارة المتزايد تعقيدا، ثم ألزمت كل مدينة بالتضامن فى دفع مجمل الضريبة المقررة عليها كاملة، وألقت بهذه المسئولية فى توفية الدفع على هيئة من مواطنى المدينة المنتخبين (Curiales).

وقد أدى هذا النظام الضريبى إلى قصم ظهور الطبقة الوسطى، مما أدى بالكثيرين من أبناء هذه الطبقة إلى العزوف عن الزواج حتى لا يرث أبناؤهم تعاسة الآباء، ولقد اهتبل السيناتوريون فرصة الخراب الذى حل بالطبقة الوسطى، وابتلعوا الملكيات الصغيرة فى القرنين الرابع والخامس، وبهذا تدنت أعداد وفيرة من أهل الريف إلى فلاحين معدمين تماما. والأدهى من ذلك بالنسبة لخزانة الإمبراطورية أن تحايل الكثيرون على جامعى الضرائب بأن تنازلوا عن أراضيهم للسادة أعضاء مجلس السيناتو كى لا تجبى عليها الضريبة، وفى مقابل ذلك كان السيناتور يحصل مبلغا محددا من المال من صاحب الأرض ليتستر عليه وهو يقوم بزراعتها والاستفادة بمحصولها، وقد عرف هذا «التحايل» باسم (Patrocinium). ومع أن الدولة كانت تكافح هذا التحايل، إلا أن أفراد الطبقة الأرستقراطية الزراعية كانوا يعرفون كيف يحشون جيوب القضاة وجامعى الضرائب برشوة دسمة. وهكذا استشرى الفساد بين رجال العدالة أيضا، حتى إن أحد المتندرين قد جاهر بضرورة إصدار قانون يحرم على القضاة قبول دعوات حفلات العشاء على مآدب السيناتوريين. والمحصلة أن قرى بكاملها قد خضعت تحت سطوة الأرستقراطية الرومانية الجشعة، وضاعت على خزانة الحكومة كل الضرائب التى كانت تجبى عليها سابقا. وألهبت الحكومة ظهور من تبقوا من

صغار الملاك بضرائب جديدة لتعويض ما التهمته بطون الشيوخ.

قسطنطين الكبير

وما أن وصل الإمبراطور قسطنطين-الكبير إلى الحكم منفردا بعد قتل جميع خصومه من قياصرة وأباطرة (٣٢٤ ـ ٣٣٧م)، حتى أظهر انحيازا نحو المسيحية ثم أصدر مرسوما بإعفاء أراضى وأوقاف الكنائس من دفع الضريبة، فراحت الكنيسة تبسط جناحيها هى الأخرى على أراضى شاسعة لتعفيها من دفع الضريبة للدولة. ولم يتعفف التاج نفسه من هذا الإثم، إذ كان الإمبراطور ـ وهو لا يدفع ضريبة عن وساياه ـ كثيرا ما يضع أراض شاسعة تحت لوائه كى تعفى من دفع الضريبة.

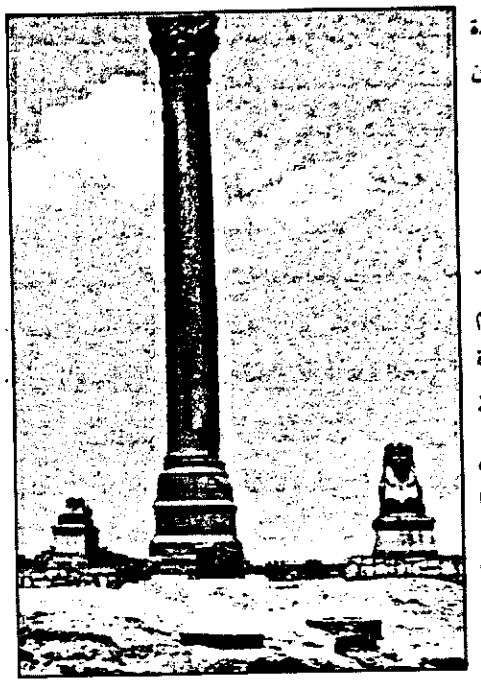

عمود دقلديانوس - أقامه اليهود تخليدا له لاضطهاده للمسيحيين - الإسكندرية - مصر

وعندما قلَّ دخل الخزانة أثقلت الحكومة على دافعى الضرائب، ولكن الناس كانوا قد أرهقوا بما فيه الكفاية، فلم يتورعوا عن أن يطرقوا جامعى الضرائب إذا ما حلوا بالقرى بوابل من السباب والحجارة. ولكن الحكومة ردت بفرض القوانين والإجراءات المجحفة لتمتص دماء الطبقة الوسطى وصغار الملاك، ولم تدر السلطات أن البقرة الحلوب قد جفَّ ضرعها. ومضت الحكومة الرومانية فى سياساتها المتعسفة فحرمت على صغار الملاك بيع أراضيهم والتنازل عنها، كما منعتهم من ممارسة حرفة أخرى غير الزراعة، ثم أغلقت فى وجوههم باب الدخول فى الجندية، ولا

الإمبراطور قسطنطين الكبير (٣٢٤ - ٣٣٧)

ندهش إذا علمنا أن الكثيرين من أبناء الريف قد هربوا سرا من ذويهم وبيوتهم وعملوا عبيدا عند الموسرين والنبلاء. والأدهى من ذلك كله أن الحكومة أصدرت قانونا جعل الأعباء الضريبية على أبناء هذه الطبقة وراثية يتحملها الابن عن الأب (Decurio).

إن هذه المأساة التى حولت أبناء الطبقة الوسطى وصغار الملاك ـ التى هى عماد الدولة ـ إلى وضع أشبه ما يكون بالعبودية كان واحدا من أهم العوامل التى عجلت بهدم بنيان الإمبراطورية الرومانية.

ولم تكن الأمور أحسن حالا مع التجار وأرباب الحرف، ففى نهاية القرن الثالث صدر قانون يثبت هذه الشريحة من المجتمع الرومانى فى حرفتها حتى تصبح كادرا وراثيا ووضعا اجتماعيا ثابتا (Status) يرثه الأبناء عن الآباء رغبوا فى ذلك أم كرهوا.

عبد يعمل بالفلاحة - العصر الرومانى

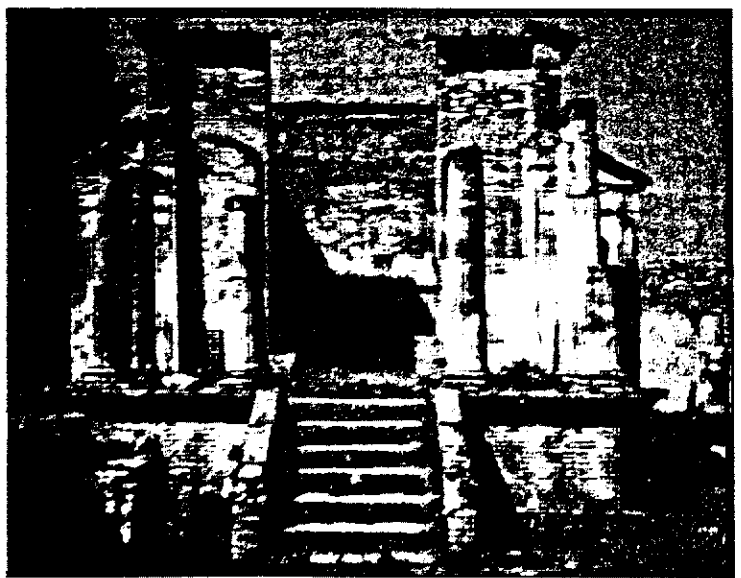

معبد أيزيس - بومبى

العبيد

في عصر الازدهار الإمبراطوري كانت ظاهرة وفرة أعداد العبيد دليلا على التميز وبحبوحة العيش وضمانا لسير العمل في مختلف القطاعات، ولكن الملاحظ أن عدد العبيد أخذ يتناقص بشكل ملحوظ في القرنين الثالث والرابع؛ مما يشير إلى أن عدد الموسرين قد تناقص بالفعل، بحيث لم يعد أصحاب الأراضي قادرين على شراء العبيد ولا حتى إطعام أفواه القلة من الذين بقوا في حوزتهم. وبمرور الوقت اختفت جماعات العبيد الذين كانوا يعملون في الضياع السيناتورية في كل من إيطاليا وغالة وإسبانيا. ولقد نتج عن هذه الظاهرة تطور هام ظل صفة مميزة للحياة الاقتصادية والأوضاع الاجتماعية في غرب أوروبا على مدار العصور الوسطى، فلقد لجأ أصحاب الأراضي الزراعية إلى إبرام اتفاقات مع فقراء الفلاحين في قراهم ومع العبيد أيضا على أن يقوم هؤلاء بفلاحة الأرض مقابل حصة هزيلة لا تكاد تسد الرمق من غلة الأرض، مع السماح للبعض الآخر بشريط هزيل من الأرض يفلحونه لحسابهم مقابل خدمات أخرى، وقد عرف هؤلاء الفلاحون باسم «Coloni» أي معمري الأرض، وهم النواة الأولى للأقنان (Serfs) الذين ربطوا بالأرض لا يبرحونها في ظل الهرم الإقطاعي، كذلك استقدم نفرٌ من أصحاب الأراضي في القرن الخامس بعض المتبربرين الجرمان لفلاحة الأرض بنفس الشروط السابقة، وعرفوا باسم «Inquilini».

وإذا نظرنا إلى الشعب الروماني في كليته من خاصة وعامة في أواخر القرن الثالث لوجدنا شعبا متقلب المزاج، وعلى درجة بالغة من الجبن والانحلال الخلقي سواء على مستوى طبقات النبالة أو العامة (Plebs). ومن الناحية الثقافية ظلت الصفوة الرومانية تلوك تراث الإغريق القدامى أو تحاول تقليده، وسرعان ما غزت الفلسفات الانهزامية من رواقية مترنحة وأبيقورية فاضحة قلوب السادة الرومان. وما من شك في أن الإغريق قد نجحوا بذكائهم في إبهار سادتهم الرومان «الاغبياء»، كما عمل البرغاميون والمقدونيون والسلوقيون والبطالمة على إنهاك حيوية روما وامتصاص دماء الرجولة اللاتينية.

الأحوال الدينية

ثم إن روما أصبحت تستقبل يوما بعد يوم عددا لا يحصى من الربات والأرباب يزاحمون أرباب الكابيتول وسيدهم جوبيتر في روما؛ وهكذا عرف الرومان إيزيس المصرية، والأم العظمى الفريجية، ومثرا الفارسي وغيرهم. ومع هذا السيل الذي لا ينقطع من الوافدين على روما تسللت ديانة جديدة عرف أصحابها وقتئذ بأتباع المسيح. وكان هؤلاء في أول الأمر قلة من بؤساء المجتمع من بسطاء الناس والعبيد والنساء. والذي حفز هذه الفئات المقهورة إلى اعتناق هذه الرسالة الجديدة

الوافدة من الشرق أنها كانت تحتضن في رحابها الفقير كما تحتضن الغني، والعبد مثل الحر، والمرأة مثل الرجل.

ولقد وجد العبيد الذين بلغ عددهم عدد المواطنين الأحرار تقريبا، أن هذه العقيدة الجديدة لا تقيم وزنا للرق والنخاسة في ملكوت السموات، ولم تتردد في المجاهرة بأن عبدا (رقيقا) صالحا يحق له أن يصبح أبا روحيا للجميع من الأمير إلى الفقير. أما النساء فقد وجدن في سيرة العذراء مريم تكريما للمرأة، في حين أن المجتمع الروماني كان يضع المرأة دوما في مرتبة دونية بالنسبة للرجل.

كان طبيعيا أن يمتعض السادة الرومان من هذه العقيدة الغريبة التي تطاولت على آلهة الكابيتول ونهت عن تقديم الأضحيات لهم، ثم ما لبثت أن استخفَّت بملوك هذا العالم، ومن بينهم «المواطن الأول» والمؤله ابن روما البار. ومن ثم فإن الحكومة الرومانية شعرت بناقوس الخطر يدق على الأبواب، فسارعت بمطالبة رعاياها بأن يبرهنوا على الولاء والطاعة للإمبراطور بأن يقوم كل مواطن بإحراق حفنة من البخور عند قدمي تمثال الإمبراطور الحاكم دلالة على الولاء والخضوع.

ولكن المسيحيين رفضوا أداء هذه المراسيم الوثنية خاصة في الولايات، فجن جنون حكام الولايات، وظنوا أن هؤلاء القوم باتوا يتآمرون بالسوء ضد روما وسيد الرومان. وبالنسبة للبلاط الإمبراطوري فإن هذا الموقف الرافض كان يرقى إلى درجة الخيانة العظمى.

موجات الاضطهاد ضد المسيحيين

وهكذا بدأت موجات الاضطهاد ووصلت ذروتها في عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م)، والتي اكتوت بنيرانها ولايات المشرق على وجه خاص. ورد الكهنة المسيحيون على ذلك بأن دعوا أتباعهم في الدين الجديد إلى الامتناع عن خدمة الدولة وعن الدخول في الجندية في موجة من العصيان والتمرد.

وازدادت مشاعر الشك والريبة في قلوب الرومان وخاصة أن أبناء هذه العقيدة الجديدة كانوا يلجأون إلى الكهوف وجحور الأرض يمارسون فيها شعائرهم الغريبة ويترنمون بألحان وأدعيات غير مفهومة. وراحت غوغاء المدن تروِّج عن هذه الجماعة روايات مختلفة ومختلقة عن ممارسات سرية تثير التساؤل. وعليه فإن الحكومة الرومانية ضربت هذه الجماعات بالحديد والنار، بل إن أعدادا كبيرة منهم قدمت فريسة للأسود المجوعة في الحلبة الرومانية وسط صياح وهتافات الجماهير

المخمورة. ووجد فى روما من يقول بأن أرباب الكابيتول أضحوا أشد عطشا لدماء هؤلاء «المارقين»، وكان لابد من ارتواء هذه الآلهة وإطفاء ظمئها وغضبها بدماء الذين كانوا لهم من المنكرين!

ولم تهدأ الحال إلا بعد أن أصدر الإمبراطور قسطنطين الكبير مرسوم ميلان سنة ٣١٣م بوقف اضطهاد أتباع الدين الجديد والسماح لأتباع هذا الدين بممارسة شعائرهم جنبا إلى جنب مع الوثنيين دون أن يتحرش طرف بالآخر!

تمثال لإيزيس بملابس رومانية (ربة الحظ) تمثال من الرخام

العذراء - لوحة للفنان جان فان آيك

الفصل الثانى
الغزوات المتبربرة

ظلت الشعوب الجرمانية فيما وراء نهرى الدانوب والراين فى سلام مع الإمبراطورية خوفا من قبالقتها التى لا تهزم، ولكن هذا لم يمنع من حدوث صدامات بين الحين والآخر بين الطرفين. وجاء أول صدام فى نهاية القرن الثانى قبل الميلاد وذلك عندما تحركت قبائل الكمبرى والتيوتون من شواطئ بحر الشمال قبالة حوض البحر الأبيض المتوسط مهددة فى هجراتها ولايات الإمبراطورية خاصة فى غالة. وقد وقع صدام بين فيالق الجيش الرومانى بقيادة ماريوس وبين جماعة الكمبرى سنة ١٠٢ ق م عند بلدة إكس - إن - بروفانس؛ ثم عند بلدة ڤرسيل سنة ١٠١ ق م، ولم تكن النتيجة حاسمة لأى من المعسكرين. وفى سنة ٥٨ ق م استنجد زعماء غالة بيوليوس قيصر لحمايتهم من هجوم زعيم جرمانى اسمه أريوڤست فى منطقة الألزاس. وقد لبى قيصر النداء وتصدى للزعيم الجرمانى المهاجم وأجبره على التقهقر إلى ما وراء الراين. وتابع قيصر حملاته على منطقة الراين سنة ٥٥ ق م، وتبعه بعد ذلك أغريبا سنة ٣٨ ق م، ثم دروسوس زوج ابنة الإمبراطور أغسطس الذى نجح فى إخضاع المناطق الواقعة بين نهر الراين ونهر إلب، وإن كان قد قتل أثناء المعارك. بعد مقتل دروسوس خلفه فى القيادة شقيقه طيبيريوس الذى عبر نهر الدانوب وانقض على منطقة بوهيميا، غير أنه فى العام التاسع ق م زحف الجرمان مرة أخرى تحت قيادة زعيمهم أرمنيوس، فتصدى لهم القائد الرومانى ڤاروس، ولكن الجرمان أوقعوا بالرومان هزيمة ساحقة فى موقعة تيتوبرجرفلد، واضطر الرومان إلى إخلاء الشط الأيمن لنهر

تعذيب المسيحيين - تصوير رومانى - فسيفساء

الراين، ولما أن اعتلى طيبريوس العرش الإمبراطورى قرر اتباع سياسة دفاعية فى تلك المناطق بدلا من السياسة الهجومية السابقة.

وتعكس كتابات المعاصرين الشعور العام فى الإمبراطورية الرومانية تجاه الخطر الجرمانى الذى بات يهدد كيان «السلام الرومانى» (Pax Romana): فلقد عبر كل من أوفيد، وپلينى الأكبر، والفيلسوف سنيكا، والمؤرخ تاكيتوس عن مخاوفهم من زحف القبائل الجرمانية، مع الإشادة من طرف خفى بشجاعة الجرمان وأخلاقهم التى

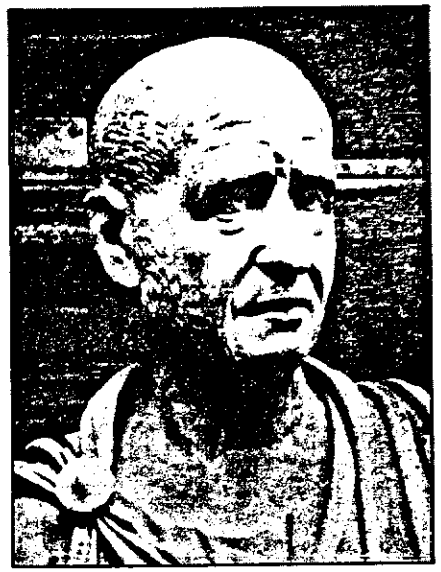

الإمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧م)

كانت - فى رأيهم - كافية للقضاء على المجتمع الرومانى الذى استشرى فيه الفساد.

الإمبراطور أنطونينوس (١٣٨ - ١٦١م)

على أن الحدود مع الجرمان قد شهدت هدوءا نسبيا فى القرن الثانى للميلاد، وخاصة بعد أن نجح الإمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧م) فى إخضاع منطقة داكيا، وبعد أن أرسى الإمبراطور أنطونينوس بيوس دعائم السلم على حدود الدانوب (١٣٨ - ١٦١م)، حتى إن الخطيب إليوس أرستيدس امتدح حصافة الإمبراطور، مفاخرا بعودة السلام الرومانى، ومهددا بالعصا الرومانية الغليظة لكل من تسول له نفسه التطاول على مدينة المدائن روما «فهى الأم العظمى والموئل لسائر شعوب الأرض، والتى بوسع الإغريقى والمتبربر جميعا التعايش تحت مظلتها سواء بسواء».

القوط

ورغم هذا فإن الحقيقة الثابتة هى أن شوكة «چرمانيا» كانت آخذة فى القوة، فلقد تحركت جماعة من القوط من على ضفاف نهر ڤستولا قبالة شواطئ البحر الأسود، وتبعتها جماعات مختلطة الهوية من «القواضى» (Quadi) والماكرومان الذين عبروا نهر الدانوب وحاصروا المدن، حتى إن أهالى روما نفسها قد شعروا بالفزع رغم جهود الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٨م) فى تعزيز نقاط الحدود على نهر الدانوب.

ولم تنقطع تحرشات الجرمان على حدود الدانوب والراين، ففى عهد الإمبراطورين ڤاليريان (٢٥٣ - ٢٦٠م) وجاليان (٢٦٠ - ٢٦٨م) تمكنت جماعة من الفرنجة من تحطيم حواجز الراين والعبور إلى غالة ومنها إلى إسبانيا، حيث استولت على بعض السفن الراسية فى البحر المتوسط وأبحرت بها إلى شواطئ موريتانيا. كذلك هجمت جماعة أخرى من الجرمان على إيطاليا عبر ممرات جبال الألب ونهبت مدن الشمال الإيطالى وصولا إلى مدينة راڤنا، إلى أن تصدى لهم الإمبراطور جاليان عند مدينة ميلانو.

وفى سنة ٢٦٩م اجتاح القوط مناطق الدانوب واشتبكوا مع الإمبراطور كلوديوس (٢٦٨ - ٢٧٠م) عند بلدة نيش فى البلقان. وفى نفس الوقت زحفت جحافل أخرى من الفرنجة والألمان على غالة وضربت قرابة ستين مدينة من بينها باريس وبواتييه وبوردو. ورغم جهود الإمبراطور بروبوس (٢٧٦ - ٢٨٢م) إلا أن غالة صارت نهبا للجرمان فعمت فيها الفوضى والمجاعات.

ولقد هدأت لحين جبهة الراين فى عهود الأباطرة دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م)، وماكسيميان (٢٨٦ - ٣٠٥م)، وقسطنطين الكبير (٣٢٤ - ٣٣٧م)، ولكن الجرمان ظلوا يتسللون إلى قلب شبه الجزيرة فى البلقان، واضطر الإمبراطور قسطنطين الثانى (٣٣٧ - ٣٤٠م) إلى قبول هؤلاء القوط «كمعاهدين» (Foederati) فى خدمة الإمبراطورية، ثم أرسلت السلطات الرومانية بالمبشرين الذين نشروا المسيحية بين هؤلاء القوط على المذهب الأريوسى الذى كان الإمبراطور منحازا إليه.

الهون

وعندما زحفت حشود من مغول آسيا يعرفون باسم «الهون» (Huns) على شرق أوروبا أرهبوا القوط بسياطهم وخناجرهم، فاستصرخ القوط السلطات الرومانية كى تسمح لهم بعبور الدانوب هروبا من الهون. ولقد سمح إمبراطور النصف الشرقى للإمبراطورية ڤالنس (٣٦٤ - ٣٧٨م) للقوط بالعبور سنة ٣٧٦م، الأمر الذى أثار هياجا شديدا بين المعاصرين، عبر عنه الكاتب المعاصر إميانوس مارسللينوس، الذى شبه عبور القبائل الجرمانية لنهر الدانوب بعبور الميديين - فى

الإمبراطور ماركوس أوريليوس
(١٦١ - ١٨٨م)

القديم ـ لمضيق الدردنيل. ويقدر عدد القوط الذين عبروا نهر الدانوب إلى قلب البلقان بحوالى مائتى ألف، دون حساب عدد ذويهم وعبيدهم.

موقعة أدريانوپل

كان من ضرب المستحيل تزويد هذه الأعداد الغفيرة بما يسد رمقها؛ ولذا فإن القوط انقضوا على أهالى القرى ينهبون ويسلبون، فخربوا مناطق مؤيزيا وتراقيا، وضجَّ الأهالى من غلظة القوط

كنيسة آيا صوفيا - القسطنطينية

تشكيل عسكرى لجيش رومانى
نحت بارز - العصر الرومانى

وجبروتهم. أمام هذا الموقف المتدهور أفاق الإمبراطور ڤالنس من غيبته وسارع بإعداد حملة قادها بنفسه لتقليم ظافر القوط. والتقى لطرفان عند مدينة أدريانوپل فى ٩ أغسطس ٣٧٨م، وانتهت المعركة بكارثة مهولة، فلقد حلت الهزيمة كاملة بالجيش الرومانى، وقتل الإمبراطور ڤالنس فى أرض المعركة. وبعدها دانت البلقان للقوط فنهبوا البلاد، وزحفت جماعة منهم حتى شارفت أسوار القسطنطينية نفسها.

تمثال سيرابيس من الخشب
المتحف الرومانى -
الإسكندرية

الإمبراطور ثيودوسيوس

أثار مقتل إمبراطور النصف الشرقى للإمبراطورية على أيدى القوط ردود فعل عنيفة فى النصف الغربى للإمبراطورية، وعلت الأصوات مطالبة جراتيان إمبراطور الغرب بضرورة التحرك للانتقام من القوط. واستجاب جراتيان باختيار جندى مرموق ليحكم النصف الشرقى للإمبراطورية وهو ثيودوسيوس الذى لمع نجمه بعد أن حقق انتصارات على قبائل السرماتيين. واتفق على أن يتولى جراتيان تأمين حدود الراين، وأن يقوم ثيودوسيوس بتجميع فلول الكتائب المنهارة فى الشرق لطرد القوط من سالونيكا ومؤينريا العليا. ونجحت هذه الخطة فى إيقاف زحف القوط ولو إلى حين. وقد لجأ إمبراطور القسطنطينية الجديد ثيودوسيوس (٣٧٨ ـ ٣٩٥م) إلى سياسة الدبلوماسية فرحب فى بلاد بيزنطة بملك القوط أثانارك بعد أن خلعه شعبه، بل ومنحه أيضا حق اللجوء السياسى أملا فى أن يفيد به فى معالجة المشكلة القوطية التى باتت تهدد كيان الإمبراطورية فى الشرق والغرب على حد سواء. وفى نهاية الأمر نجح ثيودوسيوس فى إبرام اتفاق مع القوط على أن يسمح لهم بالاستقرار فى منطقة تراقيا مقابل تزويد الجيش الإمبراطورى ببضع كتائب قوطية.

آلارك القوطى

ولقد استخدم الإمبراطور ثيودوسيوس كتيبة من القوط فى صراعه ضد خصمه يوجنيوس المطالب بالعرش، وبهذا قويت شوكة القوط فى العاصمة نفسها، مما اضطر الإمبراطور إلى إبعاد هذه الكتيبة إلى أراضى الدانوب، ولكن هذا الإقصاء إلى الدانوب أغضب جماعة القوط، فأخذوا يتجمعون حول زعيم جديد يدعى آلارك، وراحوا يغيرون على أراضى تراقيا وتساليا وآتيكا والمورة. وأصيبت بلاد اليونان بخراب أتى على الأخضر واليابس. ولقد فسر الكتاب الوثنيون المعاصرون هذا الدمار الذى أوقعه القوط ببلاد اليونان على أنه مؤامرة دنيئة حاكها الإمبراطور الشرقى ثيودوسيوس مع القوط للقضاء على بقايا الحضارة الهلينية الوثنية. والمعروف أن ثيودوسيوس كان شديد الوطأة على الوثنية ومعابدها وكهنتها فى مختلف الولايات الخاضعة للنصف الشرقى للإمبراطورية، فلقد أصدر سنة ٣٩٢م مرسوما إمبراطوريا بتحطيم معبد سيرابيس فى مدينة الإسكندرية، كما أمر بإيقاف تقديم الأضحيات فى المعابد، ونعت الوثنية صراحة بأنها «شعوذة سوقية» (Gentilicia Superstiti).

سقطت مدن اليونان الواحدة تلو الأخرى فى أيدى آلارك، وباتت مدائن كورنثة وآرجوس وميغارة وإسبرطة وبيريه خرابا يبابا. ولم تملك أثينا إلا أن تفتح بواباتها للغازى القوطى الجبار،

ويقال: إن آلارك قد أمر رجاله بعدم تخريب أثينا؛ لأنه قد أصيب بالذعر عندما وجد نفسه وجها لوجه أمام تمثال الربة أثينا ومن ورائها البطل الملحمى آخيل سيد الشجعان فى حرب اليونان ضد طروادة!

لقد فزع المعاصرون أمام ذلك الخراب الشامل الذى حلَّ بأرض اليونان على أيدى المتبربرين، فكتب جيروم سنة ٣٩٦م رسالة تفيض حزنا وأسى ينعى فيها بلاد اليونان بقوله: «كيف لى أن أعدد المآسى التى حلت بزماننا والحزن يعصر قلبى... فعلى مدى عشرين عاما متتالية والدماء تسفك بين القسطنطينية وجبال الألب اليولية... لهفى على العذارى والأمهات المرضعات، وعلى المواطنين الأحرار الذين سيقوا عبيدا فى أيدى البرابرة الشقر.. لقد قيد الأساقفة والقسيسون بأغلال الذلة والمهانة، ودمرت بيوت العبادة وحولت جنباتها المقدسة إلى إسطبلات للخيول.. لقد تدنست أيقونات القديسين، وعمت الأحزان فى كل مكان، وعلا النحيب فى مختلف الأركان ورانت على الكل علامات الموت.. أين شجاعتك كورنثة، وأين أنتم يا أبطال أثينا وصناديد أركاديا؟».

غير أننا نجد زعيم الفلاسفة الوثنيين آنذاك وهو ليبانوس يقدم تفسيرا آخر لتلك الأحداث المهولة؛ فهو يرجع البلاء كله إلى غضب الآلهة الوثنية التى استشاطت غضبا عندما اغتال المسيحيون الإمبراطور جوليان (٣٦١ ـ ٣٦٣م) الذى كان قد نبذ المسيحية وارتد إلى الوثنية. فلو أن المعابد القديمة ـ كما يقول ـ بقيت مفتوحة الأبواب تتقبل الأضحيات للأرباب لما سمحت الآلهة بأن تمس الإمبراطورية بهذا الجحيم من الحديد والنار!.

الإمبراطور أركاديوس

توفى الإمبراطور ثيودوسيوس سنة ٣٩٥م بعد أن قسم الإمبراطورية بين ولديه: أركاديوس للنصف الشرقى، وهونوريوس للنصف الغربى. ولقد استفحل خطر القوط فى القسطنطينية فى عهد أركاديوس، إذ تزوج هو من ابنة لأحد ضباط الجرمان، بينما تغلغل القوط فى قلب الجيش الرومانى وملأوا أجنحة القصر الإمبراطورى، وعلا نجم زعيمهم غاياس الذى أصبح يعين ويقيل الوزراء كيفما يشاء. وثار الرأى العام فى القسطنطينية ضد هذا الوضع الخطير المهين. وتحرك أسقف مدينة قورينا ويدعى سينسيوس من أراضى ليبيا قاصدا قصر الإمبراطور على البسفور لكى يوقظ هذا الإمبراطور الصبى الغافل من غفلته، وألقى أمام الإمبراطور ورجال بلاطه مقولة جريئة هاجم فيها تسلط القوط على أمور الدولة، ساخرا فى نفس الوقت من مظاهر الترف والدعة التى تردى فيها الإمبراطور وبلاطه من زمرة المنافقين. ومما قاله سينسيوس لأركاديوس: «قم أيها الراعى واحترس من الذئاب فهى وإن احتُضِنتْ من صغرها وبَدَتْ مستأنسة فلا بد يوما أن تكشر عن

أنيابهـا لتلتهم القطيع، ثم لا تلبث أن تنقض على الراعى نفسه لتـأتى عليه تماما كما فعلت مع القطيع...».

لقد أتت مقولة سينسيوس أكلها، إذ أثارت المشاعر فى العاصمة الشرقية ضد القوط وزعيمهم غاياناس، وفى نهاية سنة ٤٠٠م دبرت السلطات مؤامرة تم فيها اغتيال غاياناس وأتباعه فى ضربة واحدة. وقد هلل الناس فرحا، وكتب الشعراء قصائد طوال بهذه المناسبة. وتصور القوم أن الغُمة قد انقشعت وما كانوا يعلمون أنه بعد غاياناس سوف تبتلى الإمبراطورية بقوطى آخر أشد وأنكى ألا وهو آلارك.

لقد جاهد النصف الشرقى من الإمبراطورية الرومانية لكى يعايش الخطر القوطى دون أن يصاب بالانهيار، وساعد على ذلك الصمود موقع بيزنطة الإستراتيجى المتميز، إلى جانب أسوارها العالية الحصينة، كما لعبت الدبلوماسية البيزنطية الذكية دورها فى التخفيف من غلظة الزعماء الجرمان تارة بالهدايا وحفلات الاستقبال فى القصر الإمبراطورى وأخرى باستضافة أبناء زعماء القبائل ضيوفا فى القصر الإمبراطورى، حيث تلقنوا أساليب الحضارة وقواعد الدبلوماسية.

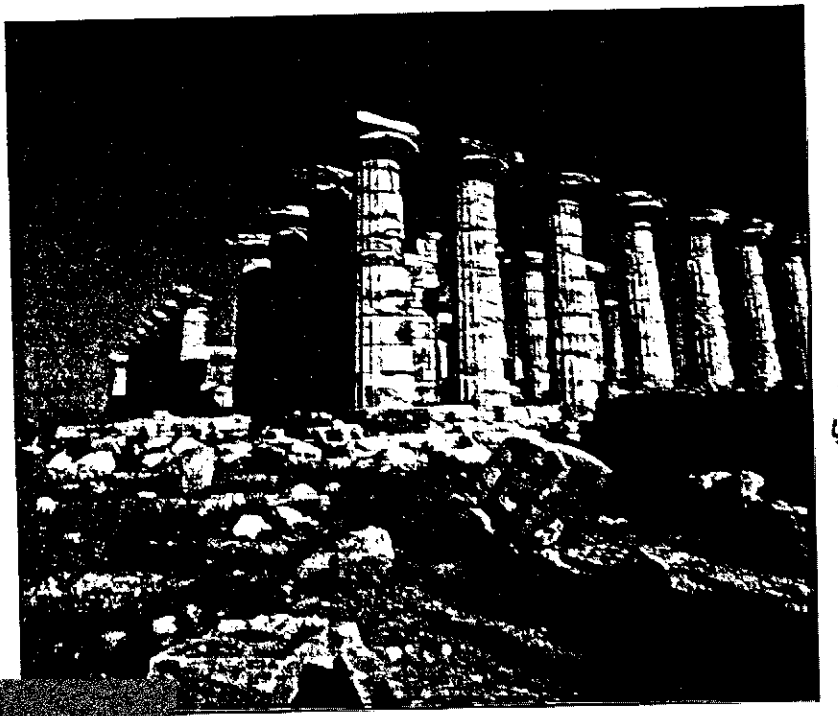

معبد أبوللو قورينية - ليبيا - العصر الرومانى

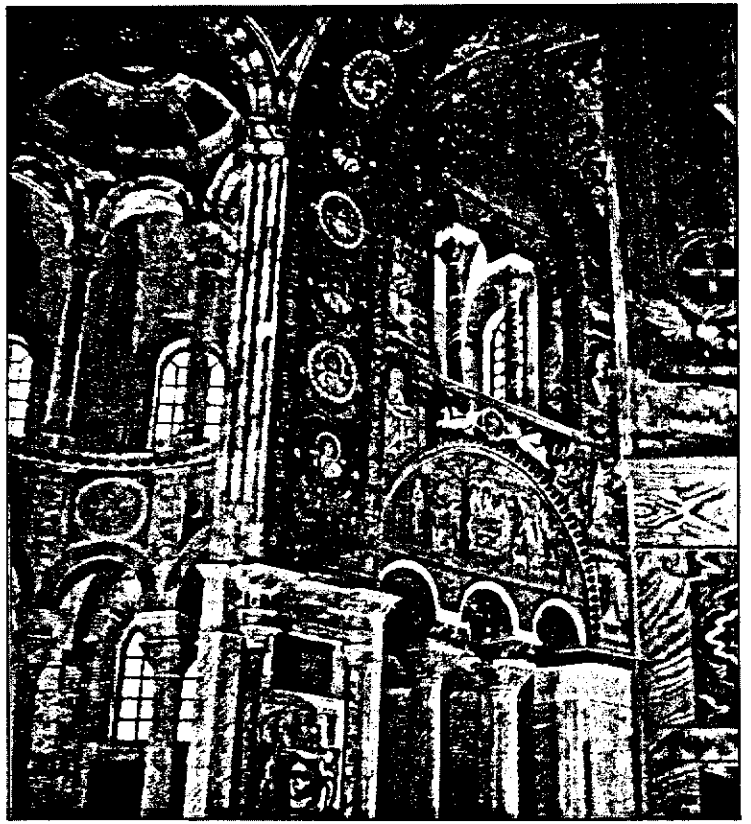

كنيسة رافينا البيزنطية

بعد أن قسم الإمبراطور ثيودوسيوس الإمبراطورية إلى قسمين، جاء النصف الغربى من نصيب ابنه هونوريوس الذى كان بدوره يستعين بزعيم جرمانى خطير اسمه ستيليكون كقائد أعلى للجيش الرومانى. وكان ستيليكون يخطط للاستيلاء على إقليم إلليريا التابع للنصف الشرقى للإمبراطورية؛ ولهذا فإن السلطات فى النصف الشرقى لم تجد غضاضة فى تشجيع الزعيم القوطى آلارك على التصدى لمخطط ستيليكون، بل وأنعمت عليه بلقب «سيد الجند الأعلى فى إلليريا» (Magister Militun Illyricum).

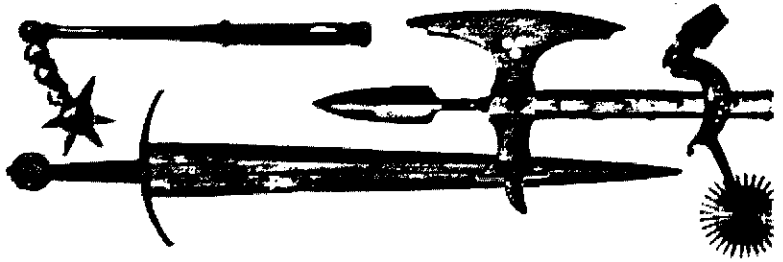

أسلحة رومانية

أما آلارك فقد قرر أن يزحف غربا ليستولى على إيطاليا نفسها، فعبر برجاله جبال الألب اليولیانية، وخوفا من الحصار والمجاعة اضطرت مدن الشمال الإيطالى إلى فتح بواباتها للغازى القوطى الجديد، بينما جمع الموسرون كنوزهم ولاذوا بالفرار بحرا إلى جزر سردينيا وصقلية اتقاء لغائلة المتبربرين.

فى هذا الجو المخيف نشطت صنوف شتى من الأراجيف، فهرع الكهان لاستشارة آلهة المعابد، ولكن وحيها نطق بسوء المصير. وقد تزامن هذا الشعور بالهلع مع علامات طبيعية مرعبة من خسوف للقمر ونشوب للحرائق وهبوب للعواصف هنا وهناك. وفسر الناس كل ذلك بنذير للسوء القادم. وانتقلت حمى الفزع إلى القصر الإمبراطورى الذى نقل من روما إلى ميلان، وفكر أفراد الحاشية فى الهرب. ولكن ستيليكون أقنع الإمبراطور هونوريوس بضرورة البقاء فى ميلان لرفع معنويات الشعب، ثم روج ستيليكون لرواية خيالية مؤداها أن ذئبين قد هاجما الإمبراطور هونوريوس وهو يتجول فى ضواحى ميلان ولكن الذئبين قد قتلا بمعجزة، وعندما بقرت بطنا الذئبين عثر بداخلهما على كفين آدميتين. وقد بادر عرافو القصر بتفسير تلك العلامة بأن يدى زعيمى القوط والوندال سوف تقطعان بواسطة الجيش الرومانى.

وقعت مناوشات بين الزعيم الجرمانى آلارك وبين الجيش الرومانى بقيادة الزعيم الجرمانى (المرتزق) ستيليكون، وفى آخر الأمر اتفق كل من آلارك وستيليكون على غزو إقليم إلليريا سويا. ولما أن فاحت أخبار هذا الاتفاق ارتفعت الأصوات فى الغرب تتهم ستيليكون بالخيانة، وقد عبر عن ذلك صراحة القديس جيروم مؤكدا أن هذا المتبربر قد جرّ الخراب على روما. كما أن الجند الرومان عبّروا عن تذمرهم بسبب ازدياد أعداد الجرمان فى صفوف الجيش الرومانى، مما اضطر الإمبراطور هونوريوس إلى تدبير مؤامرة تمّ فيها اغتيال ستيليكون فى ٢٢ أغسطس ٤٠٨م. وخير دليل على خيانة ستيليكون أن الفرق الجرمانية التى كانت تخدم فى الجيش الإمبراطورى سرعان ما هجرت المعسكر الرومانى وانضمت علانية إلى معسكر آلارك، وفى أثناء ذلك كانت تعزيزات قوطية تفد من وراء نهر الدانوب على معسكر آلارك، وبعدها وصلت فرقة أخرى بقيادة صهره أتولف. وعندها قرر آلارك أن يزحف على مدينة روما نفسها!

استولى القوط على مدن أقويليا وبادوا وكريمونة، وقطعوا على العاصمة روما سبل الاتصال بالعالم الخارجى بضرب حصار حول أسوارها، وسرعان ما شحت المؤن وانتشرت الأوبئة، وسقط الكثيرون من الجوع أو الخوف أو منهما معا، واضطر بعض الأغنياء إلى التبرع ببعض مما لديهم لشراء الخبز من السوق السوداء وتوزيعه على المجوعين فى المدينة المحاصرة، وكان على رأس المتبرعين أرملة الإمبراطور الراحل جراتيان، غير أن أرملة القائد الجرمانى ستيليكون لم تتبرع بشىء للفقراء، فحامت حولها الشبهات وسرت إشاعة بأنها على اتصال سرى بالعدو القوطى، فقبض عليها وتمّ إعدامها.

أدرك أهل روما أن الكارثة واقعة لا محالة، فأوفدوا سفارة إلى معسكر آلارك يفاوضونه فى تسليم المدينة إليه على أن يؤمّنهم على حياتهم وأملاكهم، ولكن الزعيم القوطى رد على السفراء بقول ساخر: «اعلموا أنه على قدر ما يشتد صلب العود يسهل جزه بالمنجل»، ثم طلب إلى السفراء أن يسلموه ما تحتويه المدينة من كنوز ذهبية وفضية إلى جانب الأسرى من الجرمان.

وعندما تأزم الموقف إلى هذا الحد طالب نفر من الوثنيين فى روما بضرورة تقديم الأضحيات للآلهة القديمة، ووجد محافظ روما نفسه مضطرا إلى أن يلفت نظر البابا إنوسنت الأول بأن يغمض عينيه عن قيام الشعب الرومانى بتقديم الأضحيات للآلهة الوثنية بشكل علنى. ثم وجه الرومان سفارة جديدة إلى معسكر آلارك يعرضون عليه خمسة آلاف قطعة من الجلود الأرجوانية اللون، وثلاثة آلاف رطل من التوابل. ولسداد كل هذا فرضت السلطات ضريبة خاصة على أغنياء المدينة، ولقد استجاب البعض بينما تحايل الكثيرون للتهرب من الدفع.

مجلس السيناتو - روما

ولما أن طال الحصار وتعثرت المفاوضات واشتد الجوع هاجت العامة وهجموا على محافظ

المدينة وأمطروه بوابل من الحجارة حتى هلك. واختلط الحابل بالنابل، واقتحم الدهماء بيوت السادة ينهبون تماثيلها الفضية والذهبية وألقوا بها فى النار لتصهر فيحولونها إلى عملات.

بعد أن تسلم آلارك جزءا من الفدية المطلوبة سمح لأهل روما بالخروج من الحصار لمدة ثلاثة أيام عبر بعض البوابات المحددة وذلك للتزود بالمؤن. ولم يفوت جند آلارك هذه الفرصة، فأخذوا يبيعون للناس بعض أغراضهم بأثمان خيالية. هذا، وقد استجابت السلطات فى روما لمطلب آلارك فأطلقت سراح من لديها من أسرى چرمان، فجاء هؤلاء ليرفعوا من عدد الجند فى المعسكر القوطى المتحفز.

تراجع آلارك بعد هذا إلى منطقة توسكانيا لكى يراقب مدى التزام السلطات الرومانية بتنفيذ ما اتفق عليه بين الطرفين، ويبدو أن الإمبراطور هونوريوس لم يكن جادا فى مراعاة تنفيذ الاتفاق المبرم، فلقد اختار شريكا له فى حكم النصف الغربى للإمبراطورية اسمه قسطنطين شريطة أن يزوده ببعض الفرق العسكرية للتصدى لآلارك. وعليه فإن آلارك أخذ يشدّد من موقفه مرة أخرى، فطلب من هونوريوس مزيدا من الفضة وأن يسمح له بإقامة معاقل قوطية فى البندقية وإستريا ودلماشيا، وأن ينعم عليه بلقب «سيد الجند الأعلى» لسائر جيوش الإمبراطورية فى الغرب. وكانت هذه المطالب بمثابة إلقاء القفاز فى وجه الإمبراطور، وعليه ففى نهاية سنة ٤٠٩م زحف آلارك لحصار روما مرة ثانية، فاستولى فى طريقه على ميناء بورتو على نهر التيبر كى يحرم روما من وصول المؤن، ثم وجه طلبا إلى مجلس السيناتو بضرورة خلع هونوريوس عن العرش وتنصيب شخص يدعى أتالوس بدلا منه.

وكان أتالوس هذا ابنا لمحافظ سابق لروما، وكان على المذهب الآريوسى، كما كان على علاقة طيبة مع آلارك. وبالفعل نصّب أتالوس نفسه إمبراطورا على روما، وراح يوزع مناصب الدولة على أتباعه، وأفصح أمام السيناتو عن أمله فى توحيد الإمبراطورية شرقيها وغربيها تحت صولجانه بمؤازرة القوط وسيدهم آلارك.

فى أثناء ذلك كان الإمبراطور الشرعى هونوريوس حبيسا فى أحد القصور فى مدينة راڤنا، ولما كان عاجزا عن التصدى لآلارك ولغريمه أتالوس فإنه عرض على الأخير أن يعترف به شريكا له فى الحكم، ولكن أتالوس رفض العرض وهدد بالقبض على هونوريوس وتشويه خلقته ثم نفيه إلى إحدى الجزر. وفزع هونوريوس وفكر فى الهرب إلى القسطنطينية للاحتماء بجوار ابن أخيه ثيودوسيوس الثانى، ولكن إمبراطور القسطنطينية كان هو أيضا يرتعد خوفا من آلارك، إذ باتت الإمبراطورية الرومانية بنصفيها المنعزلين ـ على حد تعبير المعاصرين ـ «العوبة فى أيدى مغتصب معتوه هو أتالوس ومتبربر فاجر هو آلارك».

وسرعان ما دبّ الخلاف بين الزعيم القوطى آلارك وحليفه الرومانى أتالوس مغتصب العرش؛ ولذا فقد قبض آلارك على أتالوس وابنيه واحتجزهم جميعا رهائن فى معسكره. وبعدها قرر آلارك أن يشق طريقه بالسيف ثم ضرب حصارا حول روما للمرة الثالثة فى أغسطس لسنة ٤١٠م.

سقوط روما

اشتدت وطأة الحصار على أهل روما فهلك الكثيرون منهم جوعا، وتروى المصادر أن نفرا من الجوعى قد جن جنونهم فأقدموا بالفعل على أكل لحوم البشر. وفى ليلة الرابع والعشرين من أغسطس ٤١٠م قام بعض العبيد الذين كانوا فى خدمة سيدة نبيلة تدعى أنيشيا بروبا بفتح بوابة سالاريا لقوات آلارك، ويقال: إن هذه السيدة قد أمرت عبيدها بفتح البوابة بدافع الشفقة على أهالى روما الذين بلغ بهم اليأس حد الجنون والهوس.

اقتحم القوط بوابات روما وهم يتصايحون ويقرعون الطبول، وأشعلوا الحرائق فى المبانى، والتهمت ألسنة النيران بعض القصور الفاخرة، ثم أطلق آلارك رجاله لنهب المدينة، وتتحدث المصادر عن حالات اغتصاب عديدة للصبايا والعذارى والراهبات. ويؤكد المؤرخ البيزنطى پروكوبيوس (القرن ٦م) أن بعض البنايات قد سويت بالأرض ولم يبق منها أثر ينعى من بناه، وأن القتل كان جماعيا للشيب والشبان وللنساء والأطفال. ومن المبانى التى التهمتها النيران: قصر ڤالريوس، وقصر آڤنتين، ومعبد يونو، والمذبح الفضى فى قصر اللاتيران، وهو الذى كان الإمبراطور قسطنطين الكبير قد قدمه هدية للبابا سلڤيستر، وكان وزنه ٢٠٤٥ رطلا من الفضة الخالصة، كما التهمت ألسنة النيران صالة الكيوريا (المجلس) البابوية.

وبعد نهب وسلب دام ثلاثة أيام قرر آلارك الخروج من مدينة روما وعبور البحر الأبيض لإرساء قواعد مملكة قوطية على الساحل الأفريقى. وقد جرّ آلارك فى موكبه جائلا پلاسيدا شقيقة الإمبراطور هونوريوس إلى جانب عدد كبير من رجال الدين.

الهون

لم تنته محنة روما عند هذا الحد، ففى كل فجر جديد كانت أمواج من البرابرة تجرف الناس فى كل صوب. وهذه المرة جاءت الكارثة من جوف آسيا، من رعاة منغوليا المعروفين باسم «الهون» (Huns). ويحدثنا المؤرخ إميانوس مارسللينوس (نهاية القرن الرابع) عن وحشية الهون، وكيف أنهم عندما يولد لهم وليد فإنهم يقومون بجرح وجنتيه كى لا ينبت له شعر فى ذقنه. وهو يشبه بنيتهم الجسمية بجذوع الشجر المشوهة، وهم لا يطهون طعامهم بل يجففون اللحوم تحت أفخاذهم على ظهور الخيل التى يندر أن يترجلوا عنها. وهم يغطون أجسادهم بجلود الفئران ولا

يخلعونها حتى تبلى تماما، وهم أيضا يغطون سيقانهم بشعور الماعز. ولا تلمس أقدامهم الأرض حتى وقت الطعام والشراب، بل إنهم ينامون على ظهور جيادهم، وقد مالوا على رقابها قليلا، كما أنهم يعقدون مؤتمراتهم مع رؤسائهم فى دائرة وهم على ظهر خيولهم.

آتيللا

لقد تمكن الهون من الاستيلاء على منطقة پانونيا (المجر حاليا) بعد أن نجح قائدهم الجبار آتيللا فى تدمير القوى الجرمانية التى صادفته من بحر قزوين إلى البحر الأسود إلى شواطئ الدانوب. وبات آتيللا يتربع على عرش إمبراطورية مغولية كبرى امتدت من جوف آسيا إلى قلب أوروبا، وكانت ترقد تحت قدميه تلال من الذهب لا حصر لها. والهون هم الشعب الوحيد من بين الجماعات المتبربرة الذين لم يدخلوا كجند مرتزقة فى خدمة الرومان. وقد أثار

سقوط روما

اسمهم الرعب فى قلوب سكان أوروبا، حتى إن صلوات الناس قد تضمنت صيغة جديدة من الابتهال إلى السماء بأن «تنجى العالم من شرور إبليس وكيد آتيللا»! وكان آتيللا قد أسر آلافا من القوط وجرهم معه فى موكبه كعبيد جنوبى نهر الراين لاقتحام أرض غالة (فرنسا القديمة). وقد وصلت جحافل الهون إلى مدينة متز فى ٧ أبريل سنة ٤٥١م، ودمرت المدينة تماما، ثم زحف الهون صوب باريس، ولكن آتيللا سرعان ما عدل عن خطته ويمم جنوبا شطر مدينة أورليانز.

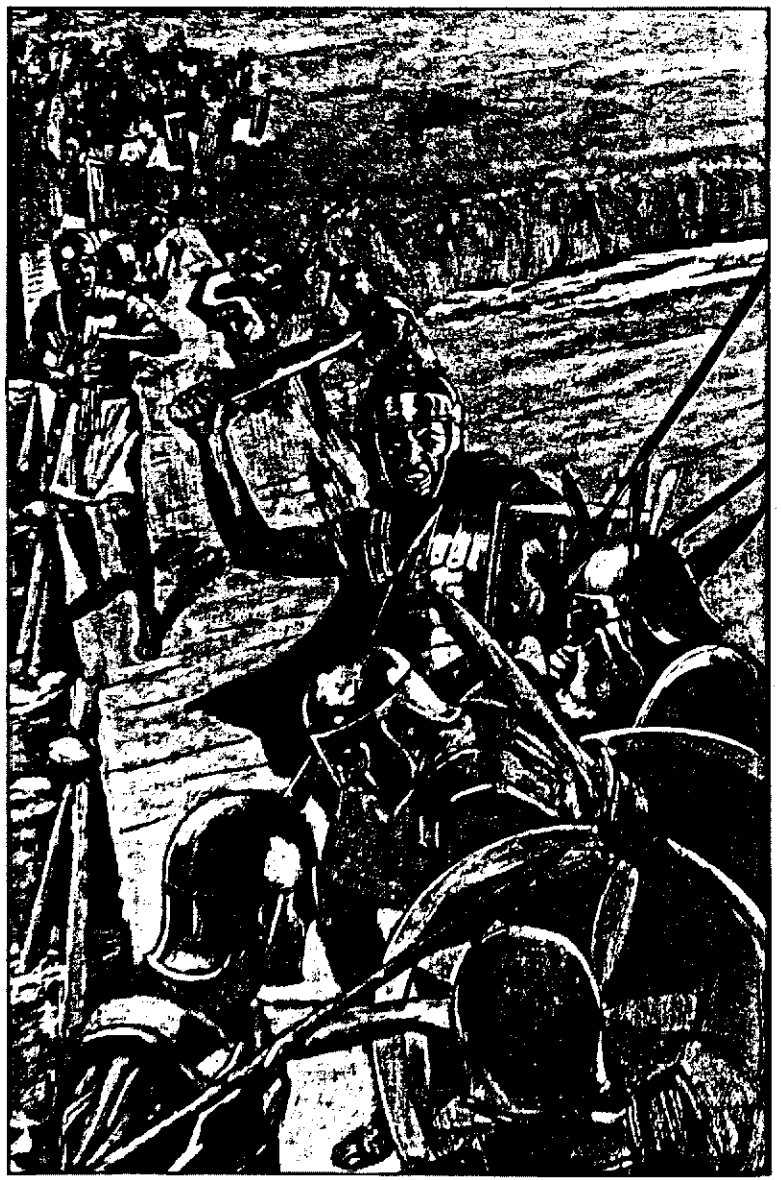

جنود وقواد رومان فى معركة

وجدت السلطات الرومانية الغربية نفسها فى موقف حرج للغاية، فكلف الإمبراطور ڤالنتنيان الثالث (٤٢٥ ـ ٤٥٥م) قائد جيوشه أئتيوس بالتصدى لآتيللا وجحافله. ولم يجد القائد

الرومـانى حلا إلا بمخـاطبة ود الزعـماء الجرمـان ـ الأعداء التـقليديين لـروما ـ لمجابهة العدو الآسيوى المشترك. وهكذا فإن الجيش الرومانى الذى تصدى لأتيللا فى غالة كان يضم عناصر مـرتزقة أو معاهدة من مختلف القبـائل الجرمانية؛ من برغنديين، وآلان، وفرنجة، وسكـسون، وقوط غربيين وشرقـيين. وأطبق الجميع على معسكر الهون فى حقـول قطالونيا على مقربة من بلدة تروى (Troyes) فى غالة، ولأول مرة تلحق الهزيمة بجيوش آتـيللا الجبار. وقد هلك فى هذه المعركة ملك القوط الغـربيين الجديد ثيودريك وذلك تحت لـواء العلم الرومانى. واضطر آتيللا بعد هذه الهزيمة المرة إلى التقـهقر قبالة مقر إقامته فى پانونـيا. وفى طريقه عرج على إيطاليا وضرب حصـارا حول مدينة أقويليـا ثم دمرها بعد أن هجرها أهلهـا جميعا، ثم مـال على مدينة البندقية وضربها ثم هبط على سهل نهر پو ودخل مدينة ميلانو.

ازداد خطر آتيللا على إيطاليا واضطر الإمبراطور ڤالنتنيان إلى الفرار من راڤنا إلى روما، بل إن القائد أتـيوس نصح الإمبـراطور بأن يهرب إلى غالة؛ لأن آتـيللا كان عازمـا على شق طريقه بالسيف إلى رومـا نفسـهـا، ثم تقرر إيفاد سفـارة من روما مؤلفـة من البابا ليون الكبـير والقنصل إتيانوس للتوسل إلى آتيلـلا كى يعدل عن مهاجمة رومـا مقابل جزية مهـولة من الذهب والفضة. وبعد أن وصلت كنوز الذهب والفـضة بالفعل إلى مـعسكر آتيللا، قرر الانسـحاب إلى بلاطه فى پانونيا، وفى الطريق انتشر الوباء بين رجاله. وفى صبيحة أحد الأيام اكتشف أتباعه أن نوبة جنونية قد أتت عليه وهو مخمور أثناء الليل فمات، وكان ذلك فى سنة ٤٥٣م.

وتنفس الرومـان الصعـداء، وفسـر المعاصرون مـوت آتيللا بمعـجزة سـماوية أنقـذت روما والرومان من مخالب التنين الآسيوى الرهيب!

الوندال

فى أثناء ذلك كانت جماعـة جرمانية أخرى تعبث بأقدار الناس فى كل من غـالة وإسبانيا، وتلك هى قبيلة الوندال. فبعد أن اصطلى الوندال بسياط آتيللا، لاذوا بالفرار من غالة إلى إسبانيا. وفى إسبانيا هجم الوندال على الكتائب الرومانيـة المرابطة هناك وفرضوا أنفسهم سادة على البلاد. وما لبث الوندال أن شيـدوا لهم أسطولا بحريا، ويقال: إن نفرا من الخبراء الرومـان قد نقلوا سرا أسرار بناء الأسطول للوندال مقابل رشوة ضخمة. ولقـد ارتبطت سيرة الوندال فى إسبانيا بتخريب الكنائس ونهـبها خـاصة تحت حكم ملكهم جـوندريك. وبعد موت جـوندريك تولى الحكم على الوندال ملك جديد اسمه جنزريك، الذى كان مُقلا فى الكلام، غضوبا إلى حد الجنون، تواقا إلى الذهب وملمسـه، ماكرا فى زرع الخصومة بين منافسيه، جبارا فى كبح جماح رجاله الأشداء.

جنزريك

تمكن الوندال بأسطولهم البحرى وبالسفن الرومانية التى استولوا عليها من غزو جزر البليار واكتشاف شواطئ موريتانيـا. وكان جنزريك مقتنعا بأن مستقبل أمتـه لن يكتمل إلا بالـسيطرة على حـوض البحر الأبـيض وتحويله إلى بحـيرة ونداليـة، ومن ثم فـقد أخذ يخطط للسـيطرة على الشمال الأفـريقى لكى يحرم الرومان من الغلال حتى تصبح كل من روما والقسطنطينية تحت رحمته!

وعندما تسربت أخـبار المشروع الوندالى إلى بلاط القسطنطينية، أشـارت أصابع الاتهام إلى بونيفـاس حاكم ولاية أفريـقيا الرومـانى بالخيانة، وبأنه يتـآمر مع الوندال مـقابل أن يسـمـحوا له بالانسلاخ بجزء من ولاية أفـريقيا يحكمه لحـسابه. وقد بادرت السلطات الرومانيـة بإرسال حملة تأديبية ضـد بونيفاس، وهكذا تمزق الصف الرومانى. كـما أن المنازعات المذهبية بين فـرقة عرفت باسم «الدوناتيين» وبين الكاثوليك فى قرطاج قد خلقت جوا من الفوضى والمشاحنات العقائدية فى الشمال الأفريقى.

شجـعت هذه الأحوال المضطربة الملك الوندالى جنزريك علـى الإبحار من جنوب إسـبانيا قبالة السـاحل الأفريقى. وقبل رحيله انقض جنزريك على قـبيلة جرمانية من جـماعة «السويڤ» وأبادها تماما. ثم أبحرت أمة الوندال وفى ركابها آلاف من الأسرى والعبيد، ويقدر عدد أفراد هذه الهجرة بقرابة ٨٠,٠٠٠ من رجال ونسـاء الوندال. رسا الأسطول الوندالى فى طنجة ومنها تحرك الجند الوندال نحو موريتانيا القـيصرية زحفا نحو العاصمة قرطاج. وكـانت مسيرة الوندال تتراوح بين ستـة إلى ثمانيـة كيلومـترات فى السـاعة، ويرجع السبـب فى بطء الحركة إلى ثقـل العربات وأحمالها على الخيول التى تجرها، وأيضا بسبب انشغال رجال الحملة فى نهب وسلب جميع البقاع التى مروا عليها.

كان مجـرد ذكر اسم الوندال كافيـا لإثارة الذعر فى نفوس الناس، فلقـد أتت الأخبار من غالة وإسبانيا وإيطاليا عن وحشـية هؤلاء القوم وبربريتهم التى فاقت كل وصف. وكان أشد الناس هلعا رجال الدين الكاثوليـك بسبب ما عرف عن الوندال من تعصب مـهووس لمذهبهم الأريوسى ومن كره بالغ للكثلكة. وقيل عن الوندال: إنهم تفردوا فى سلخ فروة رءوس ضحاياهم ليزينوا بها سروج جيادهم وقت المعمعة!

القديس أغطينوس

بينما كان الإعصار الوندالى يجتاح الساحل الأفريقى، كان الفيلسوف أغسطينوس معتكفا فى مدينة هبو (عنابة حاليا) وهو فى حيرة شديدة من أمور هذا العالم، فلقد أصيبت الرعية من خاصة وعامة بالهلع، واختفى الرعاة من منابرهم، وخرست النواقيس، واشتعلت ألسنة النيران فى الكنائس. وفر صغار الكهنة من وجه العدو يضربون الطرقات والبرارى كالشحاذين. ودوت صرخة صاحب «مدينة الله» تقول: «إن الإنسان العاقل هو الذى لا يغتم على انهيار عمود من الخشب، ولا على انهيار كوم من قرميد الحجر، ولا حتى على موت يصيبه؛ لأننا جميعا مخلوقات ذائقة كأس الموت لا محالة، فعلام الحزن إذن؟». ولا يملك هذا الرواقى العملاق إلا أن يعلن لسامعيه وتلاميذه بأن كأس الموت حق على الجميع، وأن آلام الجسد تطهر الأرواح، وأن على الناس أن يبتهلوا إلى السماء وقت الضيق لاجتياز مرارة الكأس التى لا مفر من تجرعها، وأنه على الراعى الصالح ألا يفر هاربا من القطيع المروّع؛ لأنه لا يليق بربان السفينة أن يهجر سفينته وهى تغرق.

ولاية أفريقيا الرومانية - بقايا كنيسة بيزنطية - ليبيا

لقد بلغ جرم الوندال فى الشمال الأفريقى حدا بشعا للغاية، فنحن نعلم من رسالة للبابا ليون الكبير أن أعداد الراهبات اللاتى هُتكت أعراضهن وتمّ اغتصابهن على أيدى الجند الوندال كانت أعدادا مهولة؛ ولذا فإن البابا يطلب فى رسالة إلى أساقفة شمال أفريقيا وموريتانيا القيصرية أن يعاملوا هؤلاء الضحايا ولكأنهن «عذارى أرامل من غير ذنب أتينه».

وفى نوميديا ضرب الوندال الحصار حول سائر المدائن، فانتشرت المجاعات وتفشت الأوبئة بسبب كثرة الجثث، وامتلأت الطرقات بأمواج من

الخلق وهم يولولون. ولما أن اقتربت جحافل الوندال من بوابات قرطاج، أصيب الناس وراء الأسوار بالفزع الشديد، وهربت أعداد منهم إلى الجنوب، ولكن الوندال تصيدوهم وقتلوهم عن بكرة أبيهم. ولقد قام الوندال على مرأى ومسمع الجميع بإحراق بعض الأساقفة أحياء، ومن بينهم بامنيانوس، ومانسيوتيوس. فى أثناء ذلك كان الكونت بونيفاس - الذى اتهم بالخيانة - يعسكر مع رجاله خلف أسوار مدينة هبو التى اغتصت باللاجئين. وفى نفس الوقت كان القديس أغسطينوس يرقد داخل نفس المدينة التعيسة وهو فى حالة مرض شديد. ورغم شدة الإعياء وحمل السنين، ظل الرجل يلهم تلاميذه ومريديه بجميل العزاء كى يجتازوا معه التجربة المرة، ولما أن دنت ساعة الخلاص من أوزار هذا العالم صرخ أغسطينوس على مسمع من تلاميذه: «اللهم أطلق عبدك بسلام»، وتلقف الجميع الصرخة الأغسطينية ودوت بها الحناجر. وبعد قليل فاضت روح الرجل إلى باريها، وكان ذلك فى ليلة الثامن والعشرين من شهر أغسطس لسنة ٤٣٠م. وسقطت مدينة هبو فى أيدى الوندال، وكان نصيبها النار والدمار عن آخرها.

آثار من حضارة مدينة قرطاج

وفى التاسع من أكتوبر ٤٣٩م اقتحم الوندال أسوار قرطاج، وسقطت العاصمة سقوطا مروعا؛ إذ استولى البرابرة على كل ما فيها من أخضر ويابس، ونهبوا الكنائس من نفائسها وأدوات طقوسها، كما اعتدوا على الحرمات دون تمييز. وما لبثت معاول الهدم والتخريب أن اجتاحت آثار قرطاج القديمة وكاتدرائياتها، كما حولت بعض كنائسها إلى إسطبلات للخيول. وبعد السقوط أصيب رجال الدين الكاثوليك بحال من الجبن الشديد، ففى مواعظهم أيام الآحاد تجنبوا الإشارة من قريب أو بعيد إلى الكارثة الكبرى التى حلت بقرطاج. ولئن حدث فى ذات موعظة أن أشار أحدهم من على منبره - ولو بطريق السهو - إلى اسم فرعون أو نبوخذ نصّر، فإن جنزريك كان يفسر ذلك بأنه هو المقصود من وراء ذكر هذا الاسم أو ذلك، فيأمر بالقبض على الكاهن الواعظ ويسام العذاب ألوانا.

فرض الوندال سيطرتهم على الشمال الأفريقى بقبضة من الحديد، كما هيمن أسطولهم على حوض البحر الأبيض المتوسط، وهكذا فإنه بعد سقوط قرطاج فى أيدى جنزريك باتت كل من روما القديمة وروما الجديدة (القسطنطينية) فى خطر داهم. ولقد عمل الإمبراطور الغربى ڤالنتنيان على إصلاح أسوار روما التى تهدمت وعلى إقامة التحصينات لحماية ميناء نابلى. وفى سنة ٤٤٠م. قام جنزريك بحملة بحرية من ميناء قرطاج، ولكنه لم يعلن عن هدف الحملة مكتفيا بالقول: «نحن نقصد قوما أغضبوا السماء». غير أن الإمبراطور ڤالنتنيان شعر بأن الحملة موجهة ضده، فطلب إلى رعاياه التحلى باليقظة ومقاومة العدو حيثما ترسى سفائنه إلى أن تصل إليهم النجدة الإمبراطورية.

رست سفن جنزريك أول الأمر على شواطئ بلدة ليليبا، ومنها هبط الجند على جزيرة صقلية فنهبوها تماما. ولما أن علم جنزريك قرب وصول أسطول من القسطنطينية إلى صقلية، أبحر مسرعا بالعودة إلى قرطاج.

اضطر الإمبراطور الغربى ڤالنتنيان إلى فتح باب المفاوضات مع العدو الوندالى الذى لا يرحم، وقد عرض الإمبراطور أن يزوج شقيقته الأميرة يودوكسيا من ابن لجنزريك، غير أن هذه الصفقة لم تتم، إذ قام قائد رومانى يدعى بترونيوس ماكسيموس باغتيال الإمبراطور والجلوس على العرش، ثم زوج الأميرة يودوكسيا من ابنه المدعو أتيوس. وقد كانت هذه الأحداث ذريعة كافية لجنزريك كى يجرد حملة جديدة يؤدب بها بترونيوس مغتصب العرش.

أبحر الأسطول الوندالى إلى ميناء بورتو، ورست الكتائب لتزحف برا قبالة مدينة روما. وفى الطريق أشعل الوندال الحرائق فى كل مكان، فأصيب أهل روما بالفزع الشديد، وهرب الكثيرون لا يلوون على شىء، وكان من بين الفارين الإمبراطور بترونيوس ماكسيموس نفسه. ولقد كان هذا الهروب المخزى مدعاة لأن يقوم واحد من رجال حرسه الخاص بقذفه بحجر فأرداه

قتيلا، ثم هجم الجمهور الغاضب على جثة الإمبراطور ومثلوا بها ثم ألقوا بها فى نهر التيبر. وبعد ذلك الحادث بثلاثة أيام اقتحمت كتائب جنزريك مدينة روما، ولم يكن فى المدينة من يتولى التوسل من أجلها سوى البابا ليون الكبير، الذى قصد بنفسه إلى معسكر جنزريك عارضا أن يسلم له كنوز كاتدرائية القديس بطرس مقابل العفو عن المدينة.

وافق جنزريك على التماس البابا ليون، وأصدر أوامره بإيقاف الحرائق وقتل الأنفس، ولكنه أذن لرجاله بنهب المدينة. واستمر النهب الوندالى لمدينة روما أسبوعين كاملين، تمّ خلالهما تفريغ القصور من كل محتوياتها النفيسة، كما استولى جنزريك على النياشين والعلامات الإمبراطورية، والأعجب من هذا كله أنه أمر رجاله باقتطاع جزء من سقف جوبيتر فى معبد الكابيتول ظنا منه أنه من الذهب الخالص، وهو فى الحقيقة من البرونز الأصفر. هذا، كما استولى الوندال أيضا على كم وافر من التماثيل القديمة والكنوز التى كان القائد تيطوس قد حملها إلى روما بعد تخريبه لهيكل سليمان فى بيت المقدس (القرن الأول الميلادى).

وحمل الوندال تلك الكنوز والآثار النادرة على ظهر إحدى سفنهم، غير أن هذه السفينة بالذات قد غرقت بما كان على ظهرها من كنوز ونفائس، وهكذا ابتلع اليم حضارة بأكملها!

وقد حمل جنزريك معه عددا من الرهائن، من بينهم أتيوس ابن الإمبراطور بترونيوس، وأرملة الإمبراطور ڤالنتنيان وابنتيها، إلى جانب نفر من أعضاء السيناتو والكتبة وخبراء السلاح. وتفيض المصادر بأخبار مؤسفة عن أحوال الأسرى الرومان الذين اقتادهم الوندال إلى قرطاج، فعند

كاتدرائية القديس بطرس القديمة

وصولهم إلى الشاطئ الأفريقى، قام القادة الوندال باقتسام هؤلاء الأسرى فيما بينهم، بعد أن عزلوا النساء عن أزواجهم والآباء عن أطفالهم.

بعد هذه الحملة راح جنزريك يرهب أراضى النصف الشرقى للإمبراطورية، فأرسل حملات بحرية نهبت الجزر اليونانية وأسرت العديد من أهلها. وقد حاولت السلطات فى القسطنطينية التصدى لأسطول الوندال، كما جودت جميلة من مصر للهجوم على طرابلس، ولكن الأسطول الوندالى دمر هذه الحملة (٤٦٨م).

هكذا باتت كل من روما القديمة وروما الجديدة عاجزتين تماما أمام جبروت الوندال. وفى أثناء ذلك كان جنزريك قد أطلق سراح الإمبراطورة الأسيرة ولكنه استبقى ابنتها يودوكسيا ثم زوجها بالقوة من ابنه هونريك، وظلت هذه الأميرة القديسة زوجة لهونريك لمدة ستة عشر عاما، ثم هربت سرا بعد ذلك إلى بيت المقدس.

بعد وفاة جنزريك سنة ٤٧٧م، خلفه عدد من أبنائه وأحفاده هم: هونريك (٤٧٧ ـ ٤٨٤م)؛ جونتاموند (٤٨٤ ـ ٤٩٦م)؛ ترازا موند (٤٩٦ ـ ٥٢٣م)؛ هلدريك (٥٢٣ ـ ٥٣١م)؛ وأخيرا جلمبر (٥٣١ ـ ٥٣٤م) الذى قدر له ولدولته السقوط النهائى على أيدى الإمبراطور الشرقى جستنيان العظيم (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) وقائده المرموق بلزاريوس وذلك فى ديسمبر لسنة ٥٣٣م.

الإمبراطور الشرقى «جستنيان العظيم» (٥٢٧ - ٥٦٥م)

الفصل الثالث
شارلمان والنهضة الكارولنجية(*)

فى سنة ٤٨٦م اقتحم كلوڤس الزعيم الجرمانى لقبيلة الفرنجة حدود نهر الراين واحتل منطقة باريس فى غالة. وكان كلوڤس قبل ذلك يخدم هو وأتباعه كجند «معاهدين» فى الجيش الرومانى. وفى غالة أخذ كلوڤس وأتباعه يتمثلون بالسادة الرومان فى الملبس والعادات، إذ رأى فى نفسه ممثلا للإمبراطورية الرومانية فى بلاد الغال. وقد وقع اختيار كلوڤس على أميرة برغندية على المذهب الكاثوليكى اسمها كلوتلد (Clotild) وتزوج منها.

كنيسة راڤنا

وينتسب هؤلاء الفرنجة الميروڤنجيون إلى جد أسطورى اسمه ميروڤتش، ويعتقدون أنهم تحدروا من نسل الآلهة الجرمانية القديمة، ومن ثم فإنهم كانوا يرخون شعور رءوسهم حتى تتدلى تحت أكتافهم علامة على هذه الأصول القديمة. وكان ملوك الفرنجة ينظرون إلى غالة على أنها ملك خاص لهم ولأولادهم من بعدهم؛ فعندما مات كلوڤس قسّم المملكة بين أبنائه الأربعة: مملكة أوسترازيا الواقعة على ضفتى نهر الراين؛ ومملكة نوستريا الواقعة شمالى غالة؛ ومملكة برغنديا فى وديان نهرى الرون والساءون؛ ثم مملكة بروڤانس فى جنوبى غالة. وقد دخل الأبناء الأربعة (ثيودريك؛ كلوديبير؛ شلدبرت؛ كلوتار) فى صراع دامى، كلٌ يسعى لتوسيع رقعة مملكته على حساب إخوته الآخرين. ثم شهدت المملكة صراعا مريرا بين اثنين من أحفاد كلوڤس هما الأخوان سجبرت، وشلبريك. وقد هلك فى هذا الصراع عشرات من أمراء البيت المالك ومن كبار النبلاء. وكان

(*) نسبة إلى كارل مارتل جد شارلمان (كارل أو شارل العظيم).

المحرك لهذه المؤامرات والاغتيالات الأميرة برونهلدة زوجة سجبرت التى دبرت سلسلة من الاغتيالات ضد خصومها، حتى قبض عليها أعداؤها وقتلوا جميع أحفادها، ثم وضعوها على ظهر جمل، وفى آخر المطاف قيدوها بشعر رأسها وأوثقوا ذراعيها وقدميها بذيل حصان جامح، فألهبوا ظهره بالسياط فمزقها إربا، وكان ذلك فى سنة ٦١٤م.

إن هذه الصراعات الدامية قد جعلت من أحفاد كلوڤس ملوكا ضعافا من أمثال سجبرت الثالث، وداجوبرت الثانى، وشلدڤيج الثانى، الذين صاروا مجرد دمى فى أيدى «صاحب البلاط» (Major Domus)، حتى إن التاريخ قد شيع هؤلاء الملوك الضعفاء باسم «الملوك العاطلين» (Les Rois Faineants).

وسرعان ما نشبت الخلافات بين حاجبى البلاط فى مملكتى نوستريا وأستارزيا، ودارت معركة بين الطرفين فى بلدة تسترى (Testry) سنة ٦٨٧م، والتى انتهت لصالح مملكة أسترازيا وحاجب بلاطها پين هرتزال الأكبر (٦٨٧ ـ ٧١٤م).

وكان لهذا الحاجب ابن غير شرعى اسمه كارل، وحفيد يدعى ثيدوالد، ولقد قامت أرملة الحاجب (بلكترودیس) بالوصاية على هذا الحفيد بعد أن ألقت بكارل فى السجن، غير أن النبلاء ثاروا ضدها وساعدوا كارل على الهروب من السجن، ثم اعترفوا به حاجبا على بلاط أسترازيا. وكان عهد كارل الملقب «بالمطرقة» (Martel) مليئا بالحروب ضد السكسون والفريزيين والباڤار والألمانى. وفى سنة ٧٣٢م اشتبك كارل مارتل مع عرب إسبانيا تلبية لاستنجاد الكونت يود (Eudes) صاحب أقطانيا ضد الأمير عبد الرحمن الغافقى، ووقعت بين الطرفين المعركة المعروفة فى المصادر العربية باسم «بلاط الشهداء» فى پواتييه أو تور بوسط فرنسا.

كارل مارتل

توفى كارل مارتل سنة ٧٤١م بعد أن قسَّم حجابة المملكة بين ولديه كارل، وپين، ولم يعبأ بتعيين ملك للمملكة لمدة أربع سنوات، إذ كانت مقاليد السلطة فى يده ـ كحاجب للبلاط ـ ولم يشعر أحد أن مملكة الفرنجة بحاجة إلى دمية أخرى من البيت الميروڤنجى للجلوس على العرش الشاغر. وقد أمضى الأخوان كارل وپين الأعوام السبعة عقب وفاة والدهما فى حروب ضد أقطانيا وباڤاريا وسكسونيا وبعض الجماعات السلافية. ولكى يمعن الأخوان فى السخرية من البيت الميروڤنجى فقد اختارا واحدا من هذا البيت يدعى شلدريك الثالث وأجلساه على العرش، ولكنه ظل مجرد شبح متوج وهو بحق آخر «الملوك العاطلين». وفى سنة ٧٤٧م تنازل كارل عن السلطة لأخيه پين والمكنى بـ«القصير» (Le Bref)، واعتزل شئون العالم ، ثم ارتدى مسوح الرهبان منزويا على قمم جبل سوراكت على مقربة من روما.

پپن القصير

ولما أن انفرد پين القصير بحجابة البلاط الفرنجى فى مملكتى نوستريا وأستارزيا أخذ يفكر فى وضع تاج الملك على رأسه هو، فأرسل سفارة إلى روما يطلب من البابا زكريا الفتوى فى سؤال ماكر: أيهما أحق أن يكون ملكا؟ ذاك الذى يحمل اللقب والتاج وليس له حول ولا قوة، أم هذا الذى بيده كل السلطات فيما عدا اللقب؟ ولما كان البابا زكريا فى حاجة ملحة إلى حليف قوى يناصره على أعدائه اللومبارد فى الشمال الإيطالى، فقد بادر مجيبا بأن صاحب السلطة الحقيقية هو الأجدر بأن يتوج ملكا. وعليه فقد انعقد مجلس فى مدينة سواسون سنة ٧٥١م، واقتيد الملك الميروڤنجى شلدريك الثالث إلى قاعة المجلس حيث اجتز شعره وأجبر على ارتداء لباس الرهبنة، ثم ألقى به فى أحد الأديرة النائية. ثم قام كبير أساقفة الفرنجة بونيفاس بإعلان پين ملكا على الفرنجة، وقام بمسحه بالزيت المقدس علامة على التفويض الإلهى له فى الحكم.

اللومبارد

وكان اللومبارد وهم من عتاة القبائل الجرمانية قد دخلوا إيطاليا سنة ٥٦٨م، واتخذوا من مدينة باڤيا عاصمة لهم، ثم ما لبثوا أن سيطروا على كل أراضى السهل الإيطالى الشمالى، ودوقيتى سپولتو وبنيڤنتو. وقد تقلب على عرش اللومبارد ملوك كثيرون بلغ عددهم اثنين وعشرين ملكا، بدءا بالملك ألبوين (٥٦٨ ـ ٥٧٢م) وانتهاء بالملك دزيدريوس (٧٥٦ ـ ٧٧٤م). وقد دخل اللومبارد فى صراع ضد بقايا المعاقل البيزنطية فى راڤنا، وضد البابا الرومانى. وكان الملك اللومباردى استولف (٧٤٩ ـ ٧٥٦م) من أشد المناهضين للبابوية، وكان يخطط للزحف على مدينة روما ليخضعها للتاج اللومباردى. وفى طريقه زاحفا أرسل «استولف» بسفير إلى البابا ستيفن الثالث (٧٥٢ ـ ٧٥٧م) يطلب منه الاعتراف بسيادة التاج اللومباردى على الكرسى البابوى. وغضب البابا من هذا التحرش بسلطاته، فأنزل قرار «الحرمان» على استولف، ثم التفت البابا إلى ملك الفرنجة پين القصير يطلب منه الحماية ضد عدوه استولف اللومباردى. ثم قرر البابا السفر بنفسه إلى مملكة الفرنجة سنة ٧٥٤م ليطلب بنفسه المساعدة العسكرية من الملك الفرنجى. ولقد أقيمت للبابا استقبالات حافلة فى مملكة الفرنجة، وخرج پين القصير ورجال بلاطه لملاقاة البابا لحظة وصوله، وأمسك بلجام الجواد الذى كان يمتطيه البابا علامة على الولاء والود. ثم استمع الملك الفرنجى إلى شكوى البابا وطيب خاطره ووعده بالمساعدة ضد اللومبارد. وفى أبريل ٧٥٤م عقد پين القصير مجلسا تقرر فيه أن يسعمل الملك الفرنجىُ على أن يعيد للبابوية أملاكها فى إيطاليا

كان التتويج يتم بيد البابا فى العصور الوسطى

(Patrimonium) من أيدى اللومبارد، كما تعهد پين بفرض الحماية على روما ضد أعدائها، ولقد بقى البابا ضيفا على ملك الفرنجة لبضعة أشهر، قام خلالها بإعادة تتويج پين فى بلدة سان دينيس، كما أنعم عليه بلقب «النبالة» الرومانية أو «باتريكيان» (Ptrrician).

كذلك قام البابا بتتويج برترادا زوجة پين وولديها كارل وكرلومان، وطلب من كبار نبلاء المملكة فى هذا الحفل المهيب أن يقسموا يمين الولاء والطاعة لبيت پين وألا يختاروا لهم ملوكا إلا من هذا البيت. وبهذا أقرت الكنيسة الرومانية قيام ملكية «مقدسة» فى هذه

تاج ذهبى - العصر الكارولنجى

الأسرة الفرنجية الجديدة. ولئن كان الملك پين قد جنى من هذه الزيارة مكاسب وافرة، فإن مكاسب البابوية من وراثها كانت بغير حدود؛ فإلى جانب الحماية التى ضمنتها البابوية من جانب ملوك الفرنجة، أمكن للجالس على العرش البابوى فيما تلى من تاريخ أن يدعى لنفسه الحق فى تعيين وخلع الملوك، مستندا فى هذا الادعاء بحق «الحل والربط» على هذه السابقة مع ملك الفرنجة.

فى أثناء ذلك عبرت كتائب الفرنجة جبال الألب ونزلت على السهل اللومباردى، ثم أجبرت الملك استولف على التعهد برد الأملاك التى كان قد استولى عليها من البابوية، إلى جانب أداء يمين الولاء عن مملكته للملك الفرنجى.

عقود بالفسيفساء - راڤنا

ولكن استولف سرعان ما تنكر لوعوده تلك، وزحف بجيشه ليحاصر مدينة روما، فاستنجد البابا بالملك الفرنجى مرة ثانية. وعبر الجيش الفرنجى جبال الألب مرة أخرى، وأجبر استولف على رفع الحصار عن روما وإلى عقد صلح مع الملك الفرنجى والبابوية، مع دفع جزية سنوية وتقديم بعض الرهائن للملك پين القصير. وفى أثناء المفاوضات وصل سفراء الإمبراطور الشرقى من بيزنطة يطالبون بإعادة راڤنا للإمبراطورية الشرقية. ولكن پين صاح فى وجه السفراء البيزنطيين بأنه لم يدخل الحرب ضد اللومبارد لحساب أحد، وإنما هو قد حمل سيفه لحماية البابا الرومانى، مبينا لهم أن الإمبراطور الشرقى لا حق له فى المطالبة بأية أملاك فى إيطاليا؛ لأنه قد تقاعس عن الدفاع عن البابا ضد شوكة العدو اللومباردى من ناحية؛ ولأنه هو وشعبه قد خالفوا مبادئ الكاثوليكية من ناحية أخرى. ويحدد هذا التاريخ بداية السلطان الزمنى لبابوية العصور الوسطى والتى ساهمت مع حلفائها الفرنجة فى بعث ما قد تبقى من حطام رومانى من الأكفان.

توفى الملك پين القصير فى ٢٤ سبتمبر ٧٦٨م، بعد أن قسَّم المملكة بين ولديه كرلومان على النصف الجنوبى، وكارل على النصف الشمالى. ولم يكن الأخوان على وفاق، ولولا تدخل الأم فى أكثر من مناسبة لاشتعلت الحرب بينهما؛ فلقد رفض كرلومان مساعدة أخيه كارل ضد كونت أقطانيا المتمرد. ولما أن تزوج كرلومان من ابنة الملك اللومباردى دزيدريوس واسمها جربرجة، سعى كارل بدوره إلى الزواج من شقيقتها ديزيدراتا حتى لا ينفرد أخوه بالحظوة فى بلاط باڤيا اللومباردى. غير أن البابا انزعج عند سماع تلك الأخبار، فكتب إلى كارل يهمس إليه أن الأميرة ديزيدراتا عقيم عاقر، محذرا إياه من مصاهرة البيت الملكى اللومباردى، ولكن كارل تزوج بالفعل من ديزيدراتا اللومباردية، غير أن همس البابا ظل يستحوذ على عقل كارل، وانتهى الأمر بطرد العروس بعد فترة زواج قصيرة إلى بلاط والدها فى باڤيا. ثم حدث أن توفى كرلومان سنة ٧٧١م فجأة، فهربت أرملته جربرجة وأطفالها إلى بلاط أبيها تشكو إليه من تحرشات كارل، ولتزيد من مشاعر البغضاء بين أبيها وبين كارل.

رفع دزيدريوس (٧٥٦ ـ ٧٧٤م) مظلمة ابنته الأرملة جربرجة وأطفالها إلى البابا هادريان (٧٧٢ ـ ٧٩٥م) طالبا منه إجبار كارل على إعطاء أبناء أخيه المتوفى حقوقهم المشروعة فى مملكة الفرنجة. ولكن البابا لم يكترث بهذا الطلب، فقام الملك اللومباردى بشن حملة على الأراضى البابوية وزحف لضرب الحصار حول مدينة روما.

شارلمان

استنجد البابا بحليفه كارل الذى بادر بإرسال جيشه وحاصر مدينة باڤيا سنة ٧٧٣م، التى استسلمت إليه، ثم قبض على الملك وأودعه أحد الأديرة، فى حين أن ابنه أدلخيس هرب لاجئا إلى القسطنطينية ليتوفى بها بعد بضع سنين. وهكذا وضع كارل نهاية للمملكة اللومباردية وأعلن نفسه ملكا عليها، فى حين حصلت البابوية على نصيبها من الغنيمة بما فى ذلك مدينة راڤنا التى كان البيزنطيون يلحون فى استردادها.

هبة قسطنطين المزيفة

فى هذه الفترة من تاريخ العصور الوسطى الأوروبية ظهرت فى الغرب اللاتينى الوثيقة الشهيرة باسم «هبة قسطنطين العظيم» (Donatio Constantini Magni)، وهى وثيقة مزيفة من الألف إلى الياء، ولا نعرف كاتبها وإن كانت فى أغلب الظن من فعل مسئول فى البلاط البابوى وربما بيد البابا نفسه. ويرجع الفضل إلى اكتشاف زيف هذه الوثيقة التى ظلت مقبولة فى غرب أوروبا على أنها وثيقة أصيلة إلى العلاَّمة الإيطالى لورنتيوس ڤالا فى القرن الخامس عشر، أى فى عصر النهضة الإيطالية.

وتروى هذه الوثيقة المدسوسة أن قسطنطين كان مصابا بمرض عضال هو مرض الجذام، وأن الأطباء وكهنة الأوثان لم يجدوا له علاجا، فأشاروا عليه بأن يجمع عددا من المواليد ليذبحوا ويغتسل الإمبراطور المريض بدمهم كى يبرأ من مرضه. وتمضى الوثيقة لتقول بأن قسطنطين أمر بإعداد عدد من الأطفال الأبرياء الرضع قسرا، رغم ولولة أمهاتهم استعدادا للمجزرة البشعة. غير أن قسطنطين أشفق على هؤلاء الصغار الأبرياء فجأة وأمر بإعادتهم إلى صدور أمهاتهم الملتاعات. وفى هذه الليلة زاره فى المنام القديس بطرس وأرشده إلى المخبأ الذى كان يتوارى فيه البابا الرومانى سلڤستر، وبشره بالشفاء من مرضه إن هو قابل البابا. ولبى قسطنطين النداء فقصد إلى مخبأ البابا سلڤستر الذى رحب بمقدمه وغسله بالماء المقدس وعافاه من مرضه الرجس. ولما أن عوفى قسطنطين من دائه اللعين أراد أن يكافئ البابا على حسن صنيعه له، فقرر أن ينسحب من مدينة روما للإقامة فى عاصمة جديدة فى الشرق، وأن يترك روما وإيطاليا وولايات الغرب جميعا تحت صولجان البابا وحده. كما سمح للبابا أن يقيم فى قصر اللاتيران، وأن يزدان كالإمبراطور بالتاج والعباءة الملكية، وأن يمتطى جوادا أبيض.

إن هذه الوثيقة المزيفة ظلت أهم الركائز التى بُنيت عليها نظرية السمو البابوى روحيا وزمنيا
سور الوسطى!

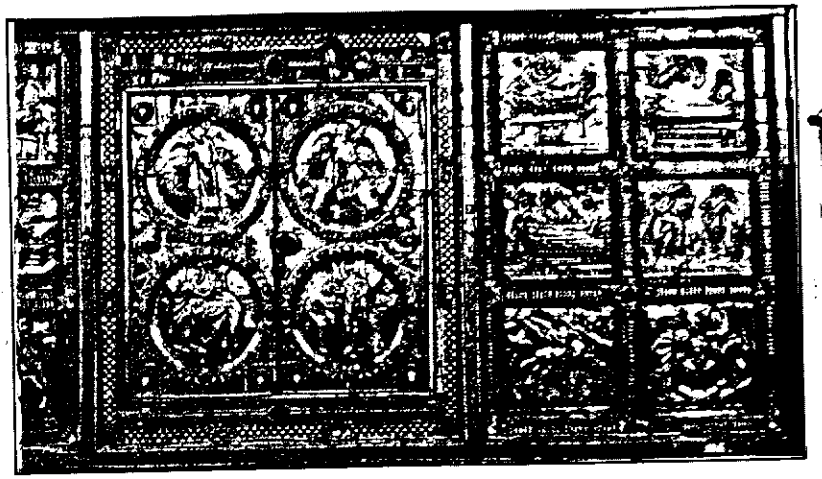

نحت بارز فى باب من الذهب - العصر الكارولنجى

بعد أن قضى كارل على مملكة اللومبارد، اشتبك سنة ٧٧٨م مع عرب إسبانيا فى موقعة سراجوسا، ثم مع قبائل الباسك، حيث كان يعبر جبال البرانس عائدا إلى فرنسا، ثم دخل فى حرب شرسة مع السكسون والباڤار، وأجبر هذه القبائل الوثنية على الدخول فى المسيحية على المذهب الرومانى، وذلك تحت وطأة الحديد والنار. ثم أقام لهذا الغرض عدة أسقفيات فى بلدان مندن، وبادربورن، وفردان، وبرمن، وهالبرشتات، ومونستر، وهامبورج. وعندما تمرد عليه تاسيلو زعيم الباڤار سنة ٧٨٢م، قبض عليه وأودعه وذويه فى أحد الأديرة، ثم مال على بوهيميا وأخضعها لسلطانه. كما شيد كارل أسطولا استولى به على جزر سردينيا وكورسيكا والبليار. وأدخل تعديلا على الأراضى التى اقتطعها من إسبانيا تحت مسمى «المارك» وهو وحدة عسكرية إدارية يحكمها نائب عنه بلقب «مارك جراف»، ومن هذا الثغر بدأت عمليات التوسع جنوبا حتى نهر الإبرو فيما تلا من تاريخ.

وقد كان النجاح حليف كارل فى أغلب هذه الحروب، واتسعت دائرة سلطانه، الأمر الذى أعاد للأذهان ذكريات الأيام الخوالى ومجد الإمبراطورية الرومانية القديم، ومن هنا تولدت فكرة إحياء الإمبراطورية الرومانية فى الغرب، والتى كانت قد سقطت نهائيا سنة ٤٧٦م على أيدى زعيم جرمانى آخر اسمه أودواكر. والحق أن فكرة الإمبراطورية كانت قد طمست فى مخيلة سكان الولايات بعد الغزوات الجرمانية المتكررة والتى نجح زعماء هذه الغزوات فى سلخ تلك الولايات عن الحكومة المركزية وإقامة ملكيات مستقلة عن التاج الإمبراطورى، الذى وإن كان قد سقط فى الغرب إلا أنه ظل ولو من الناحية النظرية قائما على ضفاف البسفور فى روما الجديدة أو القسطنطينية. ولكن كنيسة روما وعلى رأسها البابا قد بقيت صلبة تدلل بمراسيمها وهيبتها

وسطوتها على فكرة الإمبراطورية الضائعة، ولقد أيدها فى هذا الشعور مذهب عقائدى واحد وتماثل فى الطقوس فى شتى أصقاع الغرب اللاتينى. كذلك كان للجالس على كرسى البابوية اليد الطولى فى نشر المذهب الكاثوليكى بين شعوب الغرب الوثنية، فصارت للبابوية هالة روحية كبرى وصار للبابا سمات الكاهن الأكبر على كل كنائس الغرب. ونظرت شعوب

أيقونة بيزنطية

أوروبا إلى البابا على أنه والقانون الرومانى يمثلان الرابطة التى تشد جميع بلدان الغرب اللاتينى تحت لواء واحد، خاصة بعد أن استأصلت شأفة المذهب الأريوسى المخالف بين القبائل الجرمانية الغازية. وعلى هذا باتت كنيسة روما بمثابة الإمبراطورية الروحية الشاملة، على أنه فى نفس الوقت لم يغفل البابوات عن حقيقة أن الإمبراطورية الدنيوية الشرعية التى أرسى قواعدها قسطنطين الكبير كانت ولا تزال قائمة فى بيزنطة؛ ولذا فقد كان لزاما على

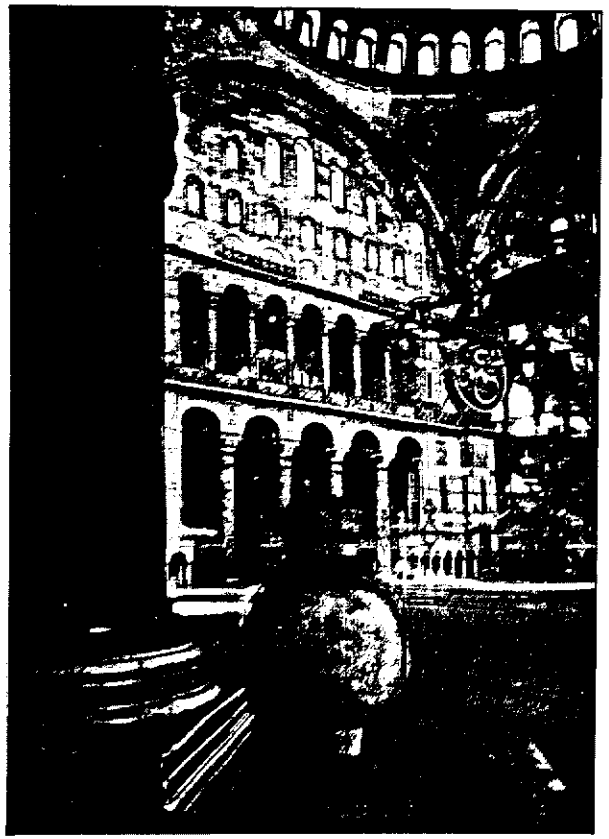

كنيسة «آيا صوفيا» القسطنطينية من الداخل

الجالس على كرسى البابوية أن ينظر فى حذر إلى الجالس على عرش قسطنطين العظيم، فهو الرأس الأكبر لهذا الجسد الدنيوى.

غير أن البابوات كانوا قد امتعضوا من مواقف كنيسة بيزنطة ومن أباطرتها أيضا؛ فلقد أهين بابوات كثيرون، ونُكِّلَ ببعضهم ونُفوا عن كراسيهم بسبب استبداد إمبراطور القسطنطينية، كما وأن سلسلة من البدع والهرطقات وتحطيم الأيقونات فى النصف الشرقى من الإمبراطورية قد سببت آلاما مبرحة للبابوية فى روما، ناهيك عن مزاعم بطريرك القسطنطينية الذى لم يكف عن زعمه بأنه صنوٌ للبابا الرومانى. وأهم من هذا وذاك فإن صرخات البابوية المتكررة للنجدة لم تجد آذانا صاغية فى القسطنطينية عندما كان اللومبارد وغيرهم من الأعداء يضمرون الشر للبابا ويتربصون سوءا للبابوية.

والحق أن الإمبراطور البيزنطى كان منصرفا إلى دفع التهديدات التى لم تنقطع عن حدود إمبراطوريته الشرقية تارة مع الفرس وأخرى مع العرب وثالثة مع السلاف والآفار، وعليه فإن الإمبراطور الشرقى بدا عاجزا العجز كله عن أن يمد يد العون للبابوية ولروما فى وقت محنتها. كذلك كانت التقاليد فى النصف الشرقى للإمبراطورية منذ عهد قسطنطين الكبير (٣٢٤ ـ ٣٣٧م) أن يضطلع حامل التاج بمهمة حماية العقيدة من مخالب الهراطقة، ومن ثم كان يرأس جميع المجامع المسكونية الخاصة بالجدل اللاهوتى، كما أن بطريرك بيزنطة كان يخضع لمشورة الإمبراطور إن لم يكن لأوامره، بل وكان من حق الإمبراطور أيضا أن يخلع من البطارقة من يشاء وأن يرفع على عرش أيا صوفيا من يشاء أيضا، ولقد انزعجت البابوية تماما بل واستنكرت هذا التدخل العلمانى البغيض فى شؤون كان البابا يرى دوما أنها من صميم اختصاصه هو فقط كرأس للكنيسة المسكونية غربا وشرقا، وكصاحب الحق الأوحد فى «الحل والربط». كذلك عندما احتدم الجدل حول الأيقونات وأخذ الأباطرة الأيسوريون فى بداية القرن الثامن فى تحطيم الأيقونات على أنها أصنام وهدد هؤلاء الأباطرة بالزحف غربا لتحطيم أيقونات الكنيسة الرومانية فى عقر دارها، فزع البابوات من هذا التهديد، وأيقنوا أن الجالس على عرش قسطنطين قد تردى فى الكفر، فكتب البابوات تباعا إلى أباطرة القسطنطينية الأيسوريين بحقيقة مشاعرهم، منذرين بأنه إن هم اقتربوا من أيقونات روما وحرماتها المقدسة، فإن شعوب الغرب قاطبة وعلى رأسهم جماعة الفرنجة فى غالة سوف تحمل دروعها وسيوفها للزود عن السيد البابا وعن الأيقونات المقدسة فى بيوت العبادة فى روما.

ومن الحقائق الهامة التى ينبغى ملاحظتها فى هذا الصدد أن مراكز الفكر اللاهوتى فى القرن الثامن قد انتقلت من الإسكندرية وأنطاكية وبيت المقدس إلى مراكز جديدة فى غالة وبريطانيا

وإسبانيا، وهكذا فإن الإلهام العقائدى الذى كان يفد من الشرق قد نضب، ولم يعد يفد ـ فى نظر الرومان ـ من المشرق إلا سلسلة من الهرطقات والتجديف والتطاول على أيقونات القديسين وآثارهم. كذلك فإن الغرب اللاتينى قد أنجب علماء لاهوتيين أمسوا يغذون الخاصة والعامة بغذاء روحى لاتينى جديد بدلا من السفسطة اليونانية العقيمة، وأصبح فى مقدور روما أن تفاخر برجالاتها من أمثال جيروم، وأمبروز، وأغسطينوس، وجريجورى الكبير، وكولومبا، وبونيفاس وغيرهم كثيرين. كما أن عدة مراكز ثقافية قد ترعرعت فى الغرب الأوروبى وأصبحت منارات للعلوم اللاهوتية والفلسفة الأفلاطونية، ولم يعد هناك مبرر فى الغرب لتلقف ما يتساقط من على موائد الإسكندرية وأنطاكية وغيرهما من مراكز الثقافة القديمة، خاصة بعد أن انسلخت هذه المراكز عن جسد الإمبراطورية بعد الفتح العربى. وراح الرومان ينظرون فى القرن الثامن إلى مدارس باريس، وتور، وريمز، وكانتربرى، ويورك، ومينز، وكولون ليتلقوا عنها المفاهيم اللاهوتية الصحيحة بلسان يفهمونه.

من هذا السياق كله فإن البابوية أخذت تفكر جديا فى التمرد على الإمبراطور الشرقى أو «اليونانى»، وفى البحث عن بديل كاثوليكى قوى فى الغرب يشد أزرها ويبسط عليها الحماية، حتى وإن كان من دم جرمانى، شريطة أن يكون هذا البديل قد تشرب بالعقيدة الكاثوليكية وتأثر بالتقاليد الرومانية. ولقد وجدت روما ضالتها فى الجالس على عرش الفرنجة فى غالة، فى شخص كارل الحليف المخلص الذى نجاها من مخالب اللومبارد والذى نشر لواء الكاثوليكية بحد السيف بين السكسون والباقار الوثنيين وبين العناصر السلافية التى سيطرت على وسط أوروبا.

هذا، وقد ظهر فى مدينة روما حزب قوى راح يفكر جديا فى إعادة الأمجاد القديمة إلى العاصمة القديمة التى كانت ذات يوم سيدة حوض البحر الأبيض المتوسط جميعا، إلا أن أعضاء هذا الحزب كانوا ساخطين على شخص البابا الجالس على العرش البابوى آنذاك ألا وهو البابا ليون الثالث؛ بسبب طبعه الاستبدادى وتسلطه على شعب روما، وبسبب بعض الشبهات التى حامت حول ثرواته المتضخمة هو وأفراد عائلته؛ ولذلك فإنه فى سنة ٧٩٨م ثار أعضاء هذا الحزب على البابا وأوقعوا به فى أحد شوارع روما وطرحوه أرضا من على ظهر جواده، ثم أوسعوه ضربا ولكما، وقيل: إنهم قطعوا جزءا من لسانه! غير أن البابا قد نجح بمعونة أحد أفراد حاشيته فى الهرب من روما إلى غالة يستصرخ حليفه كارل ملك الفرنجة لنجدته. ولقد استقبل كارل البابا الهارب فى معسكره فى بادربورن، وبادر بإعادته إلى روما مكرما تحت حماية فرقة فرنجية. وبعد قليل قدم كارل بنفسه إلى المدينة العظمى ليحسم الموقف، فعقد محكمة مثل أمام قضاتها كل من البابا ليون الثالث وخصومه، وأقسم البابا أنه برىء من الاتهامات التى وجهت إليه. وقضى العاهل

الفرنجى كارل ببراءة البابا، وأودع جميع خصومه فى السجن تحت تهديد السيوف والخناجر.

تتويج شارلمان إمبراطور رومانيا

ثم حلت ليلة عيد الميلاد لسنة ٨٠٠م وامتلأت كاتدرائية القديس بطرس بالمصلين، وأيضا بعدد وافر من ضباط كارل الفرنجى المدججين بالسلاح. وبينما كان كارل يركع للصلاة إذ بالبابا ليون الثالث يطل على القوم ممسكا بتاج ذهبى ويضعه على رأس العاهل الفرنجى، ثم انحنى له وفق عادات القدامى، وسط صياح الجميع فى صوت واحد بلاتينية رصينة: «إلى كارل العظيم ـ الأغسطس المتوج من قبل الله ـ ناشر السلام ـ إمبراطور الرومان ـ له الحياة والنصر وطول العمر». !!

وهكذا أصبح كارل الفرنجى هو كارل العظيم (Karolus Magnus) أو شارلمان، وهو الذى بُعثت على يديه الإمبراطورية الرومانية من الأكفان. ورغم مزاعم إينهارد كاتب سيرة شارلمان بأن سيده قد فوجئ بالتاج الرومانى، إلا أن الدلائل جميعا تؤكد أن شارلمان كان راغبا الرغبة كلها فى أن تزدان رأسه بتاج أغسطس، فنحن نعلم أنه قبل التتويج بوقت وجيز كان قد أرسل سفراءه إلى

(التتويج) تصوير جدارى

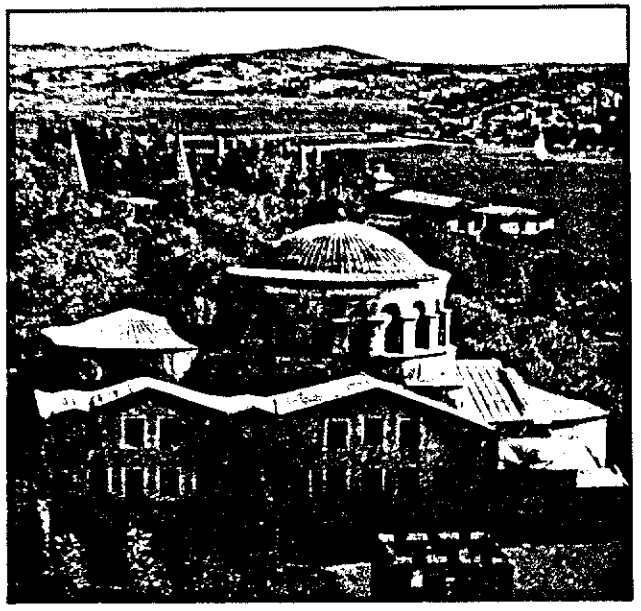

كنيسة إيرينى - القسطنطينية

بلاط القسطنطينية ليطلب يد الإمبراطورة الأرملة إيرينى الجالسة على العرش وصية على ابنها القاصر فى الزواج. وليس بمستبعد أن يكون قد طرح على إيرينى مسألة الاعتراف به إمبراطورا

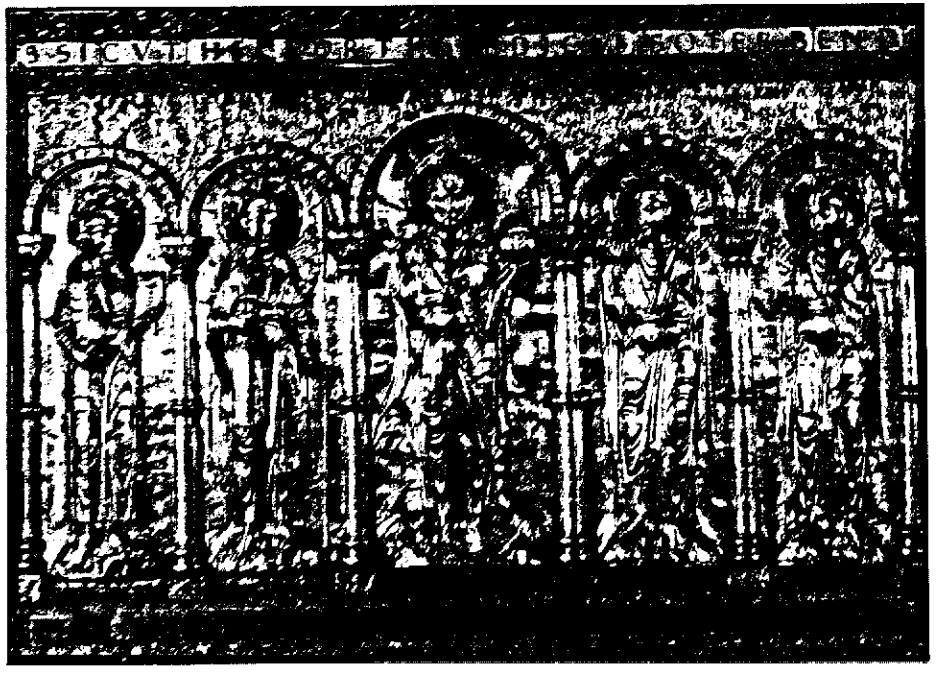

نحت بارز ذهبى - العصر الكارولنجى

على النصف الغربى جنبا إلى جنب معها، مثلما كانت الحال فى القديم عندما كان للإمبراطورية سيدان، واحد فى روما القديمة، وآخر فى روما الجديدة. ونجد فيما كتبه واحد من رجالات بلاط شارلمان وهو العالم الإنجليزى ألكوين (Alcuin) ما يلقى المزيد من الضوء على هذا التوجه؛ فهو يقول بأن العالم تحكمه قوى ثلاث: البابوية فى روما وهى التى تمّ إنقاذها من الضياع بفضل همة شارلمان وحسن صنيعه؛ والإمبراطورية الشرقية فى القسطنطينية وهى التى صارت أمورها تدعو إلى الأسى والشعور بالعار؛ ثم الإمبراطورية التى بعثت من الأكفان على يد شارلمان فى الغرب وهى أفضل هذه القوى جميعا، حيث تسود العدالة وتستأصل شأفة الشرور وترفع أركان الخير والفضيلة.

هذا، وقد كانت لدى البابوية أسباب عدة للإقدام على نقل التاج الإمبراطورى من على رأس صاحبه الشرعى خليفة قسطنطين الكبير إلى رأس زعيم فرنجى ينتمى إلى جموع المتبربرين. وفى مقدمة هذه الأسباب حقيقة أن حامل التاج الشرعى فى القسطنطينية آنذاك كان صبيا قاصرا عاجزا فقد بصره على يد والدته إيرينى التى سملت عينيه لكى تزيحه عن العرش وتجلس هى بدلا منه بمفردها، وهذه سابقة شاذة فى التاريخ الرومانى؛ لأن الناس لم يألفوا أن يروا امرأة ترتدى عباءة أرجوانية. والأدهى من هذا أنها حملت لقب «بازيليوس» أى «صاحب الجلالة» وليس لقب «بازيليسا» أى «صاحبة الجلالة». كذلك لم تكن الكنيسة الرومانية على استعداد لأن تغفر لإيرينى جريمتها النكراء ضد ابنها القاصر، ومن ثم فإن إيرينى بفعلتها البشعة التى استاء منها البيزنطيون أشد الاستياء تكون قد سهلت على كل من البابا وحليفه شارلمان إيجاد الذريعة لإتمام هذه الدراما فى كاتدرائية القديس بطرس فى روما. ومع أن إيرينى كانت قد أعادت عبادة الأيقونات فى مجمع نيقيا المسكونى السابع سنة ٧٨٧م، إلا أن الأسرة التى كانت تنتمى إليها وهى الأسرة الأيسورية كانت قد لطخت سيرة الأسرة برمتها بوصمة الهرطقة والتطاول على المقدسات والآثار الكنسية القديمة، وذلك بطبيعة الحال من وجهة نظر الغرب اللاتينى.

كذلك كان البابا ليون الثالث مدركا لحقيقة أن الجالس على عرش القسطنطينية، حتى يوم أن كان رجلا وليس امرأة، كان عاجزا كل العجز عن تقديم الحماية للبابوية ضد مخالب العدو اللومباردى فى شمال إيطاليا، بل إن وقتا قد جاء حينما عقدت بيزنطة وركيزتها إكزارخية راڤنا فى إيطاليا حلفا مع العدو اللومباردى ضد البابوية ذاتها. وكانت الحجة القوية لدى الحزب البابوى أنه طالما أن الإمبراطور الشرقى عاجز عن الدفاع عن رعاياه فى روما، فإنه من حق هؤلاء الرعايا أن ينقلوا ولاءهم لمن يستطيع بسط الحماية عليهم. ولم يكن هنالك على الساحة من يستطيع القيام بهذا الدور سوى شارلمان الزعيم الفرنجى المرموق. وعلى ثقل هذه الحجج والأسانيد أقدم البابا ليون

الثالث فى جرأة نادرة هو وكرادلته على التفرقة بين الخيال النظرى (De Jure) وبين الواقع العملى (De Facto)، فقرروا تتويج شارلمان إمبراطورا للرومان.

يضاف إلى هذا أن الشعور المتحفز فى روما القديمة كان شعورا لا يخلو من الغيرة من تلك المدينة الواقعة على البسفور والمسماة بروما الجديدة والتى لم تكن فى نظر الرومان أكثر من مدينة محدثة النعمة. كذلك لم يغفر البابوات لبيزنطة أطماعها فى منازعة روما فى حقوق الإمارة على الكنيسة العالمية غربا وشرقا، تلك الأطماع التى وضحت فى جلسات المجامع المسكونية السبعة المتتابعة. لقد كان لروما دوما الحق فى انتخاب الإمبراطور وتتويجه، فهى العاصمة الأولى للإمبراطورية دون نزاع، فكيف تستحل بيزنطة لنفسها اغتصاب هذه الحقوق التليدة؟ لقد حان الوقت لروما كى تسترد حقوقها المغتصبة، ولم يكن هناك سبيل لتحقيق ذلك إلا بأن تنفض روما عن كاهلها ذاك العبء البيزنطى «المتأغرق» الكريه، وذلك بأن تلتمس لنفسها إمبراطورا قويا يجاورها جغرافيا ويؤازرها فى الغرب اللاتينى. كما وأن البابا قد رأى بنفسه أن شارلمان هو رجل البابا الأول فى الغرب الأوروبى، وهو الذى نشر العقيدة الكاثوليكية بحد السيف، وهو الذى حفظ للبابوية كرامتها وحقوقها الدنيوية مثلما فعل والده پين القصير وجده كارل مارتل من قبله.

يضاف إلى هذا أن البابوية كانت ترغب فى مقاومة توجهات الحزب الجمهورى فى روما الذى كان يسعى لإقامة «قوميون» (Commune) فى المدينة يتحرش بالمصالح البابوية، ولكى تؤمن البابوية نفسها تماما كان لا بد من إيجاد حليف قوى يرهب هذ الحزب الجديد. وليس بمستبعد أن يكون البابا ليون الثالث قد تدارس الموقف من كل جوانبه مع مستشارى شارلمان أثناء وجودهم فى روما، وأيضا مع بعض مواطنى المدينة من جماعة السيناتوريين وبعض الأسر النبيلة، ذلك أنه لا يمكننا أن نتصور إقدام ليون الثالث على هذا العمل الخطير (التتويج) دون أن يكون قد ضمن تأييدا كافيا لمشروعه من جانب أغلبية من شعب روما.

أرسل شارلمان سفراءه إلى البلاط البيزنطى ليبلغوا السلطات هناك أن سيدهم قد توج إمبراطورا للرومان، وكان القصد من هذه السفارة الوقوف على ردود الفعل فى القسطنطينية. ولقد أبدت إيرينى غضبا شديدا من فعلة البابا وحليفه «المتبربر» شارلمان، واعتبروا ذلك اغتصابا للقب والتاج؛ إذ إن الإمبراطورية كانت قائمة بعاصمتها وجيوشها ومجلس شيوخها وكامل أجهزتها على ضفاف البسفور. واتهم البيزنطيون البابا ليون الثالث بأنه كاهن آثم قد تآمر ضد الحقوق الشرعية لخلفاء قسطنطين العظيم. كذلك قام الأسطول البيزنطى بمهاجمة الشواطئ الإيطالية لتخويف شارلمان، ونشطت الأحزاب الموالية لبيزنطة فى إيطاليا خاصة فى مدينة البندقية، كما تلقى شارلمان إهانات بالغة فى رسائل مرسلة من الجالس على عرش القسطنطينية. ولكن شارلمان لم يكن بحال

ليتخلى عن اللقب والتاج. وأخيرا، فى سنة ٨١٢م عقد الإمبراطور البيزنطى الجديد ميخائيل رانجابيه صلحا مع شارلمان واعترف به إمبراطورا على الغرب.

بعد أن اعترفت بيزنطة بشارلمان إمبراطورا لم يفكر فى اتخاذ خطوات عدائية ضدها، ولكن أهل روما لم يشعروا بالارتياح لهذا الموقف الودى؛ ذلك أن البابا وأتباعه قد ظنوا أنهم بهذا التتويج قد أنفذوا انقلابا خطيرا، وبأنهم قد خلعوا الإمبراطور البيزنطى نهائيا، وأعادوا السيادة الإمبراطورية غربا وشرقا إلى إمبراطور واحد فى الغرب اللاتينى؛ ولذا فإن قوائم الأباطرة فى سجلات روما تسجل اسم شارلمان خلفا مباشرا للإمبراطور البيزنطى قسطنطين السادس (الذى خلعته أمه إيرينى عن العرش بعد أن سملت عينيه)، وتضفى هذه السجلات على شخص شارلمان نفس الشرعية التى كان يتمتع بها أغسطس وقسطنطين العظيم، وكان البابا يعتقد اعتقادا راسخا أن شارلمان هو أصلح الأمراء فى الغرب لحمل التاج الرومانى، ولم يكن هنالك فى الغرب من هو أهم من رأس الكنيسة الرومانية ليقنع الناس بهذا التغيير فى نقل التاج.

شارلمان

لقد أبرز ليون الثالث تاجا ووضعه فى حفل مهيب على رأس الزعيم الفرنجى، ولم يكن من حق البابا أن يقتنى تاجا ولا أن ينعم به على أحد. ونحن لا نعلم من أين حصل البابا ليون على التاج أصلا. على أنه ينبغى القول بأن ليون الثالث قد استند فى فعلته على موقعه كجالس على عرش الكاهن الأكبر، وعلى الهالة التى كانت تحيطه بمدينة روما، وأيضا على الشعور السائد فى الغرب اللاتينى آنذاك. ولولا أن البابا كان مطمئنا إلى أن ما سيقوم به سوف يقابل بالارتياح فى الغرب لما أقدم عليه.

كان هذا موقف الحزب البابوى، أما الحزب الإمبراطورى، فقد جاهروا صراحة بأن سيدهم شارلمان قد اكتسب التاج الرومانى بحد السيف، ومن ثمَّ فهو ليس مدينا لأحد بهذا التاج؛ لأنه جائزة كفاحه. والحق أن هذا التفسير هو أوقع التفسيرات وأقربها إلى منطق الواقع، فلولا الفتوحات الضخمة التى حققها

شارلمان بحد السيف، لما فكر فيه أحد كإمبراطور.

على هذه الشاكلة أعيد إحياء الإمبراطورية الرومانية فى الغرب اللاتينى بعد أكثر من ثلاثة قرون ونصف من سقوطها على أيدى الجرمان، ولقد أحدث تتويج شارلمان تغيرات خطيرة فى خريطة أوروبا، ومن أبرز هذه التغيرات الصراع الذى اندلع بين خلفاء شارلمان بين الأباطرة وبين البابوية، إذ برز على المسرح السؤال الخطير؛ أيهما أسمى مقاما: هذا الذى يمنح التاج أم ذاك الذى يتلقى التاج؟ وأى السلطتين هى الأسمى: السلطة

يد القدرة - العصر الكارولنجى

كنيسة آخن

الدنيوية (Regales) التى يمثلها الإمبراطور، أم السلطة الروحية (Sacerdos) التى يمثلها البابا؟ كذلك كان من نتائج التتويج أن ضُمت إيطاليا وألمانيا فى إطار إمبراطورى واحد، الأمر الذى جر الخراب على كل من الإيطاليين والألمان جميعا، فقد ظلت إيطاليا عبئا على كواهل الأباطرة الألمان سبعمائة عام تقريبا، كما هلك من الدسائس وبعوضة الملاريا الإيطالية عدد وافر من الأباطرة الألمان. كما أن سلسلة من البابوات قد هلكوا أيضا فى زخم هذا الصراع. ويقال: إن بعض الأباطرة الألمان قد ماتوا بالسم الذى دسه لهم الإيطاليون المتمردون ليتخلصوا منهم.

أما ألمانيا فبدلا من أن تتجه إلى تأمين رقعة أراضيها على الجبهة الشرقية، فإنها أرهقت مالها ورجالها فى حملات مضنية عبر جبال الألب لترويض هذا «التنوء» السياسى فى شبه الجزيرة الإيطالية، وفى مملكة صقلية وفى الجنوب الإيطالى. ولكم أضاع الأباطرة الألمان زهرة شبابهم وهم يلهثون من سكسونيا أو باڤاريا إلى روما أو كانوسا أو كلابريا أو پالرمو على حساب مصالح وهيبة التاج الألمانى، الأمر الذى جعل الإقطاع يعمق جذوره فى تربة ألمانيا تحت إمرة الأدواق الأربعة فى سكسونيا وباڤاريا وسوابيا وفرنكونيا. ولا نبالغ إن قلنا أن إحياء الإمبراطورية الرومانية على يد شارلمان سنة ٨٠٠م قد جعل الاتحاد الألمانى والوحدة الإيطالية حلما بعيد المنال لم يتحقق حتى حلول أواخر القرن التاسع عشر.

استحدث شارلمان بعض النظم التى تليق بخليفة الأباطرة الرومان، فأصدر مراسيم عامة طبقها على كل رعاياه دون تفرقة، وكلف مبعوثيه (Missi Dominici) الخاصين بمراقبة تنفيذ هذه المراسيم ومعاقبة من يسيء استخدامها من الكونتات والأفصال. كذلك عقد المجالس التى كانت تضم كبار رجال الدين ونفرا من وجهاء العلمانيين لتنظيم شئون الكنيسة. وكان على المبعوثين أن يوافوا الإمبراطور بتقارير مفصلة عن تنفيذ أوامره وتوجيهاته. ولم يكتف شارلمان بإصدار القوانين بل اضطلع أيضا بمهمة القاضى الأكبر فى الإمبراطورية، وأعطى لنفسه الحق فى الفصل فى أية قضية، وكان حكمه فيها نهائيا، هذا، إلى جانب حقه فى النظر فى قضايا الجرائم الكبرى، كما كان من حق المتخاصمين من علية القوم استئناف النظر فى قضاياهم أمام محكمته، سواء أكانت هذه القضايا مدنية أم كنسية.

تركزت حكومة شارلمان لإمبراطوريته الواسعة فى بلاط قصره (Palatium) فى عاصمته إكس ـ لا ـ شاپل (آخن). وكانت سياسة الإمبراطورية تُرسم فى هذا القصر بواسطة شارلمان نفسه مستعينا بمجلس خاص يتكون من خلصائه ومستشاريه. كذلك كان القصر بيتا للمال، ففيه توجد

الخزانة الإمبراطورية، وإليه كانت تعود الضرائب من الأفصال والعوائد من الأتباع والمكوس من التجار والهدايا من متملقى حامل التاج من مختلف الطبقات، إلى جانب رسوم النظر فى القضايا والأموال المصادرة والغرامات والجزية المفروضة على الشعوب المغلوبة وغنائم الحرب من ذهب وفضة وحرائر ثمينة ومجوهرات ومقتنيات نادرة.

وكانت نفقات القصر ومصروفات إقامة الحفلات واستقبال الضيوف والسفراء تدبر من دخول الضياع الإمبراطورية المنتشرة فى سائر أرجاء الإمبراطورية. ولقد ورث شارلمان هذه الضياع من الملوك الميروڤنجيين، ومع أنه وهب بعض هذه الأراضى للكنائس والأديرة، إلا أن هباته كانت ضئيلة إن هى قيست بالهبات التى أنعم بها الملوك الميروڤنجيين على بيوت العبادة والأديرة من قبل.

كذلك كانت هذه الضياع تمد القصر الإمبراطورى بالغلال والثيران والخنازير والأبنذة والجعة وزيت الزيتون والأسماك إلى جانب الخيول لإسطبلاته الكبيرة. وقد جلبت فتوحات شارلمان إليه ضياعا أخرى كثيرة فى لمبارديا وسكسونيا وباڤاريا، وقد أقطع الإمبراطور هذه الأراضى الجديدة لأفصاله المقربين ولكبار موظفى بلاطه.

وكان شارلمان محبا للبناء والمعمار، فشيد كنائس كبيرة أشهرها فى آخن وهى التى دفن فيها، كما شيد قصرا رائعا فى عاصمته وآخر فى مدينة إنجلهايم، وثالثا فى مدينة نجميجن، كما أقام قنطرة على نهر الراين عند مدينة مينز. وكان مهندسو شارلمان من الإيطاليين المهرة الذين أبقوا فى العمارة على أسلوب المدرسة البيزنطية بطرزها الجميلة من الفسيفساء.

النهضة الكارولنجية

ولعل أهم جهود شارلمان تتمثل فى برنامجه الطموح من أجل إحياء الحياة الأدبية والتعليمية، وهذا ما يطلق عليه عادة اسم «النهضة الكارولنجية»، فلقد استقدم شارلمان إلى بلاطه نفرا من مشاهير العلماء من مختلف البلدان الأوروبية وهم الذين ساهموا فى إقامة «مدرسة القصر» (Scola Palatina).

ولقد اتخذ كل من هؤلاء لنفسه اسما كلاسيكيا شمل فيما شمل اسم هومر نفسه. ولقد اهتم الشعراء فى مدرسة القصر بالشعر اللاتينى الكلاسيكى، بينما اهتم آخرون بالنثر والخطابة، واشتغل فريق ثالث بالتاريخ والأساطير. ومن بين الأساتذة الذين استعان بهم شارلمان فى نهضته: الكوين الإنجليزى الذى كان شاعرا متأثرا بأشعار فورتيناتوس، ولهذا الإنجليزى النابه عدة قصائد بعضها يتناول أحداثا تاريخية قديمة وبعضها عن سير القديسين، بينما يعالج البعض الآخر تاريخ

بعض المدن مثل مدينة يورك ومدينة لندرقان. ومن أشهر قصائد ألكوين تلك المساجلة بين الشتاء والربيع، وهى من النمط الشائع آنئذ فى الأوساط الثقافية الأنجلو ـ سكسونية. ولألكوين أيضا مجموعة ضخمة من الرسائل النثرية التى تميل إلى الأسلوب الخطابى، ومن بينها رسالة إلى صديقه أرنو أسقف ستراسبورج تخلو من التكلفة والصنعة.

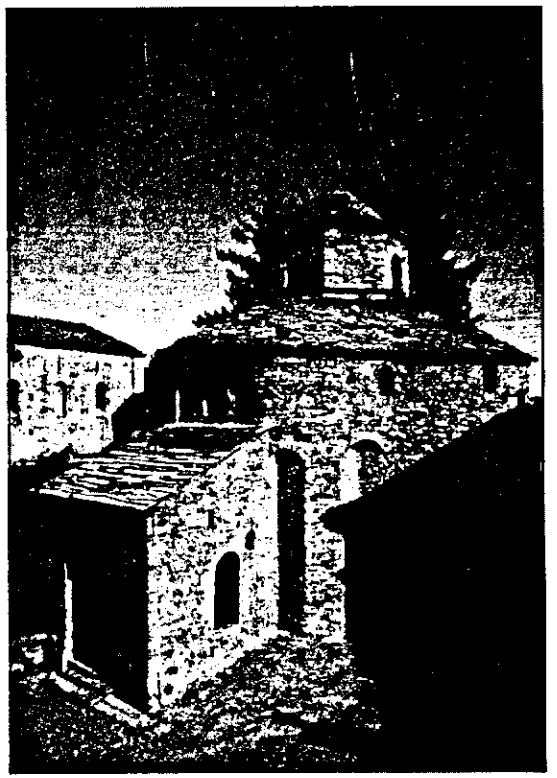

كنيسة كارولنجية

ومن أعلام هذه النهضة أيضا ثيودلفوس أسقف مدينة أورليان وهو قوطى الأصل، وكان بمثابة الشاعر الأول فى البلاط، وقد تميز أسلوبه بالوقار والشجاعة وقولة الحق. ونجده فى إحدى قصائده المطولة يقدم النصح لقضاة الفرنجة وينهاهم عن الرشوة من ذهب مغربى وجلد قوطى وكئوس فضية مزينة. ويذكر أن هذا الشاعر قد تعرض فى شيخوخته لاضطهاد من قبل لويس التقى ابن شارلمان الذى ألقى به فى السجن واتهمه بالخيانة. ومن وراء القضبان راح الرجل الكهل يتذكر الشاعر أوفيد وينهل من أفكاره، فصوّر لنا ربة الحكمة وهى تتبنى قضيته وتدافع عنه وتطلب براءته. وقد تميز هذا الشاعر الشجاع بالنزاهة وحب الحق، فهاجم نفاق رجال القصر ورذيلة التملق التى كانت متفشية فى البلاط، كما أنه استخف بالألقاب التى خلعها الأساتذة على أنفسهم وعلى سيدهم الإمبراطور، فلقد أسموا شارلمان باسم «داود» وآخر باسم «هومر»... إلخ.

ومن أعلام المدرسة أيضا مؤرخ لومباردى اسمه بولس الشماس الذى كان قد أمضى بعض الوقت فى دير مونت كاسينو فى إيطاليا بعد سقوط مملكة اللومبارد فى أيدى شارلمان، ولكن شارلمان دعاه للإقامة فى بلاطه ليفيد من علمه وقلمه. وفى أواخر سنى حياته عاد بولس الشماس إلى حياة الديرانية، حيث سجل «تاريخا للومبارد» إلى جانب حولية «للتاريخ العام» أكمل بها ما

كان قد بدأه المؤرخ الرومانى يتروبيوس من قبل، كما كتب سيرا لبعض الأساقفة وللبابا جريجورى الكبير. وكتاب بولس الشماس عن اللومبارد سجل تاريخى فى قصده ولكنه ملىء بالأقاصيص والأحاجى الخيالية المختلطة بين الواقع والميتولوجيا التيوتونية وأدب البطولة، وقد وضح هذا بشكل خاص فى تناوله لحياة كل من الملكين ألبوين وكوثنبرت.

أما أشهر مؤرخى عصر شارلمان على الإطلاق فهو إينهارد صاحب «سيرة شارل العظيم» (Vita Caroli Magni). وبمقارنة مؤلف إينهارد هذا بما ورد فى تاريخ بولس اللومباردى نتبين الفرق الشاسع بين شطحات الخيال عند الشماس وبين التأمل الواعى عند إينهارد، تماما كما نلمس نفس الفرق بين خيال هيرودوت فى «تواريخه» وبين دقة ثيكوديديس فى «حرب البلوبينيز» مثلا. لقد وضع إينهارد نصب عينيه وحدة محددة ذات نسب وأبعاد كان مدركا لمداها، ومن هذا المنطلق أخذ يسجل أحداثا تاريخية، مقدرا أهمية الخط العلمى عند كتابة التاريخ. والحق أن الرجل كان قد أفاد الكثير من طرائق القدامى وقواعدهم فى التأليف قبل أن يمسك بقلمه ويخط سيرة شارلمان، فهو لا يقتبس عن القصص الخرافية والمغامرات فى حياة بطله، على الرغم من إعجابه الشديد بشخص شارلمان وإعجاب شارلمان نفسه بهذا النمط من القصص البطولى، بقدر سعيه نحو رسم صورة موضوعية صادقة لعصره ولرجالات العصر، مسترشدا فى منهجه بكتابات ثيوتونيوس. وإينهارد من أصل فرنجى من بلدة «مين»، وقد تلقى تعليمه فى دير «فولدا»، ثم أرسله مقدم الدير هدية إلى بلاط شارلمان فلقى من الأخير كل الترحيب والإعجاب. والقارئ لكتابات إينهارد يلاحظ أن الرجل لم يلتقط من التراث الأسطورى التيوتونى والحكايات المتبربرة (Barbara et antiquissima Carmina) إلا ما يعينه على تفهم سمات البطل وسلوكياته فى واقعة بعينها، خاصة فى مهمة القتال ومواقف البطولة. وإينهارد بعد هذا ينفر بطبعه من أدب الملاحم والأناشيد، فهو مثلا عندما يعرض لمعركة جبال البرانس بين مؤخرة جيش شارلمان وقبائل الباسك والتى سقط فيها البطل الفرنجى رولان ورفاقه: إيجهارد ساقى الملك، وأنثلم كونت البلاط وغيرهم، فإنه يكتفى بتسجيل الأحداث فى وقار وصدق المؤرخ ووضوح الرؤية، وقد حرر ذهنه من انفعالات وخيالات العصور الوسطى.

إن هذه المدرسة الكارولنجية بعمدها من جنسيات أوروبية متنوعة كانت بمثابة الشعلة التى بددت بعضا من ظلام العصور الوسطى، وكانت تعتمد أساسا على بعث التراث الرومانى القديم من الأكفان. ومن الأشياء الأخرى التى أولاها شارلمان كبير الاهتمام تلك الضحالة الثقافية لدى رجال الدين فى القرن الثامن، وأغلاطهم الفاحشة فى النحو والصرف والأسلوبية. ويتضح ذلك من واقع

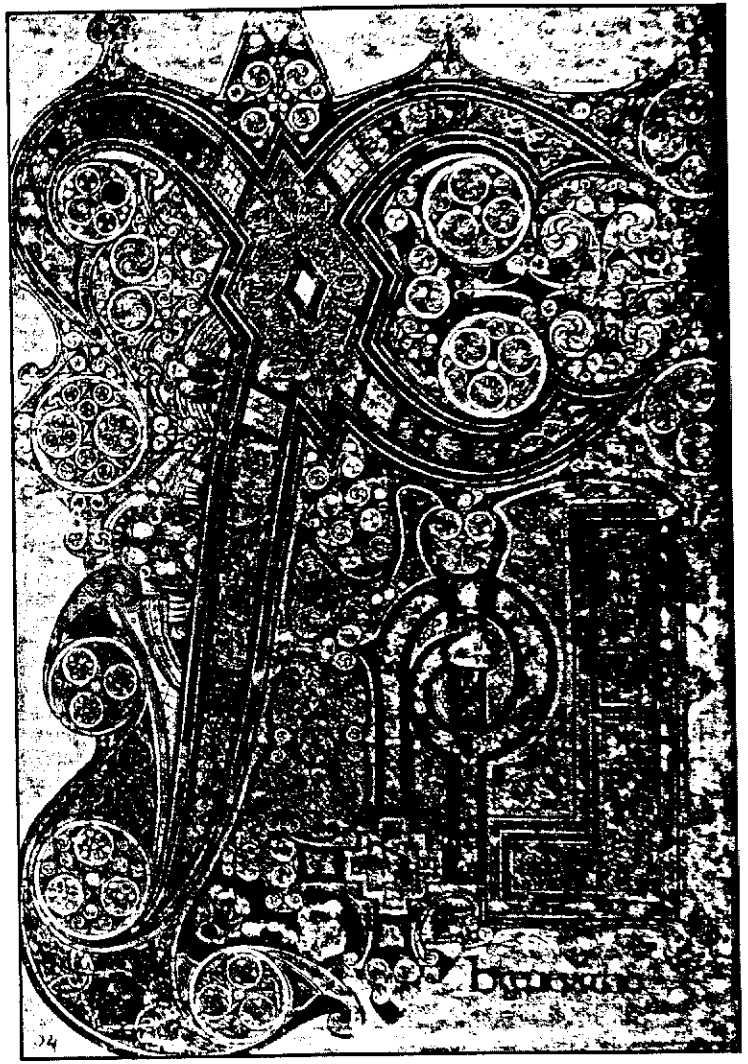

مخطوط من العصر الكارولنجى

الرسائل التى كتبها بعض هؤلاء إلى البلاط الإمبراطورى، والمعروف أن شارلمان نفسه كان أميا لا يجيد الكتابة؛ ولذا فإنه كان يجلس فى قاعة الدرس فى القصر مع أبنائه وبناته يتعلم قواعد اللغة اللاتينية الصحيحة فى صبر زائد. ولكى يعالج النقص المعيب فى رجال الدين فى مجال اللسان القويم فإنه أمر بأن تعد عدة مواعظ سليمة الأسلوب والآجرومية وتوزع على كهنة الأبروشيات ليستفيدوا منها فى مواعظهم. كذلك أنشأ العديد من المدارس الكاتدرائية فى كل من ريمز وأورليان إلى جانب عدد آخر من المدارس فى البيوتات الديرانية فى سانت جال، وتور، وريشينو، وفولدا،

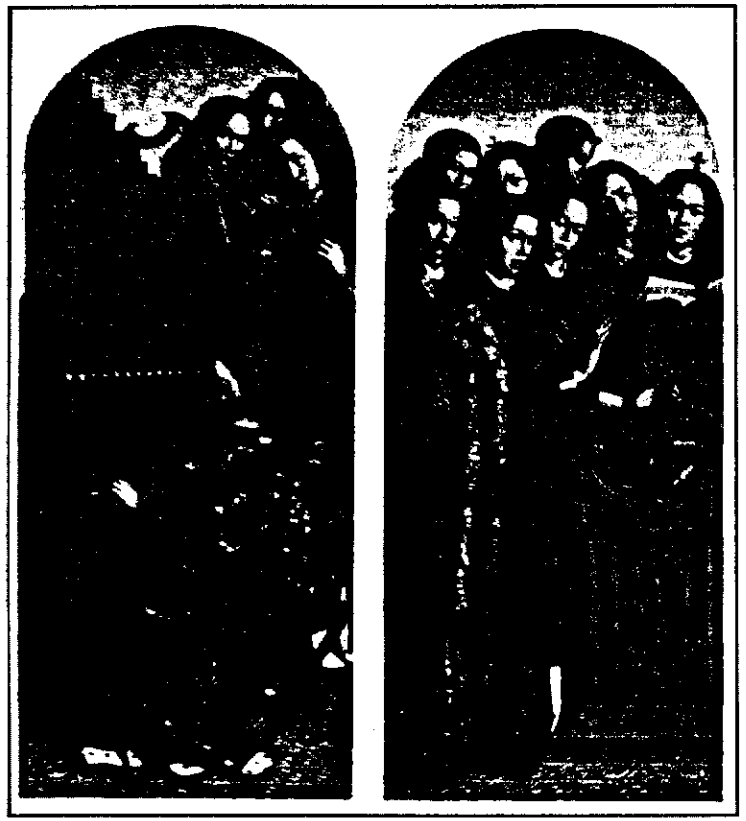

آلة الأرغون

وهرزفيلد، وكورفى، وهرشو. وكان الهدف من هذه المدارس تخريج الكهنة المتعلمين، إلى جانب تثقيف نفر من العلمانيين أيضا. وكانت الدراسة فى هذه المدارس تنصب على قواعد اللغة اللاتينية فى صيغتها المبسطة الدارجة (Vulgata)، إلى جانب دراسة أعمال الفطاحل القدامى من أمثال فرجيل، وهوراس، وأوفيد، وسالوست، وجوفنال، وسنيكا.

كذلك كان شارلمان مهتما بالموسيقى والألحان الكنسية، فطلب من البابا أن يرسل له بنفر من المتخصصين فى الألحان الدينية، وأسس لهذا الغرض مدرستين للموسيقى واحدة فى متز، وأخرى فى سواسون، وقد أدخل الإيطاليون آلة الأرغون إلى غالة فى عصر شارلمان، الذى كان شخصيا شديد الشغف بأنغام هذه الآلة العجيبة.

لقد أتت هذه الجهود أكلها وكان من أهم نتائج هذه النهضة الكارولنجية تنقية اللسان اللاتينى المستخدم من شوائب السوقية والتبربر، وإن كانت هذه الخطوة قد وسعت الهوة بين لغة الكتابة ولغة التخاطب؛ ولذا فإن هذه الأخيرة قد تطورت فيما بعد إلى لهجات شعبية محلية

ودارجة هى النواة الباكرة للفرنسية واللغات «الرومانيسك» الأخرى من إسبانية وإيطالية وغيرها.

على أن الاهتمام الزائد باللاتينية الكلاسيكية قد ساهم فى حفظ عدد بالغ من المخطوطات لكتابات القدامى، ولولا هذا لضاع هذا التراث القديم. كذلك كان لشارلمان الفضل فى أن يحدد للعصور الوسطى على مدارها اللسان اللاتينى كأداة للتعليم فى مختلف المدارس والجامعات الأوروبية.

ولا بد لنا أن نذكر فى هذا المجال أن شارلمان ظل وفيا ومحبا للسانه الجرمانى الأصلى؛ ولذا فإنه أمر بأن تصاغ لهذه اللغة أجرومية على أسس علمية لكى تصبح لغة أدب خالية من فجاجتها القديمة. وقد نجح العلماء فى بلاطه فى جمع عدد وافر من الملاحم والأساطير الموغلة فى القدم والمعروفة باسم «Nibelungen Lied» ولكن الأمر المؤسف أن ابنه وخلفه لويس «التقى» قد أهمل هذا المشروع بحجة أنه تراث وثنى فاسد!

اعتبر شارلمان نفسه سيدا على الكنيسة بحكم منصبه كإمبراطور متوج، فهو الذى دافع عن الكنيسة الرومانية ضد أعدائها اللومبارد، وهو الذى نشر الكاثوليكية بحد السيف بين مختلف القبائل الوثنية، وهو بعد هذا «المختار» من قبل السماء والممسوح بالزيت المقدس بواسطة البابا الرومانى نفسه؛ ولذلك فقد أعطى لنفسه الحق فى اختيار الأساقفة ورؤساء الأساقفة، وكثيرا ما كان يُعينهم دون انتخاب. كذلك كان يمارس حقه فى عقد المجامع الدينية ورياستها وتوقيع قراراتها لتصبح نافذة المفعول. وكانت الكنيسة ورجالاتها يخضعون جميعا لقوانين الإمبراطورية شأنهم فى هذا شأن العلمانيين من الرعية.

وشارلمان بعد هذا هو أول من فرض ضريبة العشور وجعلها إجبارية تدفع للكنيسة، وقد تلقف رجال الدين هذا القرار وزعموا أنه نص ملزم فى الكتاب المقدس، وراحوا يطبقونه فى سائر بلدان غرب أوروبا. ولم يكتف شارلمان بهذه السلطات الواسعة على الكنيسة بل طالب بحقه أيضا فى رسم السياسة العامة وفى اعتماد الطقوس والعقائد. ويتضح هذا من موقفه من المجمع المسكونى السابع الذى كانت الإمبراطورة إيرينى البيزنطية قد عقدته سنة ٧٨٧م لإعادة عبادة الأيقونات، فقد أرسلت إيرينى قرارات هذا المجمع إلى البابا هادريان (٧٧٢ ـ ٧٩٥م) الذى وافق عليها وسُرَّ بها سرورا بالغا، ثم أرسلها بدوره إلى شارلمان لكى يذيعها على رجال الدين فى غالة، غير أن شارلمان لم يقتنع بكل ما ورد فى هذه القرارات، فجمع مجلسا من الأساقفة سنة ٧٩٤م وأخذ يفند بعض هذه القرارات، ثم أرسل إلى البابا هادريان بهذه التفنيدات فى مكتوب عرف باسم «كتاب شارلمان» (Libri Carolini)، مشفوعا برسالة غاضبة تنصح البابا ألا يتخذ موقفا فى أمور العقيدة قبل أن يستشير شارلمان! وفى رسالة أخرى كتب شارلمان إلى البابا يفهمه أنه كرجل دين ينبغى عليه أن يحصر همه فى القيام بالصلاة فحسب، وحذره من مغبة التدخل فى المسائل الشائكة التى هى من

اختصاص الإمبراطور ومستشاريه فقط. وتتضح مفاهيم شارلمان لسلطانه على الكنيسة ورجال الدين ومن بينهم البابا نفسه من موقفه من البابا ليون الثالث نفسه، فلقد فرض عليه شارلمان المثول بين يديه، ثم أمام المحكمة التى عقدها خصيصا فى مدينة روما ليبرأ نفسه من التهم والجرائم التى نسبت إليه!.

ولم يكن فى مقدور البابا ليون الثالث أن يعود للجلوس على عرش البابوية إلا بعد أن قرر شارلمان براءته وسمح له بذلك. وهذه الحجج والسوابق هى التى التقطها فيما بعد الأباطرة الألمان فى صراعهم العنيد مع البابوية، ذلك الصراع الذى جرّ الخراب على كل من البابا والإمبراطور.

كان شارلمان قد تزوج أربع مرات، وأنجب ثلاثة أولاد وعددا وافرا من البنات، وقبل وفاته قسم الإمبراطورية بين أولاده الذكور: شارل، وبين، ولويس. ولكن شارل وبين توفيا قبل أبيهما، ولم يبق إلا لويس (الملقب بالتقى) ليرث كل أراضى الإمبراطورية، وذلك سنة ٨١٤م وهى سنة وفاة شارلمان عن عمر يناهز السبعين عاما.

لا جدال فى أن بنيان شارلمان الضخم قد دفن مع مؤسسه فى قبره بمدينة إكس ـ لا ـ شابل سنة ٨١٤م. ولقد وضع ستة من ورثته التاج الإمبراطورى على رءوسهم وهم: لويس التقى (ت ٨٤٠م)، ولوثير (ت ٨٥٥م)، ولويس الثانى (ت ٨٧٥م)؛ وشارل الأصلع (ت ٨٧٧م)، وشارل السمين (ت ٨٨٧م)، وأرنولف (ت ٨٩٩م)، ثم لويس الطفل (ت ٩١١م) والذى انتهت بوفاته سلالة البيت الكارولنجى فى مملكة الفرنجة الشرقيين أو ألمانيا.

الفصل الرابع
الفرسان والأقنان فى مجتمع الإقطاع

تصدع بنيان شارلمان:

تصدعت إمبراطورية شارلمان سنة ٨٤٣م فى أعقاب نشوب حرب أهلية بين أحفاده، وما لبثت غزوات متبربرة جديدة أن اجتاحت الغرب الأوروبى فى موجات متلاحقة من أهل الشمال (النورمان) وقبائل الماجيار الزاحفة من الشرق. وفى هذه الظروف المضطربة أخذ نظام الإقطاع فى التبلور ليصبح القاعدة الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية لسائر بلدان الغرب الأوروبى. والواقع أن الطبيعة كما خبرها إنسان تلك القرون كانت متجبرة ومستعصية على الترويض؛ إذ انبسطت على خريطة أوروبا فى ذلك الوقت مساحات شاسعة من الأرض لم تمتد إليها يد الإنسان، وإنما كانت مرتعا للحيوانات الضارية من دببة برية وذئاب مفترسة تحوم حول أطراف البرارى والغابات ثم تنقض على قلب الرقع المنزرعة بحثا عن فريسة آدمية. وقد نعجب عندما نعلم أن بعض الجماعات فى العصور الوسطى الأوروبية كانوا يقتاتون على التقاط الثمار البرية تماما مثلما كان يعيش الإنسان البدائى فى سحيق الأزمان. ولم يكن الناس يخشون شيئا قدر خشيتهم ظلام الليل وقسوة برده وصفير رياحه. ومن هنا فإن إنسان العصور الوسطى قد أسلم أمره لقوى غيبية متقلبة الطبع لا سبيل للسيطرة عليها أو التنبؤ بمفاجآتها. وتفيد السجلات بأن نسبة عالية من مواليد تلك العصور كانوا يهلكون عقب ولادتهم بقليل بسبب قسوة الظروف المعيشية، ولم يكن حظ الكبار أفضل

أيقونة من العصر الكارولنجى

من حظ الصغار، فمن لا يهلك فى الغابة يقتل فى الحروب، ومن يفلت من هاتين المحنتين لا يعمر أكثر من أربعين عاما فى أغلب الأحوال.

إن تلك الظروف القاسية هى التى شكلت عقلية العصور الوسطى، إذ كان الناس يرون فى مظاهر الطبيعة من عواصف وبرق ورعد علامات على سوء المصير، وأصيب المجتمع بحال من التوتر والهلوسة، وتاه العوام والخواص فى غيبة أشبه ما تكون بأحلام اليقظة. وفى هذا المناخ نشطت البيوتات الديرانية فى تفسير الأحلام والرجم بالغيب، وفسروا الظواهر الطبيعية بخيال ساذج فى زمان غاب فيه العلم وتوارى عنه حكم المنطق والتعقل. ومن هنا فإن من يتصدى لتأريخ العصر الوسيط فى أوروبا يصطدم بالضرورة بمشاعر من اليأس ونوبات الغضب وتقلب الطباع، وبالأفكار القهرية الاستحواذية وغيرها من التناقضات الصارخة بين طبقات المجتمع، ويترتب على هذا كله صعوبة بناء تاريخ عقلانى لعصر لم يعرف أبجدية العقلانية، فنحن أمام عصر وصف بأنه عصر «الإيمان الأعمى». وتتضح هذه اللاعقلانية فى حوليات العصور الوسطى، فلم يكن لدى أغلب القوم إحساس بعامل الزمن ولا بدلالة الرقم، حيث لم تكن لديهم الوسائط التى يقيسون بها الوقت من ساعات مائية أو شمسية، ولم تكن الأخيرة حتى إن وجدت لتجدى كثيرا فى جو مليد بالغيوم فى أغلب فصول السنة. ونحن نعلم أن الملك الفرد الإنجليزى (قرن ٩م) كان يستعين بعدد مهول من الشموع يشعل الواحدة من الأخرى لمتابعة مرور الساعات. ولم يكن الزمن ذا قيمة واضحة المعالم فى أذهان هؤلاء القوم؛ ولذا فإن العديد من الوثائق والسجلات تخلو من التأريخ، مع أنها كتبت أصلا لكى تصبح سجلا زمنيا لرصد حدث معين أو مناسبة

تصوير الموت - رسم من العصور الوسطى

هامة كتاريخ ميلاد أو وفاة أو وراثة أرض أو حفل تكريم وما شاكلها. وقد تواكب مع هذه اللامبالاة بعامل الوقت لا مبالاة شبيهة بالأرقام والأعداد والإحصاءات، وعليه فإن المؤرخ يجابه فى حوليات العصور الوسطى بأرقام خرافية حول أعداد الجند وعدد القتلى؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر تذكر الوثائق أن وليم الفاتح دوق نورماندیا كان يقود ما بين ثلاثين وستين ألفا من الفرسان يوم أن غزا إنجلترا سنة ١٠٦٦م، بينما توضح الأبحاث الحديثة أن وليم لم يكن يقود فى غزوه لإنجلترا أكثر من خمسة آلاف من الفرسان!

كانت اللغة اللاتينية هى لسان العصر، ولكن غالبية الناس كانوا يتخاطبون باللهجة المحلية العامة (Vernacular)، ومن هنا وجدت ثنائية حتى فى اللسان، إذ كانت الجرمانية والكلتية والأنجلوسكسونية والفرنسية القديمة تفرض نفسها جنبا إلى جنب قبالة اللاتينية، ولقد تعرضت اللاتينية الكلاسيكية لتدهور كبير عندما تسربت إليها ألفاظ كثيرة من أصول «متبربرة» حتى تساير روح العصر ومتطلبات أهله، ناهيك عن انهيار قواعد النحو والأسلوبية. ولكن اللاتينية ظلت لغة الكتابة الوحيدة، وهنا نجابه صعوبة أخرى، فلو أن مشادة وقعت بين اثنين من الفرسان حول إيجار إحدى الإقطاعيات، فإنهما يتنازعان ويتجادلان طيلة الوقت باللسان المحلى وليس باللاتينية، غير أنه عندما تسجل لنا وقائع تلك المشادة فإنها تسجل باللاتينية بيد واحد من الكتبة المحترفين. وغنى عن البيان أنه بين ما يرد إلينا باللاتينية وبين ما قد وقع بالفعل باللسان المحلى هوة جد سحيقة!

يضاف إلى هذا أن اللاتينية الوسيطة كانت لسانا قاصرا فى الغالب على رجال الدين فهم الطبقة الوحيدة المتعلمة، أما العالم العلمانى فكان أبعد ما يكون عن اللسان اللاتينى. ويكفى أن نعلم أن إمبراطورا عظيما مثل شارلمان ذاته لم يكن يجيد القراءة ولا الكتابة، وأن أوتو العظيم مؤسس الإمبراطورية الرومانية المقدسة لم يكن يعرف حروف الهجاء، كما أن أبناء الطبقة الإقطاعية النبيلة شمال جبال البرانس والألب كانوا أميين (Illterati) بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان، لدرجة أن الغالبية العظمى منهم ممن اعتادوا على زيارة الأديرة فى أمسياتهم لم يكونوا بقادرين على مجرد القراءة (Idiota) فى الكتب المقدسة. وفى هذا المناخ لم يكن أحد ليجرؤ على مجرد التشكيك فيما يقوله رجال الدين، حتى لو كان ما يقال أحيانا منافيا لأبسط قواعد المعقولية!

بلاط الملوك الإقطاعيين:

ولرسم صورة لأوروبا الإقطاعية ينبغى أن نلاحظ أن المجتمع قد أخذ بفعل الظروف يتشكل فى طبقات ثلاث: قوم وظيفتهم الصلاة، وقوم وظيفتهم الحرب؛ وقوم وظيفتهم فلاحة الأرض. ومع أن الإقطاع قد ورد من منابع جرمانية مع قبائل القوط والفرنجة، إلا أن للإقطاع أيضا جذورا رومانية؛ ذلك أن تغيير وضع الفرد بالنسبة للآخرين على أساس حيازة الأرض أمر يرجع إلى القرن الثالث للميلاد، فعندما ازدادت وطأة الضرائب على كواهل الفلاحين لجأوا إلى رهن

أراضيهم إلى السادة الأغنياء مقابل قرض معين. وعندما عجز الفلاح عن سداد ديونه ضاعت عليه الأرض وأصبح مجرد أجير على أرض كان يملكها يوما ما ولكنها لم تعد ملكه بعد. كما شهد نفس القرن محاولات الفلاحين الرومان فى التهرب من دفع الضريبة للدولة وذلك بالتنازل عن الأرض لأحد كبار موظفى الدولة أو من طبقة السيناتورين المعفاة من الضريبة، وفى مقابل ذلك يسمح السيد الجديد للأرض للفلاح بالاستمرار فى زراعة الأرض مقابل خدمات والتزامات أقل وطأة من الضريبة الحكومية، وبالتدريج ضاعت الأرض على جماعات كثيرة من الفلاحين فتحولوا إلى معدمين تماما. كذلك عندما نقص عدد العبيد بالإمبراطورية الرومانية قلت الأيدى العاملة فى فلاحة الأرض، واضطر السادة من أصحاب الأراضى الشاسعة إلى السماح لبعض الفلاحين بزراعة شرائط من أرض السيادة المهجورة مقابل أجر هزيل أو جزء من المحصول، وقد عرف هؤلاء باسم «المعمرين» (Coloni)، وهم النواة الأولى لجماعة الأقنان (Serfs) فى العصور الوسطى.

كما أن الفرق الجرمانية التى احتلت الولايات الإمبراطورية أقامت على التراب الرومانى ممالك جرمانية قوية. وكانت العادة أن يحصل أفراد هذه الفرق على رواتبهم عن طريق النهب والسلب والغنائم، غير أن القوط الغربيين (Visigoths) عندما دخلوا غالة ثم إسبانيا ابتدعوا نظاما جديدا بتوزيع الأراضى على محاربى هذه الفرق، وبذلك يكون العرف القوطى فى توزيع الأرض على المحاربين هو النواة الأولى للنظام الإقطاعى، وإن كان ذلك العصر لم يخلع على من يتلقى الأرض لفظة «فصَّل» (Vassalus) الإقطاعية الدلالة.

وعندما تحطمت الحكومة المركزية فى أواخر حكم الكارولنجيين فى غالة، صارت إدارة شئون الولايات فى أيدى نواب الملك الملقبين بلقب «كونت» (Comes) وهى كلمة مشتقة من لفظة «كوميتاتوس» (Comitatus) بمعنى «رفاق» زعيم القبيلة فى ميدان القتال. ثم أخذ هؤلاء الكونتات فى حكم ولايات المملكة نيابة عن الملك، وفى بعض الأحيان كان الملك يعهد بشؤون إقليم كامل لواحد من أفراد البيت الملكى الذى أنعم عليه بلقب «الدوق» (Dux). وفى بداية الأمر كان هؤلاء النواب الملكيون يحكمون الولايات باسم الملك، غير أنه عندما ضعفت هيبة التاج راح هؤلاء يحكمون الولايات لصالحهم متجاهلين حقوق حامل التاج. ونلمس ازدياد نفوذ هؤلاء الأدواق والكونتات فى العصر الكارولنجى فى غالة من تلك الإجراءات التى اتخذها شارلمان عندما أصر على تعيين «مبعوثين ملكيين» (Missi Dominici) لمتابعة سير الأمور فى الولايات ولمحاسبة الأدواق والكونتات وضمان بقائهم خاضعين لسلطان التاج، غير أنه مع انهيار الحكومة المركزية وقيام الحروب الأهلية بين أحفاد شارلمان، ازدادت قبضة الأدواق والكونتات قوة وراحوا يقيمون فى

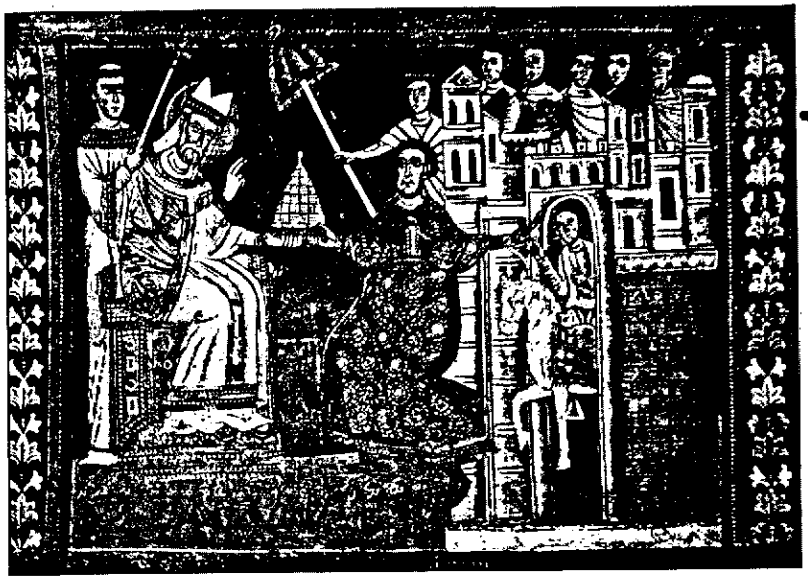

التتويج الملكى

ولاياتهم محاكم خاصة بهم، كما اقتنوا الجيوش الخاصة أيضا، والأهم من هذا وذاك أنهم أخذوا يقطعون أراضٍ لأتباع (أفصال) لهم مقابل الخدمة العسكرية فى صفوفهم، وكثيرا ما كانت الحروب تشن ضد حامل التاج نفسه! ولم يملك الملوك الضعاف إلا أن يسلموا بالأمر الواقع، مكتفين بيمين الولاء للتاج وبتعهد بالمساهمة بعدد من الفرسان فى وقت الحرب، وببعض من المال فى بعض المناسبات، وبهذا ضرب النظام الإقطاعى بأركانه فى مختلف البلدان الأوروبية.

وعندما قامت الملكيات الإقطاعية فى غرب أوروبا متمثلة فى آل كابيه فى فرنسا؛ وفى خلفاء وليم الفاتح النورماندى فى إنجلترا؛ وفى السكسون فى ألمانيا، أصبح حامل التاج من الناحية النظرية سيدا إقطاعيا على الجميع فى مملكته، فهو يتربع على قمة الهرم الإقطاعى ويتلقى التاج فى أغلب الأحيان بالوراثة، على أنه قبل تتويجه ملكا، كان يلقب بلقب «السيد» (Dominus) شأنه فى هذا شأن سائر السادة الإقطاعيين الآخرين فى المملكة، غير أن حفل التتويج الملكى ومسح الملك المتوج بالزيت المقدس على يد كبير من رجال الدين يجعل منه ملكا «بإرادة الله» (Rex Dei gratia)، وهذا الطقس يخلع على صاحب الجلالة مسحة دينية تضاف إلى صلاحياته العلمانية، فإذا كان الجالس على العرش شخصا قويا فإنه يملك ويحكم أيضا؛ فهو الذى يعين كبار المسئولين فى أجهزة الحكم وفى البيوتات الدينية، وهو الذى يوجه السياسة الخارجية، ويعلن الحروب ويقود الجيوش ويبرم معاهدات السلام. وللملك أيضا دخله الخاص من ضياعه الإقطاعية كأى سيد

إقطاعى آخر، إلى جانب دخوله الأخرى من «أفصاله» المنتشرين فى أقاليم المملكة. ويلاحظ على الملك الإقطاعى أنه كان دائم الترحال هو وحاشيته من قلعة إلى أخرى، وهو يتحرك فى موكب محمل بالوثائق وبالخزانة الملكية أيضا. وقد كشفت وثيقة من عصر الملك هنرى الأول الإنجليزى (١١٠٠ ـ ١١٣٥م) عن طبيعة البلاط الملكى المتجول؛ فهو يجمع رتلا من القوم يتدرج بين كبار الموظفين حتى الصبية الذين يسهرون على مواقد التدفئة. ويقف على رأس هذه الحاشية، مستشار الملك (Chancellor)، وكان يُختار عادة من بين كبار رجال الدين، ويقف على قدم المساواة مع كبير الأمناء (Dapifer) الذى يشرف على الجناح الملكى (Aula) والمائدة الملكية؛ ثم هنالك الموظف المنوط بالإشراف على مخدع الملك (Camerarius)؛ ثم يأتى بعد هذا أمين الخزانة الملكية والتى كانت توضع فى صندوق خاص فى حجرة نوم الملك، وهناك موظف يشرف على الشراب والفاكهة (Piacerna)، ويساعده فى عمله عدد من حملة الكئوس وأمناء المخازن وإخصائيون فى انتقاء الفواكه التى تروق ذوق صاحب الجلالة، وهناك الكونستابل الذى يشرف على الحرس الملكى وخدم الإسطبلات، ويعينه فى مهمته «المارشال» الذى كان من مهامه الأخرى حفظ النظام. وإلى جانب هؤلاء كان هناك حراس كلاب الصيد ومدربوها، والمشرفون على تربية الصقور، إلى جانب نفر من المتمرسين فى صيد الذئاب والوعول والقطط البرية (Catatores). وكان البلاط الملكى أشبه ما يكون بدار الحضانة، يتدرج فيها الموظف الذكى الماهر حتى يحتل موقعا مميزا، وكثيرا ما دفع كبار النبلاء مبالغ طائلة من المال للملك كى يسمح

الطاعة والوفاء

لأبنائهم بشرف الخدمة فى البلاط لاكتساب الخبرة وإتقان آداب المعاملة (Courtoisie).

لم يكن الملك الإقطاعى فى بداية الأمر أكثر من «الأول بين أقرانه» (Primus inter pares) من السادة الإقطاعيين من أدواق وكونتات؛ ولذا أقام الملوك مجلسا ملكيا (Curia Regis) تألف من أفضال التاج من البارونات وكبار رجال الدين إلى جانب كبار موظفى البلاط وهم المستشار الملكى وكبير الأمناء ورئيس الخزانة. وكان عصر الملكيات الإقطاعية عصر حروب لا تهدأ، وإن كان الملك لا يمارس الحرب كل يوم إلا أنه يستعد لها كل لحظة. ولقد تلقى البارونات إقطاعياتهم من التاج مقابل الخدمة العسكرية بأنفسهم وبفرسانهم (Servitium debitum)، ولم يكن جيش الملك الإقطاعى كبير الحجم، ففى إنجلترا على عهد النورمان لم يكن الجيش يزيد على سبعة آلاف من الفرسان. وكان على الفارس أن يؤدى هذه الخدمة القتالية لمدة أربعين يوما فى العام وقت السلم، أما فى وقت الحرب فإن هذه المدة قد تطول لتصل شهرين كاملين. وإذا ما استمرت الحرب لمدة أطول من الشهرين فإنه لا يجوز للفارس (البارون) أن يترك ميدان القتال ويتخلى عن الملك؛ بشرط أن يتحمل الملك نفقات الفارس عن خدمة المدة الزائدة. وفى القرن الثالث عشر جدَّ نظام يدفع الفارس بمقتضاه مبلغا محددا من المال إلى التاج عرف باسم «Scutage» أى «البدل» للإعفاء من الخدمة العسكرية.

إن أوضح ما يميز العلاقات فى المجتمع الإقطاعى هى صلة الدم، وهى موروث جرمانى الأصل، وقد عرفت هذه الصلة فى فرنسا باسم «Lineage» أى «التحدر»، ولقد تعززت هذه الصلة عندما التحمت بوشائج الولاء والطاعة. وفى مجتمع كهذا تنمو بطبيعة الحال مشاعر الانتقام وطلب الثأر صيانة لنقطة الدم (Vendetta) التى قد تصيب أحدا من الأنساب. وقد وضحت هذه المشاعر بوجه خاص بين الفريزيين، حيث كانت جثة القتيل تبقى دون أن تُدفن حتى ينتقم له ذووه من القاتل. وقد ظهرت ملاحم شعبية كثيرة تمجد أعمال الانتقام وطلب الثأر بين عائلات عديدة فى إيطاليا وفرنسا وإسبانيا. وإلى جانب صلة الدم تولدت فى المجتمع الإقطاعى صلة أخرى هامة، وصفها لسان العصر بعبارة: «فلان من الناس هو رجل السيد فلان» (Homo Suus)؛ فالكونت «رجل» الملك، والفارس بدوره «رجل الكونت». ولفظة «رجل» فى هذا السياق الوسيط ذات دلالة خاصة، فهناك وثيقة ترجع إلى القرن الحادى عشر تحمل شكوى بعض الراهبات إلى دوق نورماندیا يطلبن فيها من الدوق أن يتدخل لأن واحدا من البارونات قد أجبر «رجالهن» على الخدمة فى قلاعه دون وجه حق، وواضح أن تعبير «رجالهن» هنا لا يعنى شيئا بالنسبة للراهبات أكثر مما كان يفهمه العصر من هذا المصطلح. ومن كلمة «Homo» هذه جاءت كلمة «Homage» بمعنى «الولاء» وهى تعبير عن حقيقة قائمة بالفعل بين طرفين، الأول يتقبل أداء الخدمة العسكرية

والثانى يحتاج إلى هذا «الرجل» بالذات لأداء هذه الخدمة الهامة. والاثنان بالضرورة من طبقة النبالة ويتم الاتفاق بينهما وفق مراسيم خاصة، أبرزها أن يضع «الفصل» (التابع) يديه بين يدى السيد (Suzerain) ثم يتلقى منه قبلة العهد والميثاق. والولاء تقليد جرمانى الأصل يرجع إلى لفظة «mannschaft»، وقد أدخلت على هذا التقليد فى العصر الكارولنجى بعض الطقوس الدينية كالقسم على الكتب المقدسة أو الأيقونات، ومن هنا تولد اصطلاح «الطاعة» (Fealty) أو «الوفاء» (Treue).

العقد الإقطاعى

ومراسيم الولاء والطاعة تلك هى التى تقنن العلاقات بين السيد والفصَّل، وبها تكتمل عناصر «العقد» الإقطاعى. وكان على الفصل أن يركع أمام السيد ثم يضع يديه داخل يدى السيد، ثم يقسم له على أن يبقى له وفيا فى كل الأمور وأن يخدمه بكل إخلاص، مؤكدا له بأنه بذلك يصبح «رجله» (Homo) الذى يتحلى بفضيلة الطاعة. وهنا يطبع السيد قبلة على وجه الفصل ويعلن قبوله «تابعا» له، ثم يضع بين يديه قطعة من «الطين» (Seisin) علامة على إقطاعه بالأرض.

لقد تولدت هذه النظم بعد انهيار سلطة الحكومة المركزية فى فرنسا، فى جو محفوف بأخطار التهديد الخارجى «المتبربر»، ولم تعد الحكومة قادرة على تقديم الحماية الكافية للناس، وباتت العائلة عاجزة عن حماية أبنائها من غائلة هجوم مفاجئ؛ ولذا فإن كل فرد بات محتاجا إلى من يبسط عليه جناح الحماية، وحتى الأقوياء أصبحوا هم أيضا فى حاجة ماسة إلى أتباع أشداء يشدون بسواعدهم وسيوفهم من أزرهم. ولم يكن هؤلاء القوم وهم يقيمون تلك العلاقات التى أملتها الظروف القاسية يخططون لنظام تصوروه مسبقا؛ ولذا فإن الاجتهاد فى البحث عن جذور الإقطاع عند الرومان أو الجرمان، وإن كان يفيد فى إلقاء بعض الضوء على تلك العلاقات، إلا أنه لا يكفى لشرح ظاهرة الإقطاع التى لا بد من التأكيد على أنها من إملاء الظروف قبل كل شىء، ولعل المثل القائل بأن الناس يشبهون أزمانهم أكثر من شبههم بآبائهم يصدق هنا تماما.

نحن إذن أمام مجتمع عجزت فيه الحكومة المركزية والعائلة عن تقديم ضمانات بالحماية للفرد، وفى تلك الظروف العصيبة انهارت روابط الانتماء التقليدية، ولم يكن هنالك من مخرج لالتماس هذه الضمانات إلا عن طريق التبعية الإقطاعية.

ولما أن تعقدت العلاقات الإقطاعية، وصار بمقدور الفصَّل أن يتلقى أكثر من إقطاع من أكثر من سيد واحد، ابتكر أهل العصر نمطا جديدا من التبعية ظنوا أنه أكثر وثوقا من السابق وأطلقوا

عليه اصطلاح «التبعية العليا» (Homage Liege) والكلمة مشتقة أصلا من منابع فرنجية ويقابلها فى الألمانية كلمة «Ledig» بمعنى «المطلق»، وقد ترجمها كتاب الحوليات فى منطقة الراين إلى اللاتينية بمعنى «التبعية المطلقة» (Absolutus).

إعلان الوفاء للسيد

وكان لا بد من ظهور هذا المصطلح بمفهومه الجديد ليحسم التعقيد الذى أصاب العلاقات الإقطاعية نتيجة لدخول «الفصّل» فى تبعية لأكثر من سيد واحد بقصد توسيع دائرة حيازته لمساحات أوسع من الأراضى.

وهكذا تحايل أهل العصر على ظاهرة تعدد السادة للفصّل الواحد، فميزوا بين «الولاء المطلق والولاء العادى» خاصة فى أوقات الحروب، وأصبح الفصّل ملزما بالوقوف فى صف سيد واحد

فى ميدان القتال وهو ذلك السيد الذى يدين له وحده بالولاء الكامل أو المطلق، مكتفيا بإرسال بعض المساعدة الرمزية لبقية السادة. وقد التزم كل من السيد والفصل وفقا للعقد المبرم بين الطرفين ببعض الواجبات والحقوق، فكان الفصل ملزما بالخدمة العسكرية إلى جوار سيده، والعمل على الحفاظ على حياته وأرضه وشرفه. وفى مقابل هذا تعهد السيد ببسط الحماية على فصّله ومعاملة ذويه بالاحترام وقواعد الشرف. كذلك كان الفصّل مطالبا بأن يقدم للسيد «عونا» (Taille) فى صورة هدايا فى بعض المناسبات مثل تقليد الابن الأكبر للسيد للفروسية، أو عند زواج كبرى بناته مثلا. وعند موت الفصّل كان ابنه الأكبر مطالبا بدفع مبلغ معين من المال للسيد، وعرف هذا باسم «وفاء الحق» (Relief)؛ ذلك لأنه من الناحية النظرية تظل الأرض ملكا للسيد وتعود إليه عند وفاة الفصّل، ولكى يرثها الابن عن أبيه المتوفى إقطاعا لا بد له من وفاء الحق للسيد لتجديد مراسم العقد الإقطاعى. وفى بداية الأمر لم يكن السيد ملزما بإعطاء تعهد كتابى بالتزاماته نحو أفعاله، وإنما كان يكتفى بكلمة الشرف (Parole d'honneur) أمام بعض الشهود، على أنه فى القرون التالية ظهرت مواثيق مفصلة تعدد واجبات وحقوق الطرفين. وكان على السيد أن يحافظ على شرف الفصّل حتى بعد وفاة الأخير بمعنى بسط الحماية على آل بيته بعد الوفاة، كما أنه كان مطالبا بإنصاف أفصاله من أى ظلم قد يقع عليهم ولو كان هذا الظلم صادرا من جانب السيد نفسه!

إن نظام السيادة والتبعية هذا كان البديل الجديد للانتماءات العائلية التى تمزقت بفعل عوامل العنف والشغب فى المجتمع الإقطاعى. وقد أحيط هذا النظام بقدر وافر من التقدير والاحترام إلى

الحروب الدامية

حد أن القانون الأنجلو سكسونى فى القرن العاشر كان ينظر إلى الشخص الذى «لا سيد له» على أنه «خارج على القانون» (Outlaw). وأخذت الروابط بين السيد والفصَّل تتوطد حتى غدت أقوى من صلات الدم ذاتها، وليس أدل على هذا التحول من أن القانون النورماندى كان يعاقب جريمة قتل أحد السادة لواحد من أفصاله بنفس القدر الذى يعاقب به جرائم قتل الأهل. وقد جرت هذه الصلات معها فكرة الثأر لمقتل أى من الطرفين بيد غريبة، وصارت لفظة الأخذ بالثأر (Ultor) اللاتينية مرادفة عند أهل العصور الوسطى للفظة «الانتقام» (Mundporo) الجرمانية الأصل. وصارت تلك السمة قاعدة حتى فى المحاكم، ففى إنجلترا فى القرن الثانى عشر كان لا يجوز التبليغ عن جريمة قتل إلا إذا كان القتيل قريبا أو فصَّلا أو سيدا لمن يقدم البلاغ، ولهذه القاعدة جذور جرمانية نجدها فى ملحمة «بيولف» (Boewulf) فعندما اغتيل هذا الزعيم البطل صار لأتباعه الحق كل الحق ليس فقط فى المطالبة بالثأر لدمه أو الانتقام، وإنما أيضا فى المطالبة بنصيب من «الدية» التى تدفع تعويضا عن هذا القتل (Wergild).

المحكمة

كان العقد الإقطاعى يبرم بين رجلين ينتميان فى جميع الأحوال إلى الطبقة العليا فى المجتمع، وإن كانا من درجات متفاوتة فى سلم النبالة. وفى حالة خرق أحد الطرفين للمواد الواردة فى العقد يصبح الإقطاع «لاغيا» (Forfeit)، ويتم هذا الإلغاء أيضا وفق مراسم خاصة فى حضور الطرفين المتخاصمين أمام حشد من الشهود ويقف الطرف المتظلم ليلقى بخصلة من شعر رأسه أو بخيوط من ردائه على الأرض، علامة على بطلان العلاقة القديمة. وكثيرا ما كانت هذه

اللحظات مثارا للحرج والكدر والتحدى (Defi)، ولا يحسم الأمر عندها إلا بالمبارزة بين الطرفين. وفى حالة ثبوت وقوع الخطأ من جانب الفصَّل، تصادر إقطاعيته وترد للسيد (Commise). أما إذا اتضح أمام الشهود بأن الخطأ قد وقع من جانب السيد، فإن للفصل الحق فى رفع مظلمته أمام محكمة السيد نفسه أو محكمة سيد السيد، وهكذا تدرجا فى السُلَّم الإقطاعى وصولا إلى حامل التاج نفسه. وكانت محكمة السيد تتألف من السيد نفسه ومن بقية أفصاله، وغنى عن البيان أنه كان من صالح الأفصال أن يقفوا فى المحكمة إلى جانب رفيقهم الفصل المتظلم ضد سيدهم، حرصا على مصالحهم وخوفا من وقوع نفس الضرر عليهم ذات يوم.

ورغم هذا كله فلا بد من الاعتراف بأن هذه المحاكم لم تكن ذات فعالية تذكر؛ ذلك لأن روح العصر من عنف وخشونة أملت على الناس حسم المواقف بالسيف والسيف وحده، ولعل المثل القائل «القوة هى الأحق» (Might is right) يعبر خير تعبير عن روح العصور الوسطى فى أوروبا. وفى نفس الوقت فإن وثائق العصر ترسم صورة وردية لكثير من العلاقات الحميمة بين السيد والفصل، فالفصل مرادف «للصديق» (Amicus)، وهو «المفضل» لدى النفس (Dru). وفى قصيدة للشاعر دون دى مايتس نطالع أبياتا تفيض بمشاعر نبيلة من الود الخالص بين الفصل وسيده:

«لو أن سيدى قتل فإنى معه أموت... لو أن سيدى شنق علقونى بجواره... لو أن سيدى سيق إلى المحرقة دعونى أحتضن معه جمر النار... لو أن سيدى يغرق ففى بطن اليم يكون معه قرارى».

شعراء الطروبادور

ولقد اتخذ شعراء الطروبادور (وهى كلمة مشتقة من الكلمة العربية: الطرب) فى الجنوب الفرنسى من هذه العلاقة الحميمة بين الفصل والسيد خطابا لدلالات الحب والهيام فى إقليم بروفنسال. وقد وافق هذا الاقتباس طبيعة قصص الغرام فى ذلك العصر؛ فالمحب الولهان فى أغلب الأحوال كان من طبقة أقل فى سلم النبالة من الطبقة الأعلى التى تنتمى إليها المحبوبة أو «سيدة القلعة»؛ ولذا فإن شعراء الطروبادور يشيرون إلى المحبوبة بعيدة المنال لا فى صيغة المؤنث وإنما فى صيغة المذكر، فتخاطب بعبارة: «يا سيدى الجميل» (Bel Senhor) بدلا من «سيدتى الجميلة». وقد وجدت هذه الروابط طريقها إلى أساليب المجاز وكتابات الأدب الشعبى والأمثال، فأصبح يقال مثلا: «إن فلانا قد أصبح فصَّلا للشيطان» للتدليل على صرف حياته لفعل الشرور. ولم تسلم الكتابات الدينية والمواعظ من لغة العلاقات الإقطاعية، فلقد أخذت الصلاة صورة ضم اليدين فى خشوع تام، مثلما كان يفعل الفصل بين يدى سيده وقت أداء يمين الولاء والطاعة.

هذا عن الجانب المشرق لوجه العملة، أما الوجه الآخر فإنه يصور الحروب الدامية التى قامت بين الأفصال وسادتهم، وإن كان هذا لا يعنى أن جميع الأفصال كانوا يشنون الحروب على قلاع سادتهم. ونقرأ فى آداب العصر «أن الجميع قد أقسموا يمين الولاء؛ البعض كانوا للقسم أوفياء ولكن البعض الآخر تنكروا جاحدين لما أقسموا عليه». إن هذه المعانى تفصح عن روح العصر وعن الهوة السحيقة بين النظرية والواقع، وهنا يكمن التناقض فى مختلف نظم العصور الوسطى ومن بينها نظام الإقطاع.

ولفهم أسباب التدهور الذى أصاب العلاقة بين السيد والفصّل يجب أن نتذكر أن نظام التبعية فى صورته الأولى كان يحتم على الأتباع الالتفاف حول زعيمهم (سيدهم) فى قلعته، حيث كانوا يحيطون السيد (Herr) بمشاعر الاحترام، فهو قائدهم ومورد إقطاعهم، وكان الأتباع بالنسبة للسيد بمثابة «الرفاق» (Gasindi) أو «الأبناء» (Vassi) أو مورد رزقهم وأخبارهم (Hlafoetan)، ولكن تبدل الظروف وتعقد الأحوال وازدياد المشاجرات أدى بالأتباع إلى أن يهجروا قلعة السيد لكى يتمكن كل منهم من السهر على حماية إقطاعه الأصغر حجما، وخاصة وقت الغزوات النورماندية والهنغارية. وأمام هذه التحولات المتتابعة بدأت بعض مصالح السادة تتعارض مع مصالح الأفصال، فكان لا مفر من وقوع الصدام بين الطرفين. يضاف إلى هذا أن نظام توريث الإقطاعيات لأبناء الأفصال المتوفين قد ساهم فى غرس الأحقاد والضغائن فى نفوس الطرفين. ولم يكن الوريث لإقطاعية ما يقوم بأداء مراسم الولاء والطاعة للسيد إلا لكى يضمن الحفاظ على رقعة الأرض التى كانت بيد أبيه، بغض النظر عن مشاعره الحقيقية تجاه هذا السيد. وكان على الوريث أن يؤدى نفس الالتزامات التى كان يؤديها والده للسيد، وهى فى أغلبها التزامات عسكرية فروسية قد لا يتقنها أو يرغب فيها الابن بنفس القدر الذى كان يوفيها به الأب المتوفى من قبل. ومن هنا فإن الشعور بحرية الاختيار، وهو من المفاهيم التى أخذت تسرى فى مختلف الأوساط مع ازدياد التعليم وازدهار الجامعات، قد أصيب بالإحباط عند الأبناء من ورثة الأراضى الإقطاعية؛ ولذا فإن عددا كبيرا من الأفصال قد تمردوا واشتبكوا مع سادتهم واستولوا على الأراضى منهم بقوة السيف.

كانت النبالة فى عرف القبائل الجرمانية تتمتع بامتيازات خاصة، وأبرز هذه الامتيازات الحق فى تعويض كبير القيمة فى حالة وقوع ضرر بهم (Wergild)، وتشير الوثائق الأنجلوسكسونية إلى أبناء هذه الطبقة بأنهم «ولدوا أعزاء» (Edelinge) دون سائر الناس، على أنه عندما أقام الجرمان ممالكهم على حطام الإمبراطورية الرومانية لم تعد علامات السمو فى المجتمع تقوم على عامل الوراثة وإنما على قدر ما يملكه الفرد من أراض ونفوذ. وليس أدل على سقوط عامل الوراثة فى ارتباطه بالنبالة من أنه لا يمكن أن نتتبع شجرة أنساب أهم الأسر الحاكمة فى أوروبا إلى عهود بعيدة

فى الماضى، فالجد الأكبر لعائلة ولف (Welf) التى لعبت دورا كبيرا فى تاريخ ألمانيا كان واحدا من الكونتات التابعين لدوقية باڤاريا وهو الذى تزوجت ابنته من الملك لويس التقى ابن شارلمان؛ كما أن نسب كونتات تولوز فى فرنسا لم يتضح إلا فى عهد لويس التقى أيضا؛ أما ماركيزات إڤريا

القلعة والفلاحة

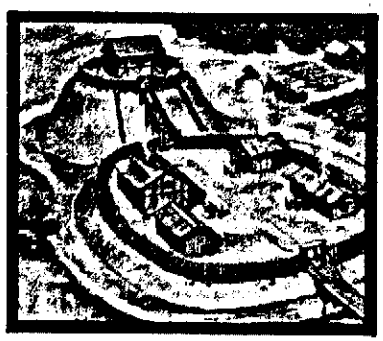

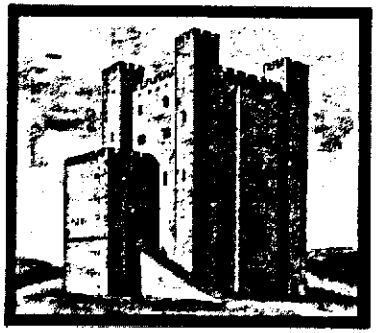

تطور القلاع

الذين صاروا فيما بعد ملوكا على إيطاليا، فقد ظهروا على مسرح الأحداث فى عهد الملك شارل الأصلع؛ وأما فرع لودلفنج أدواق سكسونيا ثم ملوك ألمانيا لبعض الوقت فقد ظهروا على مسرح الأحداث فى عهد الملك لويس الطفل؛ أما أسرة البوربون الفرنسية فقد انبثقوا من آل كابيه وهم أعرق الأسر فى أوروبا، وإن كنا لا نعرف شيئا عن الجد الأكبر لكابيه سوى أنه كان يلقب بروبرت القوى وأنه قتل فى غالة سنة ٨٦٦م، وإن كان البعض يرجعه إلى أصول سكسونية. وفى إيطاليا ظهرت عائلة ألتونى (Altoni) وهم أبناء لزعيم يدعى سيجفريد من لوكا الذى توفى سنة ٩٥٠م، ولا يمكن تعقب أثرهم قبل هذا التاريخ. هذا، وقد ظهرت فى منتصف القرن العاشر أسرة قوية من ولاية سوابيا هى أسرة بانبرج التى أسست دولة النمسا.

هذا عن أكثر البيوتات الأوروبية عراقة فى أوروبا، أما إذا أردنا أن نتتبع أصول عائلات الطبقات الإقطاعية الأقل شأنا، فإننا لن نعثر على شىء يفيد. ويمكن القول أن النبالة بمفهومها القديم سواء عند الرومان أو الجرمان لم تعد واردة فى عصر الإقطاع، وصار النبيل هو الشخص الذى لا يوجد بين أجداده من كان من العبيد، وهو فى نفس الوقت الذى يملك مساحات شاسعة من الأرض الزراعية، إلى جانب مقدرته على حمل السلاح وامتطاء صهوة الخيل كفارس مسلح بالسيف والحربة والخوذة والدرع الثلاثى أو المستدير.

الفرسان

وكلمة فارس فى العصور الوسطى الأوروبية ترادف كلمة «مقاتل» (Miles)، وهى أيضا مرادفة لكلمة «فصّل»، وقد اعتبر الفرسان مهمة القتال أهم بكثير لمجتمع الإقطاع حتى من واجب الصلاة. وكان الفارس يفخر بقوته الجسمانية، وبعضلاته المفتولة، وهو يكتسب هذه اللياقة البدنية بالمران منذ نعومة الأظفار فى واحدة من قلاع السادة، وتصوره وثائق العصر فارعا فى الطول، منبسط الأطراف، عريض المنكبين، صلب العظام، متناسق الأعضاء، مزدانا بآثار جراح السيوف على جسده، وهو فوق كل هذا أكولٌ نهم يتمتع بشهية الخيل.

على أنه كان مطلوبا من الفارس من الناحية النظرية أن يتحلى إلى جانب فضيلة الشجاعة واحتقار الموت بفضائل معنوية من قبيل الحرص على الشرف والحفاظ على مشاعر الولاء والمبادرة للتطوع فى الحروب التى وصفتها الدوائر الدينية «بالحروب المقدسة»، والسعى لإعلاء اسم سيدته المحبوبة. وقد أضافت المؤسسات الدينية مهمازا جديدا هو الوعد بالفردوس لمن يموت فى سبيل قضية دينية. وبهذه الطاقة القتالية المشاغبة الكامنة فى أجسام أشبه ما تكون بأجسام حيوانات الغابة لجأ ملوك الإقطاع والبابوات إلى إطلاق فرسان أوروبا على أراضى السلاف والجنوب الإيطالى

وجزيرة صقلية وإسبانيا وعلى الأراضى البيزنطية وآسيا الصغرى ثم فى حروب العدوان الصليبى على الأراضى المقدسة. وكانت هذه الحروب سبيلا من سبل امتصاص الطاقات القتالية المدمرة التى تعتمل داخل هؤلاء الفرسان. كذلك لجأت الكنيسة فى الغرب اللاتينى أو الفرنجى إلى فرض أيام معينة يحرم فيها القتال، وعرفت هذه الأيام باسم «هدنة الله» (Turga Dei)، وعرفت أيام أخرى باسم سلام الله (Pax Dei) وهى أيام الأعياد والمناسبات الدينية المختلفة.

والحق أن فرسان القرن الحادى عشر كانوا على درجة بالغة من الخشونة وفظاعة الطبع؛ فهم يشربون حتى الثمالة، وكانت قلاعهم غاصة بالنساء الفاسدات. وإذا خسر أحدهم جولة فى إحدى مباريات الشطرنج مثلا فقد يبارز ضيفه حتى يجرحه، وإذا تباطأ الخادم فى إحضار كأس من الشراب فقد يرشقه برمح نافذ، وإذا ضايقته زوجته بالثرثرة فإنه يضربها فى قسوة بالغة. كذلك كان الفارس يحتقر أبناء الطبقات الدنيا من الفلاحين احتقارا شديدا، ولا ينظر إليهم كآدميين مثله لأنهم - وفق مفهومه - لا يجيدون فن القتال (Imbellis)، وهو فى نفس الوقت وبنفس القدر يزدرى طبقة التجار لأنهم يجمعون ثرواتهم من مهنة شبيهة بالربا!

القلاع

كان الفارس يسكن فى قلعة حصينة تحيط بها عن قرب أكواخ الفلاحين العاملين على أرض الضيعة. وكانت القلعة فى أول الأمر على شكل برج خشبى يضم حجرة كبيرة للنوم فى الطابق الأول، بينما خصص الطابق الأرضى كمخزن للمؤن. وحول البرج يوجد الخندق الذى يحيط به من الخارج سور ترابى يليه خندق آخر. أما المطبخ فكان يقع فى حيز خارج بناية البرج خوفا من اندلاع الحرائق. وبمرور الوقت لجأ الفرسان إلى استخدام الحجارة كمادة بناء لقلاعهم بدلا من الخشب. وكان البرنامج اليومى للفارس يبدأ فى الصباح الباكر بالرياضة والصيد فى الغابات. وقد أعد الفرسان إعدادا خاصا بقصد تلقينهم فى قلاع السادة قواعد السلوك وآداب المعاملة (Courtoisie)، وهى كلمة مشتقة من لفظة «Court» أى «البلاط» الخاص بالسيد الإقطاعى والذى كان بمثابة المدرسة الأولى التى يتلقى فيها الشباب من أبناء تلك الطبقة أساليب التعامل وسلوكيات النبالة. وقد ولدت هذه الكلمة فى بلاط سادة الجنوب الفرنسى، ثم نقلها الإيطاليون عن الفرنسيين فى أوائل القرن الحادى عشر، ثم انتقلت بعد ذلك إلى ألمانيا وعرفت هناك باسم «Hofklich». هذا، وقد وفد كثيرون من أبناء النبالة الألمانية على القلاع الفرنسية ليتعلموا تلك الآداب السلوكية، وقد لعبت مدن شارتر وباريس دورا هاما فى تجسيد معانى السلوك الفروسى المهذب لدى أبناء الطبقات العليا. ويرتبط بهذا السلوك موقف أبناء هذه الطبقة تجاه المرأة النبيلة؛

فلقد ظهرت فى فرنسا طبقة من «سيدات الصالونات» عرفن بعشقهن للأدب والشعر والفن وملاحم الفروسية، وأصبحت شهرة أو سمعة الفارس القتالية والسلوكية تحدد فى تلك الصالونات، ولقد حرص مشاهير الفرسان على إثبات جدارتهم وتأكيد قوتهم حتى تذكر أسماؤهم على ألسنة رواد هذه اللقاءات النسائية مقرونة بالإعجاب والاحترام. ومن هنا كان اهتمام الفرسان بالأدب والشعر وخاصة الغزلى منه. ورائد تلك الحركة هو الدوق وليم التاسع صاحب أقطانيا (ت ١١٢٧م)، الذى كان عاشقا ومشجعا للشعر والغناء والطرب.

ثم جاءت مارى كونتيسة إقليم شامپانى (١١٤٥ ـ ١١٩٨م) وهى ابنة لويس السابع ملك فرنسا من زوجته إليانور وريثة أقطانيا وصاحبة السجل الحافل من المغامرات، وقد جسدت مارى فى شخصها وحاشيتها أفانين الشعر الطروبادورى وقصص الغرام ونقلت هذا كله معها إلى عاصمة زوجها فى مدينة تروى (Troyes). ومن هذه البلدة الأخيرة شاعت ملاحم البطولة الفرنسية وقصص الغرام لتعم كل أرجاء أوروبا الغربية. وقد أنجبت تروى شاعرا مرموقا هو «كريتيان» الذى نظم العديد من قصائد البطولة والغرام، والذى كان ينشد قصيده على مسامع الفرسان وسيدات قلوبهم دون خجل أو تورية. ولقد عرف بلاط مارى دى شامپانى ألوانا من الحب العذرى وغير العذرى جميعا، فأصبح الفارس الذى ليست له علاقة غرامية بواحدة من سيدات الصالونات ليس أهلا للقب الذى يحمل شرفه على نصل سيفه. وقد لعبت المرأة الفرنسية دورا كبيرا فى إشعال نار المبارزات بالسيف، كما كان لها دور فى إطلاق الصقور فى رياضة الصيد، وهى أيضا ضيفة الشرف بين المشاهدين فى حلبة المبارزة. وباسم هذه المحبوبة أو تلك كان الفرسان الشجعان يحطمون رماحهم وقسيهم ثم قلوبهم أيضا!

المبارزة

إطلاق الصقور

لقد ساهمت موجة الطروبادور فى التخفيف من غلظة الفرسان فى فرنسا، ويروى أن فارسا جبارا اسمه وليم مارشال قد طلب من بناته وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن يسمعنه شيئا من شجى الألحان قبل أن تفيض روحه. وكثيرا ما هلك فرسان مكلفون بالحراسة على حين غفلة منهم وهم يستمعون بشغف إلى بعض الأغانى المحببة إلى

نفوسهم. ولقد عرف العصر كثيرين من أبناء هذه الطبقة ممن انغمسوا فى الملذات، وإن كانت الملاحم تصنع المسئولية فى ذلك على «ضعف النساء» وليس على نزوات الفرسان. كذلك لم يكن بعض السادة فى القلاع يجدون حرجا فى أن يقدموا لضيف مرموق إحدى الفتيات الجميلات لمؤانسته وإدخال البهجة على قلبه. وواقع الأمر أن مجتمعا مثل هذا المجتمع الذى كانت الزيجات فيه تتم وفق المصلحة أو الصفقة لم يكن يعرف كثيرا الزواج الناجح؛ لذا فإن البديل لهذه العلاقة الزوجية «الكريهة» كان فى اتخاذ المحظيات والخليلات، ونحن نعلم أن قلاعا كثيرة كانت غاصة بالأبناء اللقطاء، كما أن بعض أغانى الطروبادور تخاطب الغرائز الفجة والحب الحسى الذى قيل أنه كان يتم حتى فى مخازن السلاح بل وفى حظائر الخيول!

على أنه إلى جانب الحب الحسى ظهرت أشعار كثيرة فى الحب «العذرى» أو الأفلاطونى، وهو علاقة لا تمت بصلة إلى العلاقات الزوجية؛ لأن المحبوبة هنا سيدة متزوجة، ولن يكون العاشق لها زوجا فى يوم من الأيام. وهذا الحب «الأفلاطونى» ينصب دوما على سيدة من الطبقات الأعلى فى سلم النبالة، وهو حب من النوع «المحرم»، حيث تظل إمكانية الوصال مجرد سراب مستحيل. وهذه المحاذير التى تحول دون تحقق هذا العشق هى التى فجرت عند الشعراء صورا من الوله والصبابة ودفوف الأحزان عند جماعة الطروبادور. وعندما يشحب الأمل فى تحقيق هذا الحلم يتولد فى النفس إحساس بلذة هذا «الحلم المستحيل»، وهكذا اتخذت هذه العلاقة بين العاشق الولهان والمحبوب بعيد المنال أبعادا أشبه ما تكون بتلك العلاقة بين الفصّل وسيده الإقطاعى. وقد انتقل هذا الشعر الرومانسى من فرنسا إلى ألمانيا، حيث عرف باسم (Minnensang).

بقى أن نذكر عن هذه الطبقة أن بعض كبار الفرسان أو البارونات كانوا يتمتعون بثراء فاحش؛ فقد أصدر أحد السادة فى منطقة الليموزين بفرنسا أمره بأن تحرث أرضه ثم تبذر بقطع من عملة الفضة، كما أن بارونا آخر أمر بإعداد الطعام لضيوفه على نار الشموع، بينما قام سيد ثالث بإحراق ثلاثين من ثيرانه دفعة واحدة فى واحدة من احتفالاته!

وهذا الثراء الفاحش كان بطبيعة الحال من عرق ودم رقيق الأرض من جماعة الأقنان (Serfs) الذين ما كانوا يجدون ما يسد الرمق. وفى منتصف القرن الثانى عشر ظهر اتجاه نحو إضفاء صيغة قانونية على أبناء الطبقة الأرستقراطية بهدف تثبيت حق الوراثة فى عروق أبناء هذه الطبقة، ومنذ ذلك التاريخ ظهرت كلمة «جنتلمان» أى شخص من جنس (Gens) نبيل عن طريق الوراثة. وكان هذا الصك الاجتماعى يتم وفق طقوس خاصة تقام عندما يتخرج الشاب النبيل من تدريبه ليقلد فارسا. وجدير بالذكر أن أبناء هذه الطبقة كانوا يستخفون كثيرا بالطبقة البورجوازية

من أثرياء المدن الجديدة وغالبيتهم من التجار، ولذا فإن البارونات لم يتورعوا عن قطع الطريق عليهم وتجريدهم من تجارتهم التى يكدسون وراءها ثروات دون عناء حرب أو قتال.

الأقنان

هذا عن السادة، أما عالم العبيد فهو مختلف تماما؛ ففالح الأرض فى العصور الوسطى له عدة أسماء، فهو قنى (Serf) وهى كلمة مشتقة من كلمة «عبد» (Servus)، وهو أيضا «بروليتار» (Proletarius) وهى كلمة لاتينية تعنى ذلك الشخص الذى ينتمى إلى الطبقات الدنيا فى المجتمع، وهو أيضا «قالين» (Villein) بمعنى الأجير المرتبط بفلاحة الأرض ولا يبرحها أبدا. وكان الأقنان يؤلفون الغالبية العظمى من سكان غرب أوروبا فى عصر الإقطاع، وقد ارتبطوا بالأرض الزراعية فى القرى والكفور والضياع (Manors). وكانت كل قرية أو ضيعة تخضع لسيد واحد، ويحتجز السيد الجزء الأكبر من الأرض لتزرع لصالحه، وهو الجزء الذى عرف فى مصطلح العصر باسم «الدومين» (Demense)، بينما قسم الجزء الباقى إلى شرائح صغيرة ومبعثرة يقوم الفلاحون بزراعتها لحسابهم مقابل خدمات والتزامات ثقيلة وضرائب عينية أو مادية؛ غالبا ما كان الفلاح لا يجد بعد سدادها ما يسد رمقه وأطفاله. غير أن القن لم يكن عبدا بالمعنى الذى نعرفه عن العصر اليونانى الرومانى، ولكنه فى نفس الوقت لم يكن أيضا فى عداد الأحرار، فهو بين بين، بمعنى أنه لا يباع ولا يشترى، وإن كان لا يسمح له بحمل السلاح أو أن يمثل أمام المحاكم كواحد من المُحلَّفين. وكان القن رهن إشارة سيد الأرض، ولا يمكنه أن يبرح تلك الأرض فهو أشبه ما يكون بعبد للأرض نفسها. وفى مقابل استغلال شريط ضيق على هامش أرض الضيعة كانت على القن التزامات غاية فى القسوة، فعليه ضريبة سنوية عن هذا الشريط، وعليه ضريبة الرأس (Cens)، وضريبة العشور للكنيسة (Dime)، وعليه العمل سخرة ثلاثة أيام أسبوعيا فى أرض السيد (Corvée)، كما أنه يدفع ضريبة مقابل استخدام طواحين ومعاصر السيد، وأخرى لكى يسمح له بعبور قنطرة الناحية، ومن الأمور المفجعة أنه كان على القن أن يتنازل عن الليلة الأولى من زواجه لمتعة السيد (Ius Primae Noctis). وقد ظل هذا الجرم معمولا به فى جهات مثل بافاريا حتى القرن الثامن عشر!

وبينما يتلقى الفرسان (البارونات) إقطاعياتهم من السادة الأعلى فى سلم النبالة برمز السيف فى حفل مهيب، كان يسمح للقن بزراعة الأرض الهزيلة على الأطراف وفق رمز يدل على المهانة والمذلة وهو رمز «الشوكة والسوط» (Furcam et Flagellum). ومن الناحية النظرية كان على القن أن يؤدى للسيد كل ما يؤمر به، وليس له أن يعلم فى يومه شيئا عن أمر غده. ويبين لنا «الكتاب الأسود» لمقاطعة «بيتر بورة» بإنجلترا الذى ظهر ما بين أعوام ١١٢٥ ـ ١١٢٨م الواجبات التى كانت على القن فى تلك الناحية تجاه السيد؛ وهى تتضمن الخدمة فى الأرض على مدار

فصول السنة، ودفع ضريبته عن شريط الأرض الذى يفلحه لصالحه، وتقديم خمسين دجاجة وستمائة وأربعين بيضة، والعمل فى المرعى لرعاية حيوانات السيد، وتقديم حمل من الخشب، والمشاركة فى غسل وجز صوف الأغنام. وكان على زوجة القن وأولاده الصغار أن يعاونوه فى أداء ما يطلب منه من خدمات للسيد.

ولقد وُجِدَ عدد قليل من الفلاحين الذين كانوا أقل تعاسة من الأقنان، وهؤلاء إما أنهم كانوا يعملون على وسايا تابعة للتاج مباشرة (Terra Regis)،

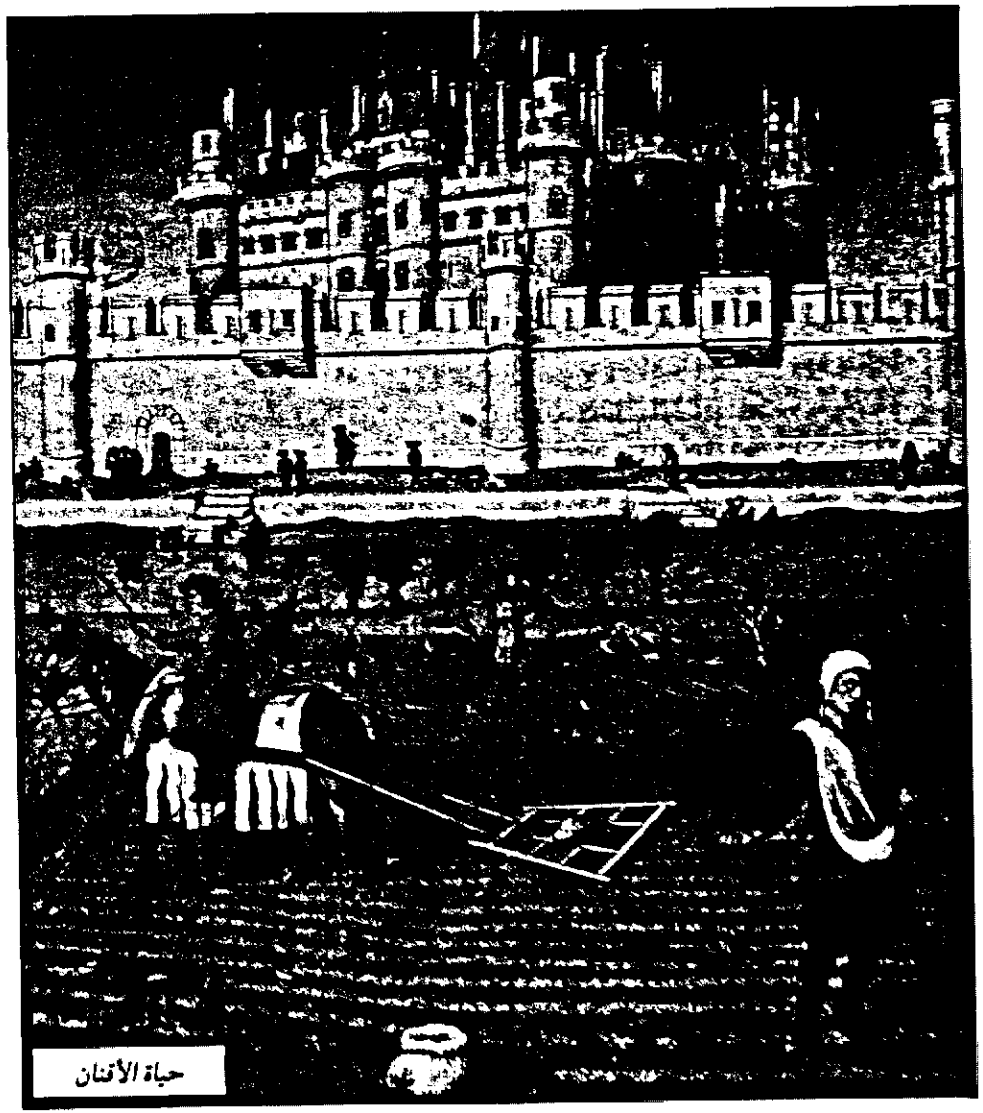

حياة الأقنان

أو أنهم كانوا يزرعون شريحة من الأرض دون تبعية واضحة لسيد بعينه. وقد احتفظت هذه الفئة القليلة من الفلاحين بشىء من الحرية ولكن فى مكابدة شديدة. وفى الطرف الآخر كانت هناك فئة أشد تعاسة من الأقنان، عرفوا أحيانا باسم «البوردارى» (Bordarii)، وأحيانا أخرى باسم «كوتارى» (Cottari) وهؤلاء هم أرباب الأكواخ التعسة التى كانت شبيهة بحظائر الحيوانات، والذين كانوا يقتاتون على ما يتساقط من أيدى بعض الفلاحين الأحرار فى مواسم الحصاد. وأبناء هذه الفئة من المعدمين يؤجرون أنفسهم لمن يقدم لهم ما يسد أودهم فحسب. وإلى جانب هؤلاء وأولاء كانت القرية الإقطاعية تعرف فئات من رعاة الأبقار (Vallarii)، ورعاة الأغنام (Bercarii)، ورعاة الخنازير (Porcarii)، هذا إلى جانب حداد القرية والنجار.

ولما أن ازدادت الأخطار الخارجية فى شكل الغزوات المتبربرة المتأخرة، ولما أن ضعف نفوذ الملوك واشتعلت الحروب الإقطاعية، اضطر الفلاحون الأحرار الذين كانوا يفلحون أرض التاج إلى الخضوع لضغوط وسطوة السادة المحليين، وتحولوا إلى أقنان بنفس الالتزامات التى سبقت الإشارة إليها.

وعندما اكتمل الهرم الإقطاعى فى القرن الحادى عشر، انقسم الناس فى غرب أوروبا إلى قسمين واضحين: الحر وغير الحر. والحر هو الذى يملك أرضا ويحمل سلاحا وله «وضعية اجتماعية» (Status)؛ أما غير الحر فليس له وضعية شرعية واضحة، فهو لا يجلس فى المحاكم ولا يعتد بشهادته ولا يسمح له بحمل السلاح، وعليه أن يدفع ضريبة الرأس، ولا يحق له الزواج من امرأة حرة، وهو مربوط بالأرض لا يبرحها. وقد صار للسادة حينذاك الحق فى شنق الأقنان على بوابات قلاعهم؛ ولذا فإن السادة كانوا يعلقون على مداخل قلاعهم عددا من المشانق دلالة على نفوذهم وسلطانهم.

النشاط الثانى إلى جانب الفلاحة فى القرية كان الرعى، وكانت الأبقار والأغنام والخنازير تعتمد فى مرعاها على نطاقات من البرارى والأحراش وأطراف الغابات. ولم يكن حق المرعى مطلقا للفلاحين، وإنما كان يحدد لكل فلاح عدد الأبقار والأغنام التى يحق لها المرعى بقدر ما يفلحه هذا الفلاح أو ذاك من مساحة من أرض السيد، إلى جانب دفع ضريبة عن هذا المرعى.

وبعد موسم الحصاد كانت تزال الأسوار المحيطة بالأرض الزراعية لكى تطلق عليها الأبقار والأغنام للرعى حتى يحل موسم إعداد الأرض للنوبة الزراعية التالية. كذلك كانت كل قرية تبقى

على نطاق من الأرض يخصص للحشائش التى تجمع وتخزن، وبعدها يسمح لحيوانات القرية بالمرعى على بقايا وجذور تلك الأعشاب، وكان هذا يتم بين شهرى أغسطس وفبراير من كل عام، وكان على جميع فلاحى القرية أن يدفعوا للسيد ضريبة مقابل ذلك عرفت باسم «حق العشب» (Herbogium). ولما أن بدأ استصلاح الأراضى على حساب الغابات والمرعى، باتت الثروة الحيوانية فى غرب أوروبا مهددة بالخطر، وقد وضحت الخطورة بشكل صارخ فى إنجلترا فى القرن الثانى عشر، فنحن نعلم أن مساحة قرابة ١٥,٠٠٠ فدانا من المرعى من مقاطعة لنكولن قد حولت دفعة واحدة إلى أرض زراعية، وقد نتج عن هذا التحول ذعر شديد، وأخذت الأبقار والأغنام تهيم على وجهها بل وتعتدى على الأراضى الزراعية. والأهم من هذا أن معدل ما أصبحت تدره البقرة من لبن على مدى أربعة وعشرين ساعة أسبوعيا قد تدنى ليحقق ثلاثة شلنات وست بنسات فقط!

وقد كانت الأغنام بوجه خاص مصدر رزق طيب للفلاح، إذ إن تربية مائة منها كان يضمن ربحا سنويا قدر وقتها بجنيه كامل، كما أن جلود الأغنام كانت سلعة مطلوبة لاستخدامها فى صنع رقائق الكتابة (Parchment)، وكذلك عرف عن أهل العصور الوسطى حبهم لجبن الضأن. وقد قدر كاتب من القرن الثالث عشر ما تدره عشرون من الأغنام بنفس القدر الذى تدره بقرتان حلوبتان وهو ما يعادل ٢٥٦ رطلا من الجبن ونصف دن من الزبد فى الأسبوع الواحد. وقد زودتنا سجلات العصر بأسعار رءوس الثروة الحيوانية، فقد كان الثور يباع بثلاثة شلنات، ورأس الضأن بأربعة بنسات، والبقرة بشلن واحد وثمانية بنسات، والخنزير بثمانية بنسات.

وفى أواخر القرن الثانى عشر عندما أزيلت الغابات والمراعى لزيادة الرقعة الزراعية، شحت المراعى فشهدت الأسواق ارتفاعا فى أسعار الثروة الحيوانية بما يعادل نصف الأسعار السابقة.

وفى بداية عصر الإقطاع كان إنتاج القرية يستهلك محليا، ولكن مع تطور الأحوال والأوقات وزيادة الرقعة الزراعية عرفت منتجات القرية طريقها إلى أسواق المدن المجاورة. وقد فرض السادة على الفلاحين ضريبة لنقل بضاعتهم على عربات خاصة عبر طرق وعرة إلى أسواق المدينة. وكان على القرويين بين الحين والآخر إمداد السادة وحامل التاج أيضا بمنتجات القرية إلى أماكن نائية جدا؛ فمثلا كان على بعض القرى فى سنة ١١٧١م أن ترسل ثلاثة آلاف شحنة من القمح إلى أيرلندا، حيث كان الملك الإنجليزى يحارب فى هذه الجزيرة؛ وفى سنة ١١٨٩م فرض على قرية كنت (Kent) أن تمد القصر الملكى بعدد ١٩٠٠ دجاجة بمناسبة حفل التتويج الملكى؛ وفى سنة ١٢٠٣م فرض على عدد معين من القرى أن تشحن عدد ٢٢١٧ رأسا من الخنازير إلى

بلدة روان (Rouen) فى ولاية نورماندیا، حيث كانت كتائب الملك الإنجليزى تحارب ضد الفرنسيين.

كان سيد القرية الإقطاعى يعهد بإدارة شئون القرية إلى موظف عرف باسم «ناظر الضيعة» (Bailiff)، وكانت مهمته ضمان تحصيل جبايات الضرائب من الفلاحين ورئاسة محكمة القرية. وقد وردت صورة هذا الموظف كريهة وقميئة فهو متسلط قاسٍ فى معاملته مع أهل القرية جميعا. وإلى جانبه وجد موظف آخر أقل شأنا مهمته متابعة سير العمل عن قرب. وقد احتفظ السيد فى قلعته بسجلات دقيقة عن حسابات الضيعة، ومنها نتعرف على قيمة الإيجارات والضرائب ومعدل الإنتاج السنوى للفدان، ودخل محكمة السيد، ومصروفات المبانى والترميمات، وتكلفة حفر الخنادق وبناء الأسوار، وكذلك أعداد قطعان الثروة الحيوانية.

وللسيد محكمة يحاكم أمامها الفلاحين، وهى تعقد مرة كل أسبوعين، ومن خلالها ينزل السيد العقاب بأى فلاح يتحرش بالمرعى أو الغابات أو الثروة الحيوانية، وقد خول السيد لنفسه الحق فى الفصل فى المخالفات التى تعكر صفو «سلام التاج»، ثم أخذت صلاحيات السيد تزداد حتى صارت سيفا مسلطا على رقاب الفلاحين، ثم أعطى السيد نفسه الحق فى تنفيذ أحكامه بنفسه ومن بينها حق الشنق لمن يضبط من الفلاحين متلبسا بالسرقة (Infangenetheof). كذلك جعل السيد من نفسه صاحب الحق فى محاكمة حالات الغش فى الجعة أو التلاعب بأسعارها.

وإلى جانب هذه المحكمة كان لكل مقاطعة محكمة كبرى عرفت باسم «مجلس المائة»، وكان يمثل القرية فيها «العريف» (Reeve)، وكاهن القرية وأربعة من حسنى السمعة. وفى حالة وقوع جريمة قتل فى القرية، كان على الأهالى أن يبلغوا عنها وأن يقبضوا على الجانى بأنفسهم لتقديمه للمحاكمة. وإذا فشل الأهالى فى ذلك يتعرضون لطائلة قانون الحفاظ على سلام الملك، وفى هذه الحالة لم يكن العقاب يحل على فلاح بعينه وإنما كان العقاب جماعيا على أهل القرية جميعا فى صورة غرامات جماعية تذهب لخزانة السيد وأحيانا لخزانة التاج.

من الشخصيات الجديرة بالذكر فى القرية كاهنها، ففى كنيسة القرية التى تخضع هى والكاهن للسيد، وفى صحن هذا البيت الدينى كان الفلاحون يجتمعون أيام الآحاد للصلاة، وفى أيام الأعياد للاحتفال، وفى أيام المواسم السنوية، وكانت الأسواق أحيانا تقام فى رحاب كنيسة القرية. وقد عرف عن كاهن القرية أنه كان ضحل الثقافة بشكل يدعو إلى الأسى، وقد وصف بأنه كان أقل جهلا بقليل عن سائر الفلاحين. وهو إلى جانب قيامه بواجباته الدينية من إقامة شعائر الصلاة والوعظ ومراسيم العماد والزواج والجنازات، كان طيلة الأسبوع يعمل فى الحقل بفأسه

على نطاق من الأرض يخصص للحشائش التى تجمع وتخزن، وبعدها يسمح لحيوانات القرية بالمرعى على بقايا وجذور تلك الأعشاب، وكان هذا يتم بين شهرى أغسطس وفبراير من كل عام، وكان على جميع فلاحى القرية أن يدفعوا للسيد ضريبة مقابل ذلك عرفت باسم «حق العشب» (Herbogium). ولما أن بدأ استصلاح الأراضى على حساب الغابات والمرعى، باتت الثروة الحيوانية فى غرب أوروبا مهددة بالخطر، وقد وضحت الخطورة بشكل صارخ فى إنجلترا فى القرن الثانى عشر، فنحن نعلم أن مساحة قرابة ١٥,٠٠٠ فدانا من المرعى من مقاطعة لنكولن قد حولت دفعة واحدة إلى أرض زراعية، وقد نتج عن هذا التحول ذعر شديد، وأخذت الأبقار والأغنام تهيم على وجهها بل وتعتدى على الأراضى الزراعية. والأهم من هذا أن معدل ما أصبحت تدره البقرة من لبن على مدى أربعة وعشرين ساعة أسبوعيا قد تدنى ليحقق ثلاثة شلنات وست بنسات فقط!

وقد كانت الأغنام بوجه خاص مصدر رزق طيب للفلاح، إذ إن تربية مائة منها كان يضمن ربحا سنويا قدر وقتها بجنيه كامل، كما أن جلود الأغنام كانت سلعة مطلوبة لاستخدامها فى صنع رقائق الكتابة (Parchment)، وكذلك عرف عن أهل العصور الوسطى حبهم لجبن الضأن. وقد قدر كاتب من القرن الثالث عشر ما تدره عشرون من الأغنام بنفس القدر الذى تدره بقرتان حلوبتان وهو ما يعادل ٢٥٦ رطلا من الجبن ونصف دن من الزبد فى الأسبوع الواحد. وقد زودتنا سجلات العصر بأسعار رءوس الثروة الحيوانية، فقد كان الثور يباع بثلاثة شلنات، ورأس الضأن بأربعة بنسات، والبقرة بشلن واحد وثمانية بنسات، والخنزير بثمانية بنسات.

وفى أواخر القرن الثانى عشر عندما أزيلت الغابات والمراعى لزيادة الرقعة الزراعية، شحت المراعى فشهدت الأسواق ارتفاعا فى أسعار الثروة الحيوانية بما يعادل نصف الأسعار السابقة.

وفى بداية عصر الإقطاع كان إنتاج القرية يستهلك محليا، ولكن مع تطور الأحوال والأوقات وزيادة الرقعة الزراعية عرفت منتجات القرية طريقها إلى أسواق المدن المجاورة. وقد فرض السادة على الفلاحين ضريبة لنقل بضاعتهم على عربات خاصة عبر طرق وعرة إلى أسواق المدينة. وكان على القرويين بين الحين والآخر إمداد السادة وحامل التاج أيضا بمنتجات القرية إلى أماكن نائية جدا؛ فمثلا كان على بعض القرى فى سنة ١١٧١م أن ترسل ثلاثة آلاف شحنة من القمح إلى أيرلندا، حيث كان الملك الإنجليزى يحارب فى هذه الجزيرة؛ وفى سنة ١١٨٩م فرض على قرية كنت (Kent) أن تمد القصر الملكى بعدد ١٩٠٠ دجاجة بمناسبة حفل التتويج الملكى؛ وفى سنة ١٢٠٣م فرض على عدد معين من القرى أن تشحن عدد ٢٢١٧ رأسا من الخنازير إلى بلدة روان (Rouen) فى ولاية نورماندیا، حيث كانت كتائب الملك الإنجليزى تحارب ضد الفرنسيين.

كان سيد القرية الإقطاعى يعهد بإدارة شئون القرية إلى موظف عرف باسم «ناظر الضيعة» (Bailiff)، وكانت مهمته ضمان تحصيل جبايات الضرائب من الفلاحين ورئاسة محكمة القرية. وقد وردت صورة هذا الموظف كريهة وقميئة فهو متسلط قاسٍ فى معاملته مع أهل القرية جميعا. وإلى جانبه وجد موظف آخر أقل شأنا مهمته متابعة سير العمل عن قرب. وقد احتفظ السيد فى قلعته بسجلات دقيقة عن حسابات الضيعة، ومنها نتعرف على قيمة الإيجارات والضرائب ومعدل الإنتاج السنوى للفدان، ودخل محكمة السيد، ومصروفات المبانى والترميمات، وتكلفة حفر الخنادق وبناء الأسوار، وكذلك أعداد قطعان الثروة الحيوانية.

وللسيد محكمة يحاكم أمامها الفلاحين، وهى تعقد مرة كل أسبوعين، ومن خلالها ينزل السيد العقاب بأى فلاح يتحرش بالمرعى أو الغابات أو الثروة الحيوانية، وقد خول السيد لنفسه الحق فى الفصل فى المخالفات التى تعكر صفو «سلام التاج»، ثم أخذت صلاحيات السيد تزداد حتى صارت سيفا مسلطا على رقاب الفلاحين، ثم أعطى السيد نفسه الحق فى تنفيذ أحكامه بنفسه ومن بينها حق الشنق لمن يضبط من الفلاحين متلبسا بالسرقة (Infangenetheof). كذلك جعل السيد من نفسه صاحب الحق فى محاكمة حالات الغش فى الجعة أو التلاعب بأسعارها.

وإلى جانب هذه المحكمة كان لكل مقاطعة محكمة كبرى عرفت باسم «مجلس المائة»، وكان يمثل القرية فيها «العريف» (Reeve)، وكاهن القرية وأربعة من حسنى السمعة. وفى حالة وقوع جريمة قتل فى القرية، كان على الأهالى أن يبلغوا عنها وأن يقبضوا على الجانى بأنفسهم لتقديمه للمحاكمة. وإذا فشل الأهالى فى ذلك يتعرضون لطائلة قانون الحفاظ على سلام الملك، وفى هذه الحالة لم يكن العقاب يحل على فلاح بعينه وإنما كان العقاب جماعيا على أهل القرية جميعا فى صورة غرامات جماعية تذهب لخزانة السيد وأحيانا لخزانة التاج.

من الشخصيات الجديرة بالذكر فى القرية كاهنها، ففى كنيسة القرية التى تخضع هى والكاهن للسيد، وفى صحن هذا البيت الدينى كان الفلاحون يجتمعون أيام الآحاد للصلاة، وفى أيام الأعياد للاحتفال، وفى أيام المواسم السنوية، وكانت الأسواق أحيانا تقام فى رحاب كنيسة القرية. وقد عرف عن كاهن القرية أنه كان ضحل الثقافة بشكل يدعو إلى الأسى، وقد وصف بأنه كان أقل جهلا بقليل عن سائر الفلاحين. وهو إلى جانب قيامه بواجباته الدينية من إقامة شعائر الصلاة والوعظ ومراسيم العماد والزواج والجنازات، كان طيلة الأسبوع يعمل فى الحقل بفأسه

كسائر الفلاحين، وفى كثير من المناطق كان على كاهن القرية أن يعمل يوما كل أسبوع فى فلاحة أرض السيد سخرة. ولعل الامتياز الوحيد للكاهن أنه كان يحصل على شريط من أرض القرية بلغ ضعف الحصة التى كانت لبعض الفلاحين المميزين فى القرية. وكان على كاهن القرية واجب آخر هام؛ فهو المسئول عن «عجل» القرية لتهجين الأبقار، وعن «كبش» القرية لتهجين الأغنام، وعن «جواد» القرية لإخصاب إناث الخيول. وقد عرف عن الكاهن أيضا إلحاحه الدائم على التبرعات ليصلح من حال الكنيسة وليرسل إلى خزانة الأسقفية التى تتبعها القرية نصيبها المقرر، وكان هذا يشمل فيما يشمل البيض والدجاج وغيرها من منتجات الريف. ثم جاءت ضريبة «العشور» (Tithe) فشملت كل المحاصيل والثروة الحيوانية والأصواف والجبن والزبد والعسل والفاكهة.

النبش فى قبور القديسين

الأعياد

ولقد ارتبطت الأعياد والاحتفالات الدينية فى مختلف القرى الأوروبية بعادات وثنية قديمة لم تفلح الكنيسة فى تخليص الناس منها. ولفهم روح هذا العصر لا بد من فحص الدلالات فى لغة التخاطب المحلية العامية وفى محتوى الصلوات الفردية والجماعية، وفى اعترافات المصلين عن ذنوبهم، وفى أفكارهم عن المعجزات، وفى قصص الجن والعفاريت، وفى ما قد يتساقط من على

موائد الصفوة المتعلمة (Docti) لكى يلتقطه ويلوكه البسطاء من غير المتعلمين (Idiotae). ومن هذا المنبع الأخير يمكن للمرء أن يقول بأن تبعية ـ إن لم يكن رق ـ الفلاحين اقتصاديا وسياسيا قد أضيفت إليهما تبعية أخرى فى عصر الإقطاع وهى التبعية العقائدية، فالمعروف أن السلطات الدينية عمدت إلى عدم ترجمة بعض النصوص الدينية إلى اللهجات المحلية كى تحجبها عن بسطاء الناس إما لصعوبة إدراك مغزاها وإما لكى تبقى حكرا عليها، وعلّل كبار رجال الدين هذا الموقف بأن العامة يخلطون بين القديسين والأنبياء وبين أبطال الملاحم الجرمانية القديمة. والحق أن عامة الناس كانوا شديدى الإعجاب بقصص البطولة القديمة أكثر من إعجابهم بسير القديسين. ويروى الراهب الألمانى سيزاروس من هستريباخ كيف أنه ذات يوم كان يعظ جماعة من الرهبان، فلاحظ أن المَلَلَ أخذ يتسرب إلى نفوسهم إلى حد أن بعضهم راح يغط فى النوم بل وفى الشخير، ولكى يوقظ هؤلاء من غفلتهم ونعاسهم عمد إلى تغيير موضوع موعظته هاتفا: استمعوا أيها الإخوة إلى وأفيقوا إلى حكاية جميلة ـ كان ياما كان فى ماضى الزمان ملك أسطورى اسمه آرثر سيد فرسان قومه الذى طبقت شهرة مائدته المستديرة كل الآفاق... إلخ. وعلى التو تنبه الحضور وأفاق الجميع واشرأبت الأعناق وأرهفت الأذان لسماع بقية الرواية عن الملك آرثر وزوجته الفاتنة چونيڤير وعاشقها الفارس لانسلوت. ثم توقف الواعظ فجأة عن الاستطراد فى قصة آرثر وصرخ فيهم قائلا: «أرأيتم أيها الرهبان كيف أن الحديث عن الأمور السماوية لا يثير انتباهكم، بينما الحديث عن الدنيويات ومفاسدها يوقظكم من السبات العميق؟!».

مبارزة

والحق أن إنسان العصور الوسطى لم يكن يفهم التجريد، وعليه فإن المعانى الروحية كانت فى حاجة ماسة إلى شىء ملموس وحسى لإدراك فحواها. ولم يكن التصور الشعبى ندا للمحسنات البلاغية والمجاز والكناية والرمز اللفظى، وليس بمستغرب أمام هذا أن لجأ رجال الدين إلى الأيقونات والتصاوير والتماثيل كوسائل تعليمية لعامة الناس. وقد سرى المثل الشعبى فى تلك الأوقات بأن «الرب ليس حريصا على قواعد اللغة بقدر ما هو حريص على قلوب الناس وسرائرهم». وليس غريبا أيضا أن عددا غير قليل من كتاب الحوليات فى العصور الوسطى كانوا يفاخرون بفجاجة أسلوبهم وبقصورهم فى البلاغة والآجرومية. فمثلا يعترف جريجورى أسقف تور مؤرخ الفرنجة أنه لا يدعى علما فى الأدب والأسلوبية، وبأنه كاتب بسيط لا يجيد الحزلقة، متمثلا عن الحكمة فى اختيار المسيح لحواريه من صيادى السمك البسطاء وليس من الفلاسفة.

كذلك اضطر وعاظ العصر إلى تبسيط عظاتهم كى تتوافق مع البيئة والمزاج الشعبى؛ فمثلا وجد سيزاريوس من آلس نفسه فى إحدى مواعظه ينصح المصلين بالاقتصاد فى نشاطهم الجنسى، موضحا لهم بأن العلاقات الزوجية قد شرعها الله للتناسل وإعمار الأرض بنسل صالح، وعليه فإن النهم الجنسى غير محبب، مثله فى هذا مثل الحقل الذى إن أجهدته بالحرث والبذر تباعا فى موسم واحد أرهقت التربة وجاء الحصاد هزيلا!

هذا، وقد أعطى أهل العصر للأرقام دلالات غيبية؛ فرقم ٤ هو رقم الاتزان والاستقرار؛ ورقم ١١ هو رقم المرض والعجز واقتراب الموت، وكذلك شاعت فى العصر روايات متعددة عن غرائب الكون؛ من قبيل ذلك تلك الرواية عن ذئب هجم على إحدى القرى واختطف صبية إلى الغابة لكى تقوم بانتزاع عظمة من حلق ذئب آخر، وبعد قيام الصبية بالمهمة الوعرة أعادها الذئب على ظهره سالمة تماما. وقد كثرت أيضا القصص عن الشياطين وألاعيبهم وشباكهم، وعن النساء اللائى يلدن مخلوقات مشوهة بسبب مضاجعة الشياطين، وعن حبائل اليهود لتدنيس القربان المقدس، وعن امرأة سمعت محادثة مفهومة بين بعض الديكة والفراريج، وعن القروى الذى عثر على شجرة تثمر أحذية بدلا من الفاكهة! وفى مجتمع كهذا فرض رجال الدين كفارات عدة على الناس حتى يحدوا من هذه الهلوسات وعواقبها الوخيمة، وكانت الكفارة تشمل الصلاة والصيام والطرد المؤقت من القرية، وبات لكل خطيئة كفارة تغسل أوزارها. وقد سمحت بعض الأروقة الدينية للمذنب أن يستأجر شخصا آخر ليقوم بالصيام بدلا منه (Justus)، وكان على المقتدر من الناس أن يدفع عشرين شلنا للصائم المستأجر، أما الأقل غنى فكان يدفع عشرة شلنات، والأدنى من ذلك ثلاثة شلنات فقط. ومن الكفارات أيضا الحكم على الآثم بأن ينام لفترة محددة فى جوف

أحد القبور بجوار جثث الموتى، أو أن يجلد نفسه بالسوط عدة مرات، أو أن ينزع من فروة رأسه اثنتى عشرة شعرة!

هذا، وقد كان اعتقاد الناس فى الأولياء والقديسين شديدا فى العصور الوسطى؛ ولهذا فقد حرصوا على اقتناء رفاتهم ومخلفاتهم ورماد قبورهم، وقد كان هذا سببا فى رواج الاتجار بآثار القديسين، بل إن سرقة رفات القديسين باتت أمرا منتشرا ليس فقط بين العامة، وإنما أيضا بين كبار رجال الدين أنفسهم، وقد وصل الأمر إلى أن البعض قد جاهر بأن قتل أحد القديسين لا حرج فيه؛ وذلك لضمان دفن رفاته فى هذا المكان أو ذاك للتبرك به وبكراماته! ويروى عن أهالى جبال أومبريا الإيطالية أن أحد الصالحين هناك قرر فجأة هجران المنطقة والاعتزال بعيدا فى ركن قصى، فانزعج أهل المنطقة وتصايحوا: «إن كان يصعب علينا الإبقاء عليه معنا حيا، فلنبقه معنا مقتولا». هذا، وقد خصَّ العامة هؤلاء الصالحين والقديسين بصفات وكرامات دقيقة التخصص، فهذا يعين على الشفاء من أمراض الجلد، وذاك للعيون، وثالث لأمراض المعدة، ورابع للجهاز التنفسى وهكذا، بل إن هناك من خُصوا بالمقدرة على طرد الفئران من المنازل! ومن حكايات العصر ونوادره أن ذئبا هاجم أحد الصالحين وهو فى الطريق وابتلع حماره، فلعنه القديس وكبله ثم سخره ليقوم بأعباء الحمار الضحية، وصار الذئب المتوحش مطية ملجمة طيعة يؤدى للرجل واجبات الحمار القتيل!

كان طبيعيا فى هذا المحيط الغيبى أن يظهر العديد من المشعوذين والأنبياء الكذبة، ومن هؤلاء واحد وفد من إسبانيا إلى مدينة تور الفرنسية وهو يقود ثلة من العوام والساقطات من النساء، وعند القبض عليه عثر فى حقيبته على جذور نباتات، وأسنان موتى، وعظام فئران، ومخالب قطط وأشياء أخرى غريبة. ويجب أن نلاحظ فى هذا الصدد أن الكنيسة الرومانية كانت لا تمانع فى التبرك بآثار القديسين الذين تعترف بهم رسميا، ولكنها حرَّمت ما دون ذلك فى الأوساط الشعبية ودمغته بالهرطقة أو السحر الشعبى (Maleficium).

وقد اعتاد الناس عندما تحل ضائقة أو نازلة بناحيتهم أن يهرعوا إلى مقبرة وليهم يستصرخونه للنجدة، وإذا لم تنقشع الغمة فإنهم يقتحمون مقبرة «الولى» ويطرحون رفاته أرضا وينثرون الأشواك على عظامه ويتطاولون عليه سبا وتقريعا!

أما عن سلوى الفلاحين فى القرية فكانت تتمثل فى حفلات الرقص فى الخلاء أو مشاهدة صراع الثيران والديكة، أو التزحلق على الجليد، أو شراب الجعة حتى الثمالة أو الجلوس لاستماع النادر من القصص والحكاوى والطُّرف.

شهد القرن الثانى عشر اتساعا فى رقعة الأرض الصالحة للزراعة بعد أن أزيلت الغابات، ولكى يُرغب السادة أصحاب هذه الأراضى الفلاحين وفى العمل عليها اضطروا إلى أن يبرموا معهم مواثيق مكتوبة تحتوى على شروط أفضل من ذى قبل، وفى فرنسا أصبحت كل قرية تحصل على مثل هذا الميثاق تعرف باسم «القرية الجديدة» (Villeneuve).

هذا، وقد ساعد تداول العملة فى تمكين نفر من الفلاحين من اقتصاد مبلغ متواضع اشتروا به رقعا من الأراضى من بعض السادة. والعامل الأهم الذى ساعد على تحطيم أغلال القنية هو تلك الثورات التى اندلعت فى كل من فلاندرز وفرنسا وإنجلترا فى القرن الرابع عشر.

ثورات الأقنان

والحق أنه مع ازدياد التعليم فى نهاية القرن الثالث عشر بدأت تسرى فى بلدان غرب أوروبا بعض الأفكار المستنيرة التى تناقلها الناس فأثارت فى نفوسهم فضولا وتطلعا إلى نسمة الحرية. كما أن الحروب التى تتابعت بين الملكيات الإقطاعية قد جرَّت على الفلاحين وبالا شديدا، خاصة تلك الضرائب الثقيلة التى فرضها عليهم الملوك للاستمرار فى حروبهم.

فى فلاندرز

قامت أولى الثورات فى أراضى فلاندرز، واستمرت من سنة ١٣٢٣م حتى ١٣٢٨م، بقيادة زعيم اسمه نيقولا زانكين. وحطَّم الأقنان بعض قلاع السادة وقتلوا بعضهم واعتدوا على نسائهم، ولكن جيشا ملكيا فرنسيا قضى عليهم فى وحشية زائدة.

فى فرنسا

ثم اندلعت ثورة الأقنان فى فرنسا سنة ١٣٥٨م بزعامة وليم كال ولقبه «چاك بون أوم» (Jacques Bonhomme) أى چاك «الأبله». وقيل: إن جماعة منهم قامت بقتل أحد السادة وقاموا بشواء لحمه على النار على مشهد من زوجته وأولاده، ثم أمروا الزوجة أن تشاركهم فى تناول هذا الشواء الآدمى لزوجها. وقد قام الجيش الفرنسى بمذابح رهيبة ضد هؤلاء الأقنان وتمَّ قمع الثورة فى وحشية بالغة.

فى إنجلترا

كذلك قام الأقنان فى إنجلترا سنة ١٣٨١م بثورة عارمة ضد السادة الإقطاعيين، وكانوا تحت زعامة والتر تيلور والمصلح الدينى چون بول، الذى راح يشهِّر برجال الدين وفساد ضمائرهم وثرواتهم المتضخمة. ولكن الجيوش الملكية قبضت على چون بول وتم شنقه فى ١٥ يوليو ١٣٨١م، ثم قضى أيضا على والتر تيلور وأتباعه بأمر من الملك ريتشارد الثانى.

ولكن إذا كانت القوى الإقطاعية وعلى رأسها الملوك الإقطاعيون قد نجحوا فى خداع الأقنان وإجهاض ثوراتهم، إلا أن هذه الانتفاضات فى كل من فلاندرز وفرنسا وإنجلترا فى القرن الرابع عشر كانت علامات كبرى على الطريق إلى الانتهاء من جحيم عصور الظلام فى أوروبا!

مراجع الكتاب

(1) Augustine (St.), Civitas Dei. (Loeb Classical Library). London, 1965.

(2) Barton, C. A., The Sorrows of the Ancient Romans. Princeton University Press. 1993.

(3) Besnier, L`Empire Romaine de L`Avenement de Séveres au Concile de Nicée. Paris, 1937.

(4) Bloch, M., Feudal Society (Trans. by L. A. Manyon). London, 1961.

(5) Detaillis, C. P., La Monarchie Feodale en France et en Angleterre. Paris, 1933.

(6) Gurevich, A., Medieval Popular Culture. Cambridge, 1992.

(7) Lane - Pole, A., Prom Domesday Book to Magne Carta. Oxford, 1955.

(8) Owst, G. R., Literature and Pulpit in Medieval England. London, 1937.

(9) Painter, S., A History of the Middle Ages (284 - 1500 A.D.). London, 1966.

- إسحق عبيد: أوروبا فى بحر الظلمات. دار القلم/ الكويت ١٩٩٥م.

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول: روما تنمى من بناها:	٢
بومبى وقيصر ـ مارك أنطونى وكليوباترا ـ أوكتافيان أغسطس ـ آداب العصر ـ المجالدون ـ الأحوال الاقتصادية للإمبراطورية الرومانية ـ العبيد ـ الأحوال الدينية.	٢-٢٢
الفصل الثانى: الغزوات المتبربرة:	٢٣
القوط ـ معركة أدريانوبل (٣٧٨م) ـ ثيودوسيوس الكبير ـ آلارك زعيم القوط الغربيين ـ ستيليكون ـ سقوط روما (٤١٠م) ـ آتيللا والهون ـ جنزريك والوندال ـ القديس أغسطينوس يحتضر ـ سقوط قرطاج (٤٣٩م) ـ البابا ليون والهون.	٢٤-٤٤
الفصل الثالث: شارلمان والنهضة الكارولنجية:	٤٥
الميروفنجيون ـ كلوفس ـ حاجب البلاط ـ الملوك العاطلون ـ كارل مارتل ـ بين القصير ـ الفرنجة واللومبارد ـ هبة قسطنطين المزيفة ـ البابا ليون الثالث وتتويج شارلمان إمبراطورا رومانيا (٨٠٠م) ـ النهضة الكارولنجية وأعلامها.	٤٦-٦٩
الفصل الرابع: الفرسان والأقنان فى مجتمع الإقطاع:	٧٠
تصدع بنيان شارلمان ـ الكونتات والأدواق والبارونات ـ بلاط الملوك الإقطاعيين ـ العقد الإقطاعى ـ فارس العصور الوسطى وقلعته ـ السيد والفصل ـ شعراء التروبادور ـ عالم الأقنان.	٧٠-٩٨
مراجع الكتاب	٩٩
المحتويات	١٠٠

This book is an attempt to understand the spirit of the Medieval Europe through its main sources, particularly documents, literature, and folklore. The prologue of this book concentrates on the deterioration of the Roman Empire, which came from inside and led to its fall. Then the author presents a brief study to the Germanic and Mongolian tribe's invasion's of the provinces, thus deteriorating the Empire.

During this stage of darkness and declining, a German personality appeared to put an end to such state, This personality was the Great Charlemagne. After the end of the era of "the Carolingian Renaissance", the feudal system spread all over Frankish Europe.

The author highlights the conditions of the Medieval society, which constituted of Castles, Lords and Serfs, and tries to illustrate their every day life, whether in the Royal Courts or in the Castles of the Lords, beside the economic and social status of the Serfs and the ordinary people of this Medieval Society.

Dr. Ishak Ebeid

مراكز الحضارة والمعرفة

تدور هذه الدراسة حول ثلاثة محاور هى: التاريخ، وأوروبا، ثم المقصود بالعصور الوسطى. وعلى هذه الأسس الثلاثة يمكن فهم الأوضاع الحضارية التى خيمت على الغرب الأوروبى فى حقبة زمنية لها وضعها الخاص على مسرح التاريخ.

أما التاريخ فيقصد به فى هذا العرض مسيرة الإنسان وأوضاعه إما على مر العصور، أو فى حقبة معينة مما اصطلح على تسميته وتعريفه بعصور التاريخ، ويرتبط هذا البحث بالحقبة التاريخية التى تعرف باسم العصور الوسطى؛ وذلك أن طبيعة التاريخ تطلبت أن يقسم إلى ثلاثة أقسام أو عصور: قديمة، ووسطى، وحديثة، ولكل عصر طابعه وخصائصه وإطاره الزمنى، مما يترك بصماته واضحة فى تحديد معالم كل عصر وإكساب الناس فيه طابعا يجعلهم ينظرون إلى الحياة نظرة تختلف عن نظرة أهالى العصور الأخرى ـ السابقة عليها واللاحقة بها.

وبعبارة أخرى، فإن لكل عصر من عصور التاريخ طابعه الخاص المميز الذى يضفى عليه صورة حضارية تختلف فى كيانها عما ساد العصور الأخرى.

ولا يعنى ذلك وجود قطيعة بين عصور التاريخ بعضها وبعض، وإنما هى مظهر للتباين فى الخصائص داخل إطار كبير يجمع بين ملامح العصور التاريخية.

نماذج من رجال الدين فى العصور الوسطى

ومن ناحية أخرى فإن هذا التباين جعل لكل عصر طابعه المميز، فالعصور القديمة لها طابعها الذى يرتبط بالمعجزات والأوثان، والعصور الوسطى اتسمت بتغلب المسحة الدينية وتحكمها فى مسيرة الحكام والمحكومين، والعصور الحديثة جنحت نحو التحرر من سيادة الدين ورجال الدين.

ولعله من الواضح أن العصور الوسطى استمدت اسمها من موقعها بين العصور القديمة والحديثة، وحسبها أنها تمثل حلقة رئيسية فى التاريخ، وإذا كان لكل عصر من عصور التاريخ طابعه المميز ولونه الذى يضفى عليه بكسبه شخصيته وكيانه، فإن العصور الوسطى تمتاز بالطابع الدينى الذى يبدو متسلطا على كل أركان الحياة، ويكفى أن هذه العصور شهدت انتشار المسيحية حتى صارت للكنيسة الكلمة الأولى فى تحديد مسار البلاد والعباد، واستمر الحال على ذلك منذ الاعتراف بالمسيحية فى أوائل القرن الرابع حتى ظهور الإسلام فى القرن السابع، وعندئذ اتسعت دائرة الإسلام على حساب المسيحية والوثنية وبخاصة فى منطقة الشرقين الأوسط والأدنى حيث غدا للإسلام وأهله الكلمة الأولى فى توجيه سلوك البلاد والعباد فى شطر كبير من العالم، ولم يكن هناك مفر من حدوث صدام بين أتباع هاتين الديانتين: الإسلام والمسيحية وبدأ ذلك الصدام يتخذ شكلا عنيفا فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد، وأطلق عليه اسم الحروب الصليبية، وهى حروب طويلة دارت بين الغرب الأوروبى المسيحى ودولة الإسلام، واتخذ فيها المحاربون الغربيون من الصليب شعارا لهم، وفى غمرة هذا الصدام أدرك الغرب الأوروبى أن المسلمين يفوقون العالم المسيحى فى مجال الحضارة والعلم وأمام هذه الحقيقة أخذ الغرب الأوروبى المسيحى يصحو من غفلته، فأقبلوا على مؤلفات العرب فى شتى ألوان الآداب والعلوم والفنون، وعكفوا على

الإمبراطور شارلمان

ترجمتهـا إلى اللاتينية وهى اللغة الرسميـة ولغة العلم وأهله فى غرب أوروبا فى تلك العصور، وهكذا بدأت صحوة حضـارية شاملة فى العالم المسيحى الأوروبى - وبخـاصـة مـغربه - فـى الوقت الذى بدأت بوادر الإنهـاك تظهـر فى العـالم الإسلامى.

ذلك أن الغـرب الأوروبى فى العـصور الوسـطى شهـد عـدة صحـوات حضارية ـ اكتسبت فى التاريخ لقب: نهضات تخللتها حالات ركود وجمود، قد يطول مداها، مما جعل كثيرا من المؤرخـين يطلقون على تلك العصور فى الغرب الأوروبى اسم «العـصور المظلمـة» وفى وسط هذا المحيط المظلم كـان ثمة شـعاع مضىء ينبـعث بين حين وآخـر ليعبـر عن نهضة حـضارية، وأهم هذه النهـضات كانت النهـضة الكارولنجية نسبة إلى البيت الكارولنجى الذى ينتسب إليه شارلمان، وكانت هذه النهضة فى القرن السـابع وأوائل القرن الثامن للميلاد، والنهضة الأوروبية فى القرن الثانى عشر ومنها انبعثت النهضة الأوروبية الحديثة.

المراكز الدينية

وما دامت العصور الوسطى بالنسبة للغرب الأوروبى تمثل عصور الإيمان، فلابد وأن يكون للهيئات والمؤسسـات الدينية مكان كـبير فى البنيـة الحضارية لتـلك العصور، هكذا فـإن أول ما يسترعى نظر البـاحث فى تاريخى الغرب الأوروبى ـ الحضارى وغـير الحضارى ـ فى تلك الحـقبة الزمنية هو ذلك النفـوذ الواسع والدور الرئيسى الضخم الذى نهضت به البـابوية ورجال الدين من جهـة، وبالتالى المؤسـسـات الدينية من كاتدرائيـات وأديرة، ونحوها من جهـة أخرى، والواقع أن الكنيـسة الغربية وجدت أن خير وسيلة لجمع شملها وتحقيق هيمنتها هى أن توحد نشاطها تحت لواء البابوية، وهكذا غدا البابا رأس الكنيسة الكاثوليكية، السـاهر على حماية قوانينها ونظمها، إنه فى نظر الكاثوليك نائب المسيح وخليفة القديس بطرس زعـيم الحواريين ومقدم الرسل الذى اتخذ منه المسيح صخرة بنى عليها كنيسته، لم يكن البابا مـجرد صاحب وظيفة وإنما كان يمثل القوة الموجهة للعالم المسيحى الكاثوليكى الغربى، ومن هذا المنطلق أخذت البـابوية تنشر نفوذها وتبسط سيادتها

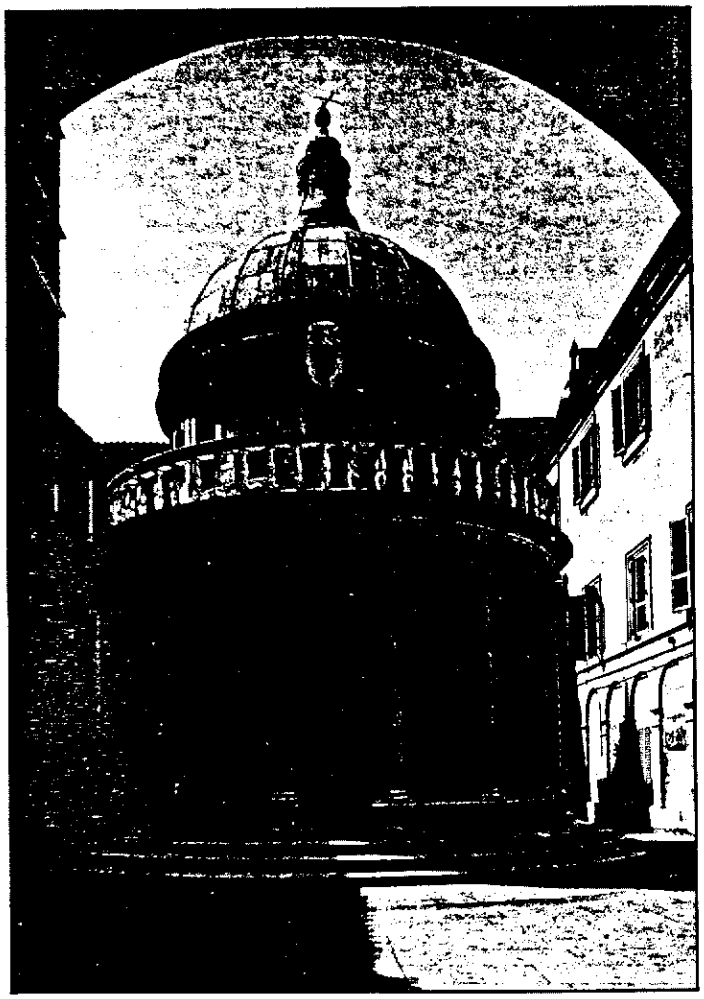

كاتدرائية القديس بطرس

رأس الكنائس الكاثوليكية فى العصور الوسطى

على أسـس إقطاعـيـة راسخة ـ شـأنها فى ذلك شـأن الأباطرة والملوك فى غـرب أوروبـا، وجـاء سـقـوط الإمـبـراطورية الغربية فـى القرن الخامس ليجـعل من البابويـة القوة الوحيـدة والزعامـة العليا التى يمكنها حماية التراث الرومـانى وسط موجـات التـفكك والانهـيـار التى عـمت الغـرب الأوروبى منذ أواخر القـرن الخامس فصـاعدا. وفى وسط هذه الأجواء برزت المكانة العليا لبابا روما شـملت الكيان السياسى فضـلا عن الكيان الدينى، على أن السلطة السياسـية فى غرب أوروبا ممثلة فى الأباطرة والملوك لم تخضع فى سهولة للسـلطـة الدينية وعلى رأسها البابا، مما أدى إلى تناطح بين السلطتين: أيهما يسبق الآخر وأيهما يتقدم الآخر فى زعامة العالم الغربى، البابا أم الإمبراطور وانتهى الأمر بـصراع طويل بين البابوية والإمبراطورية استمر عـدة أجيال، إلى ما بعد القرن الثامن عشر للميلاد، وطوال هذه القرون بين القـرنين الخامس والثالث عشر للميلاد، كانت الكنيسة فى غرب أوروبا هيئة دينية سياسية، يتربع على رأسها البابا بوصفه نائب المسيح، ويتعامل

مع ملوك أوروبا وأمرائها على أنهم أبناء الكنيسة وهو أبوها وهكذا نجد الحكومة البابوية فى أواخر القرن الثانى عشر وقد امتلكت سلطات دينية ودنيوية لا حدود لها، بحيث لم يعد البابا مجرد زعيم هيئة مستقلة من رجال الكهنوت وإنما اعتبر نفسه رأس العالم المسيحى بأجمع وكلمته مسموعة فى أركان الكيان الاجتماعى والسياسى والفكرى والاقتصادى فى غرب أوروبا، أما الأوامر والقرارات واللوائح البابوية فكانت تصدر عادة فى شكل مراسيم تدون باللغة اللاتينية، كذلك ترتب على انتشار المسيحية ظهور كثير من المشاكل التى تطلبت عقد مجامع لحلها، وقد تباين وضع هذه المجامع، فمنها ما كان مجامع عالمية مسكونية، ومنها ما كان محليا، هذا عدا المجامع الأسقفية وتتألف من قساوسة الكنائس برئاسة الأسقف التابعين له، ذلك أن العالم المسيحى الغربى انقسم إلى أسقفيات كبيرة يرأس كلا منها أسقف يشرف على شؤون الكنيسة ورجال الدين فى أسقفيته. ومن ناحية أخرى فإن كل أسقفية انقسمت إلى أبرشيات صغيرة، يدير شؤون كل منها قسيس يتبع الأسقف الذى تقع الأبرشية فى نطاق أسقفيته.

دير بندكت من الداخل

وبالإضافة إلى النظام الكنسى بأبعاده ونظمه، عرف الغرب الأوروبى الديرية فى صورة قوة فعالة منذ القرن السادس للميلاد على عهد القديس بندكت. وقد قام النظام البندكتى على أساس اشتراك أعضاء الدير فى حياة منظمة فيتعاون الجميع فى العبادة والعمل، تحت رئاسة رئيس

منهم يختارونه بأنفسهم، ولكن عزلة الدير البندكتى عرضته فى أحوال كثيرة للأخطار والتدهور مما ظهر أثره فى أواخر القرن التاسع عندما صار واضحا أن الأديرة البندكتية فى غرب أوروبا فى حاجة إلى إصلاح شامل. وتمت هذه الحركة الإصلاحية فعلا فى القرن العاشر تحت إشراف دير كلونى فى بربنديا، هذا، وإن كان تيار الإصلاح لم يستمر طويلا، مما أدى إلى ظهور معالم الضعف على الحياة الديرية فى غرب أوروبا مرة أخرى فى أوائل القرن الثانى عشر.

وقد تعرضت الحياة الديرية فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى لكثير من الهزات، إلا أنه لا يمكننا أن نقلل من الحقيقة الكبرى وهى أن الديريين شاركوا مشاركة فعالة فى عملية البناء الحضارى الذى حفظت للحضارة الغربية كيانها بعد الغزوات الهدامة التى تعرض لها الغرب الأوروبى بين القرنين الخامس والتاسع للميلاد، ففى وسط محيط واسع من الفوضى والتفكك والتصدع، ظلت الأديرة مراكز للنشاط الحضارى، ويبدو ذلك فى أن معظم رجال الفكر والعلم فى تلك الحقبة كانوا من الديريين، كما أن التعليم كان ديريا إلى مدى بعيد. وقد غدت الأديرة - وبخاصة البندكتية مراكز للتعليم والتعلم، قصدها رجال العلم ليعلموا

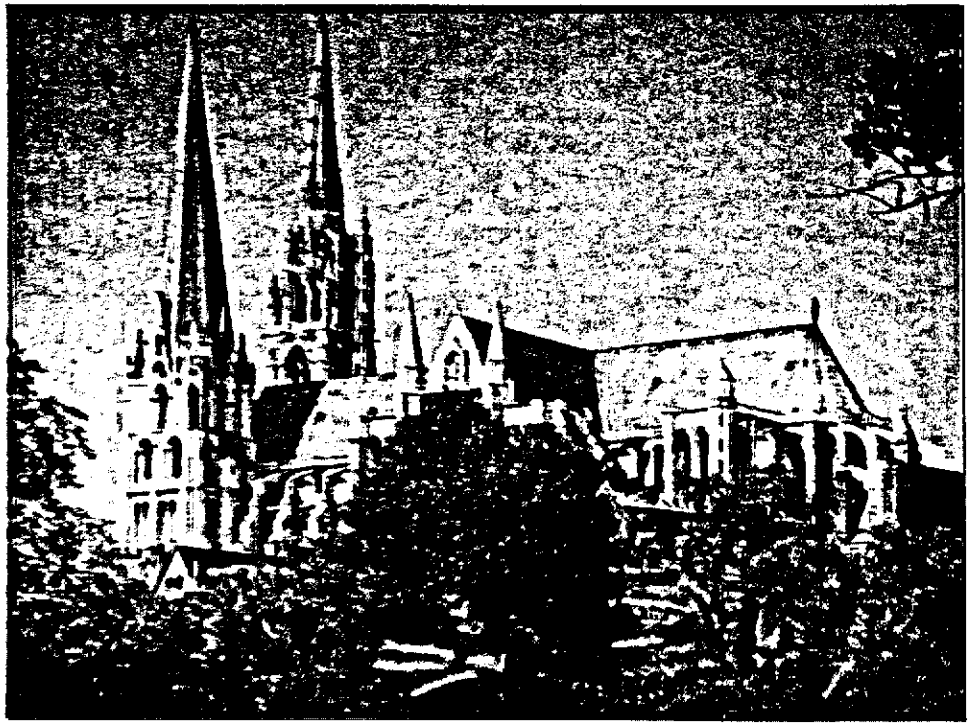

كاتدرائية «شارتر» - فرنسا

ويتعلموا. وهناك شبه إجماع على أن الفضل يرجع إلى المدارس الديرية فى الاحتفاظ فى العصور المظلمة بمسحة من النشاط العلمى فى غرب أوروبا، حقيقة أن الهدف الأساسى من هذا النشاط كان إعداد رجال الدين لمباشرة مهامهم ـ وبخاصة فى الوعظ والإرشاد ونشر المسيحية، ولكن هذا الهدف كان لا يمكن أن يتحقق دون أن يكون رجل الدين مزودا بقسط من الثقافة اللاتينية، حيث إن اللاتينية كانت اللغة المستخدمة فى الكنيسة الغربية، هذا إلى جانب مباشرة مهام الوعظ والتنصير كان يتطلب من رجل الدين المعرفة بمبادئ المنطق وأساليب الجدل.

وإذا كان النشاط الثقافى للأديرة قد أخذ يضعف فى القرن الثانى عشر، فإن هذه الحقبة من حقب التاريخ شهدت نشاط الكاتدرائيات بعد أن مرت ـ منذ القرن التاسع ـ لحركة إصلاح شاملة، ذلك أن الكاتدرائيات كانت تقوم دائما فى قلب مدينة هامة، تحيط بها مظاهر المدنية والعمران ـ لا فى منطقة منعزلة نائية على سفوح الجبال وسط الأحراش، مثلما كان الحال فى معظم الأديرة وساعد ذلك على تحول الكاتدرائيات إلى مراكز ثقافية، غنية بالمكتبات والمدارس والسجلات والموظفين الذين يستعين الأسقف بهم فى الإشراف على شتى ألوان النشاط الحضارى.

وكانت أهم الكاتدرائيات نشاطا فى الميدان الثقافى فى غرب أوروبا فى القرن الثانى عشر هى تلك الواقعة فى شمال فرنسا ـ شارتز، وأوليان وريمس ولاؤون وباريس، هذا عدا كاتدرائية كانتربورى فى إنجلترا، وطليطلة فى إسبانيا وغير ذلك كثير.

خريطة الإدريسى التى رسمها فى بلاط «روجرز الثانى»

بلاط الملوك والأمراء

وبعد المؤسسات الدينية، يحتل بلاط الملوك والأمراء المكانة الثانية فى سلم مراكز الحضارة والمعرفة فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى. ذلك أن بلاط الحاكم كان لا يستكمل مكانته إلا إذا توافر فيه بعض رجال العلم والثقافة، مما يضفى على الحاكم هالة من الاحترام بوصفه من أهل المعرفة، وقد وصف نظامى عروضى أحد شعراء سمرقند فى القرن الثانى عشر للميلاد ـ بلاط الحاكم، فقال أن بلاط الملك أو الأمير يتطلب وجود أربعة عناصر فيه حتى يستكمل بنيانه وعظمته، وهذه العناصر الأربعة حددها نظامى عروضى برجال الإدارة والسياسة الذين ينهضون بمساعدة الحاكم فى تصريف شؤون الحكم، والشعراء الذين يسهرون على الدعاية للحاكم ويمجدون أعماله، والفلكيون الذين يحددون للحاكم الأوقات الملائمة للقيام بمشاريعه الكبرى والخطيرة، وأخيرا الأطباء الذين يسهرون على صحة الحاكم ويرعون سلامته.

والواقع إن هذه الحكمة لم يقتصر الأخذ بها على حكام الشرق وحدهم، بل غدت من لزوميات الحكام جميعا ـ فى الشرق والغرب ـ فى العصور الوسطى. هكذا غدا مقر البلاط يمثل مركزا ثقافيا، يجتمع فيه صفوة العلماء والأطباء وأعلام الشعراء، وخبراء السياسة.

ويبدو أن إحساس ملوك الجرمان فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى بأنهم ورثة روما وخلفاؤها فى تراثها، جعلهم يعملون على تبنى التراث الحضارى والثقافى وتشجيعه بالإضافة إلى نشر المسيحية فى البلاد الوثنية المجاورة لهم، هذا بالإضافة إلى الاهتمام بالتجارة والعناية بالطرق وتأمينها، وتنظيم الأسواق.. مما عاد بالخير على النشاط التجارى بوجه خاص والحضارى بوجه عام.

الواقع إن رعاية الملوك والأمراء للحياة الثقافية غدت أمرا له أهميته فى عصر لم يعرف الطباعة وسادت فيه عملية النسخ، وهناك أمثلة عديدة لملوك أوروبيين فى العصور الوسطى عرفوا

بحبهم للعلم والثقافة حتى جعلوا من بلاطهم مراكز ثقافية ممتازة؛ ومن أبرز الملوك فى مجال دعم النشاط الحضارى فى العصور الوسطى كان هنرى الثانى ملك إنجلترا (١١٥٤- ١١٨٩) الذى امتدت دولته من أسكتلندا شمالا حتى جبال البرانس جنوبا، وأظهر شغفا كبيرا بالعلم والعلماء، وحرص على أن يلم بعديد من اللغات، وقد أدى حبه للتاريخ إلى وفرة المؤرخين فى بلاطه، كما اهتم بالقانون والدراسات القانونية، وأجزل العطاء للعلم والعلماء.

أما بلاط ملوك صقلية ـ من القرن الحادى عشر فصاعدا فكان الغالب عليه الطابع الشرقى، البيزنطى والعربى، واكتظ هذا البلاط بالفلكيين والشعراء والأطباء، وغيرهم من العلماء الذين ترجع أصولهم ولغاتهم إلى جذور متباينة. وقد اهتم ملوك صقلية فى تلك الحقبة بتشجيع العلم والعلماء وإغرائهم على الوفود على بلاطهم الذى غدا قبلة الأدباء والشعراء والباحثين، ويحكى عن روجر الثانى ملك صقلية أنه استدعى العالم العربى الإدريسى إلى بلاطه، حيث طلب منه عمل نموذج مجسم كبير للكرة الأرضية، وهكذا حتى كان عهد الإمبراطور فردريك الثانى (١١٩٨- ١٢٥٠) الذى قامت فى

رسم للملك هنرى الثانى (١٠٠٧ : ١٠٠٢م)

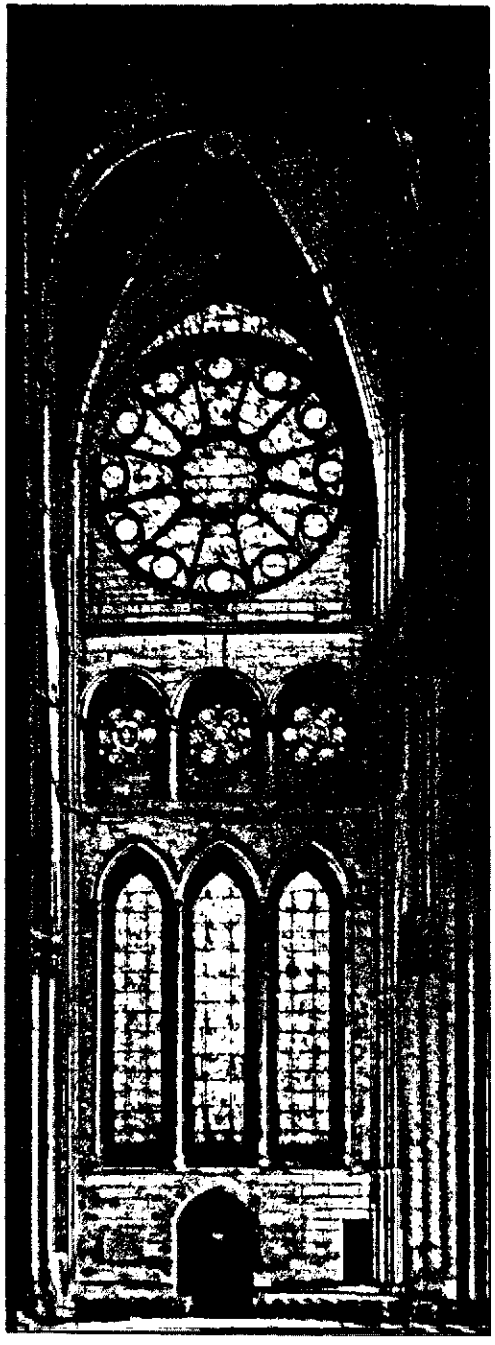

كنيسة «ريمس» من الداخل ـ النوافذ "لزجاج المعشق

عهده جامعة نابولى سنة ١٢٢٤، ونزح إليها العلماء والمتخصصون فى العديد من ألوان المعرفة، ولم يكتف فردريك الثانى بتنظيم كلية الطب فى سالرنو، وإنما أضفى على جامعة نابولى كافة ألوان التشجيع واستدعى إليها أساتذة متخصصين فى شتى العلوم والفنون ـ وأضفى عليها الكثير من الامتيازات وقدم لها المساعدات المادية والمعنوية، وهكذا غدا بلاط فردريك الثانى مركزا لحركة علمية واسعة، واجتمع فيه عدد كبير من العلماء الغربيين والبيزنطيين (الروم)، فضلا عن اليهود الذين اشتغلوا بترجمة بعض الكتب العربية وبخاصة فى علم الفلسفة.

المدن

المعروف عن المدن ـ فى كل زمان ومكان ـ أنها تتمتع بمستوى حضارى يفوق غيرها من المراكز السكانية، نظرا لما يتاح لها من مزايا عمرانية وسكانية تجعلها مقصد ومقر نسبة كبيرة من العاملين والميسورين والمثقفين. وهكذا يكون دور المدينة فى بناء الحضارة دورا واضحا فعالا فى كثير من أوجه الزمان والمكان.

وفيما يتعلق بدور المدن فى بناء حضارة غرب أوروبا فى العصور الوسطى، نجد هذا الدور تأثر سلبيا بسقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب ثم بما ساد الغرب الأوروبى من جمود فى الفترة التالية التى أطلق عليها اسم العصور المظلمة. ولم يكن ذلك إلا فى القرن الحادى عشر عندما أفاق الغرب الأوروبى من جموده، وعندئذ ظهرت المدن مرة أخرى على مسرح الحضارة الأوروبية وذلك بفضل عوامل مساعدة؛ اقتصادية وفكرية واجتماعية وسياسية.

ولما كان من المتعذر على المدن أن تمارس نشاطها الحضارى فى ظل قيود النظام الإقطاعى الذى ورثته عن الفترة المظلمة، فإنها أخذت تتحرر من سيطرة الأمراء الإقطاعيين لتصل إلى كل ما تصبو إليه من حرية ونفوذ تحت مظلة ما عرف باسم «وطنية المدينة Patriotisme Manicipal» وازدادت هذه الظاهرة وضوحا فى ألمانيا وإيطاليا، حيث لم توجد قوة سياسية مركزية فعالة تقف فى مواجهة المدن الناشئة. هكذا وجد أمراء الإقطاع أنفسهم أمام قوة جديدة عمادها طبقة متوسطة نشطة، اتخذت من النشاط الصناعى والتجارى دعامة لها، مما هيأ لأفرادها من الموارد المالية ما حقق لهم النمو المستمر، والتحرر من سيطرة الأمراء الإقطاعيين، وقد أطلق على تلك المدن التى استطاعت أن تحقق لنفسها كيانا سياسيا واقتصاديا مستقلا اسم «القومونات» Communes، وصار لكل منها قوانينها ونظمها ودستورها الخاص بها، والذى كان فى معظم الحالات مقتبسا من دستور مدينة أخرى مجاورة أو غير مجاورة.

وقد نجم عن النشاط التجارى لهذه المدن قيام تجارها برحلات عديدة، الأمر الذى حقق قدرا من الانفتاح الحضارى على العلم الخارجى الذى أسهم فى تقدمها.

والواقع أن هذا التقدم الذى حققته المدن الأوروبية فى الشطر الأخير من العصور الوسطى كان له أكبر الأثر فى التطور الحضارى فى غرب أوروبا، ذلك أن نشأة القومونات كانت من أقوى

العوامل التى ساعدت على قيام الحكومات المركزية بدور مساعد على تحطيم النظام الإقطاعى، وهو النظام الذى مزق أوصال أوروبا على مدى بضعة قرون، والذى أخذ ينهار ليحل محله نظام الدولة المركزية، هذا إلى أن عماد المدن كان الطبقة البورجوازية التى تألفت من التجار والصناع ونحوهم، وهم الذين أدى ازدياد نفوذهم إلى حدوث ثورة اجتماعية واقتصادية خطيرة فى غرب أوروبا؛ لأنها غيرت وجه الحياة فى أوروبا، وجعلته يتجه إلى التجارة والصناعة بدلا من الزراعة والحروب المحلية. وقد أدى هذا الاتجاه الجديد إلى تغيير نظرة الناس إلى الحياة، وزعزعة أركان العالم القديم وتقاليده، ذلك أن الناس أخذوا يخرجون من دائرة المألوف، ويحكمون عقولهم فى كل جديد، دون أن يخضعوا لآراء الكنيسة التى ظلت طوال الشطر الأول من العصور الوسطى تتحكم فى فكر الناس وتوجيهه وفقا لمصالحها.

وكان تأثير المدن فى الجوانب الحضارية أوضح ما يكون فى الركن الثقافى، فإذا كانت الدعامة الأساسية لازدهار المدن فى غرب أوروبا منذ القرن الثانى عشر هو نشاطها التجارى فإن هذا النشاط لابد وأن يستند على ركيزة ثقافية تبدأ بالإلمام بالقراءة والكتابة ومبادئ الحساب والرياضيات؛ لذلك لم تخل مدينة فى غرب أوروبا منذ القرن الثانى عشر من وجود مدرسة داخل جدرانها، هذا إلى أن تلك المدن حرصت على أن يكون لكل منها أرشيفها وسجلاتها، مما أدى تدريجيا إلى انتقال مراكز التعليم من المدارس الكنسية والديرية إلى مدارس المدن، وكانت هذه الظاهرة أكثر وضوحا فى جنوب أوروبا وبخاصة إيطاليا ولا يخفى علينا أن غالبية المدن الإيطالية كانت لها علاقات تجارية وثيقة مع بلاد المشرق، وعلى سبيل المثال فإن البندقية وبيزة كان لكل منهما حى تجارى فى القسطنطينية وأدى هذا إلى تردد المبعوثين والتجار الإيطاليين على المدن التجارية فى الشرق، وفى هذه الأجواء نسمع عن جيمس البندقى فى القسطنطينية سنة ١١٣٦م، وهو الذى ترجم المنطق الجديد لأرسطو، كما نسمع عن برجنديو البيزى الذى قضى حياته متنقلا بين الشرق والغرب، وترجم كثيرا من الكتب فى اللاهوت والطب من اليونانية إلى اللاتينية.

أرسطو

هذا عن الاتصالات بين أهالى المدن الإيطالية والشرق اليونانى، أما اتصال اليونانيين بالعالم العربى الإسلامى فكان لا يقل أهمية وخطورة، وهناك العديد من المؤلفات العربية ترجمها الغربيون أمثال ستفن البيزى إلى العربية.

حقيقة أن الاتصالات بين المدن الإيطالية وبلاد المشرق العربى قامت فى أسسها على العلاقات التجارية بين الطرفين، ولكن يجب أن نتذكر حقيقة هامة ظلت قائمة منذ أيام الفينيقيين واليونانيين القدماء، هى أنه من الصعب الفصل بين المعاملات الاقتصادية والصلات الثقافية، فالقافلة أو السفينة التى تحمل البضائع والتجار هى نفسها التى كانت تحمل الأخبار والأفكار والعلماء والكتابات وغير ذلك من أوجه الفكر والثقافة.

مخطوط من كتاب «حياة القديس مارتيال» القرن ١١م - باريس

الجامعات

إنجيل (ستافيلو) ١٠٩٧ - ١٠٩٨ حيث شجعت العصور الوسطى التعليم المسيحى

وأخيرا تأتى الجامعات التى ظهرت فى غرب أوروبا فى أواخر العصور الوسطى لتصبح مركزا عظيما من مراكز الثقافة والمعرفة والحضارة وتسهم بدور فعال فى بناء الحضارة الأوروبية. وسيأتى ذكر الجامعات فى موضع آخر فى هذا البحث، ويكفى أن نشير هنا فى كلامنا عن مراكز الحضارة الأوروبية إلى أن أهم الجامعات التى ظهرت فى القرن الثانى عشر فى غرب أوروبا وجنوبها كانت جامعة بولونيا فى إيطاليا وجامعة باريس فى فرنسا، وعن هاتين الجامعتين تفرعت بقية الجامعات الأوروبية فى

العصور الوسطى، حتى بلغ عددها فى نهاية تلك العصور نحو ثمانين جامعة على وجه التقريب.

وقد اشتهرت كل جامعة بفرع من فروع الدراسات العليا؛ فإذا كانت جامعة باريس قد اشتهرت باللاهوت والفلسفة، فإن جامعة بولونيا اشتهرت بالطب، ومثلها كانت جامعة سالرنو.

وقامت مكانة الجامعة على أساس شهرة الأستاذ التى كانت تمثل القوة التى تجذب الطلاب إلى الجامعة.

ولا شك فى أن الجامعات حافظت على قدر كبير من تراث العصور الوسطى، هذا إلى أنها غدت ذات أثر فى توجيه السياسة المحلية والسياسة الدولية بحكم علاقتها بالكنيسة والدولة، هذا إلى أن الجامعات الأوروبية صار لها دور هام فى توجيه الرأى العام فى عصر قلّت الوسائل الموجهة للرأى العام. يضاف إلى ذلك أن الجامعات احتضنت عددا من العلوم والمعارف مثل القانون واللاهوت والمعارف والفلسفة ـ كان لها أثر عميق فى الحياة العامة.

ومن المعروف أن معظم الكتب والدراسات الوثنية القديمة كانت وثنية الطابع، ومن ثم اتصفت بالإقبال على الدنيا ومتاعها، مما جعل التناقض بينها وبين تعاليم المسيحية واضحا، وقد انقسم رجال الكنيسة الغربية حول المدى الذى يسمح به فى دراسة تراث العصر الوثنى، فهناك فريق من المتزمتين رأى أن تضيق دائرة التراث الوثنى إلى الحد الذى لا يتعدى الإلمام بقواعد اللغة اللاتينية، واعتبر هؤلاء أى توسع فى دراسة تراث الوثنية مفسدة للنفس ومجلبة لتدنيس الروح، ويبدو هذا الاتجاه فيما قرره مجمع قرطاجة الكنسى سنة ٣٩٨م، من تحريم قراءة الكتب غير المسيحية، كذلك نادى بعض زعماء الكنيسة فى القرن العاشر بأن «أتباع القديس بطرس ومريديه لا يصح لهم أن يقتدوا بالشاعر الرومانى ترنس Terence (١٩٥ ق م).

بل إن البابا جريجورى الأول أو العظيم (٥٩٠- ٦٠٤م) عارض فكرة التزود بقسط صغير من الدراسات اللغوية، إذا كانت هذه المعرفة مرتبطة بكتب الوثنيين.

ومع ذلك فقد ظل التراث اللاتينى يمثل قوة كبرى فعالة فى الدراسات الأدبية طوال العصور الوسطى، فبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب استمرت إيطاليا المركز الأول للدراسات اللاتينية فى غرب أوروبا وظهر عدد من أقطاب الأدب اللاتينى أمثال بوثيوس وكاسيدور، ثم انتقل مركز الأدب اللاتينى بعد ذلك إلى شمال إفريقية ثم إسبانيا التى فر إليها كثير من رجال العلم والدين بدافع الخوف من حركة الفتوح الإسلامية، واتجاه الغزاة الفاتحين من مصر إلى شمال إفريقية، وكان أن ظهر فى إسبانيا فى أواخر القرن السادس وفى القرن السابع بعض

صفحة من كتاب تاريخ القديس «جريجورى الكبير» ق ١٢م

الأدباء الذين حملوا لواء الأدب اللاتينى، مثل إيسيدور الإشبيلى (٥٧٠-٦٣٦) وجوليان الطليطلى (٦٩٠) الذى كتب الكثير فى التاريخ والنحو واللاهوت وواكب ازدهار الأدب اللاتينى فى إسبانيا صحوته فى غاليا حيث ظهر فورتناتوس جريجورى التورى الذى يعتبر أول مؤرخ لتاريخ فرنسا فى العصور الوسطى.

ولم يلبث أن اعترى الدراسات اللاتينية فتور فى غرب أوروبا وذلك فى أواخر القرن السابع وفى القرن الثامن، وذلك فى الوقت الذى ظهرت أيرلندا لتتفوق على من سبقها فى تلك الدراسات، وجاءت هذه الحركة التى تزعمتها الكنيسة الأيرلندية بمثابة شعلة امتد ضوؤها حتى القرن التاسع عندما حمل لواءها يوحنا سكوتس Joannes Scottus (٨٣٣- ٨٨٠) أبرز أساتذة القرن التاسع وأول فيلسوف مدرسى.

وكان أن امتد بريق النهضة الأيرلندية إلى البلاد المجاورة. وساعد على ذلك حب الأيرلنديين للهجرة بسبب فقرهم، وحرص رجال الدين على القيام برحلات تحت مظلة نشر الدين والعلم، وقد أسس الأيرلنديون أديرة عديدة فى صلب القارة غدت مراكز إشعاع حضارية، وظهرت ثمار هذا النشاط بوجه خاص فى إنجلترا، حيث تضافرت جهود البعثات العلمية والأدبية، حتى بلغت هذه الحركة ذروتها فى القرن الثامن على عصر بدى Bede (٦٧٥- ٧٣٥) وهو العالم والأديب والمؤرخ الخالد الذكر، وبعد وفاته بقليل ولد ألكوين Alcuin الذى يعتبر حلقة الوصل بين النشاط الفكرى فى بريطانيا وغاليا، حتى أن شارلمان استعان به فى نهضته العظيمة.

تصوير جدارى للقديس «بول» ـ كاتدرائية كانتبورى - إنجلترا سنة ١١٥٠

النهضات الحضارية فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى

من الواضح بعد هذا العرض السريع أن ركاب الحضارة لم يتوقف فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى، بمعنى أن شعلة المعـرفة لم يخب نورها عقب سقوط الإمبراطورية الغربية فى أواخـر القرن الخامس، وإنما ظل نورها يتنقل من بلد إلى آخر، وفى صـورة أو أخرى، حتى اشتـد بريقها على عـصر شارلمان فى غاليـا، وذلك فى أواخر القرن الثامن للميلاد.

النهضة الكارولنجية

أما عن شـارلمان (أو شارل العظـيم) فهو أحـد ملوك دولة الفرنجـة، شق طريقه فـى القرن الثامن، واستطاع عن طريق عقد تحالف مع البابوية إخضاع العديد من الشعوب والقبائل فى غرب

شارلمان يقهر أعداءه ـ من كتاب تاريخ العسكرية

أوروبا، يأتى على رأسها البافاريين من ناحية واللمبارديين فى شمال إيطاليا من ناحية أخرى. وما زال شارلمان يواصل سياسته النشطة داخل الدولة وخارجها حتى حقق لنفسه مكانة راسخة وشهرة واسعة، أثارت إعجاب معاصريه، فنادوا به إمبراطورا، وتم تتويجه بيد البابا فعلا سنة ٨٠٠م.

والأمر الذى يثير الدهشة هو أن شارلمان على الرغم من ضعف مستواه الثقافى، فإنه استطاع أن يتزعم نهضة حضارية متعددة الجوانب الثقافية والاقتصادية والفنية. وقد اتخذت هذه النهضة من فرنسا مركزا لها، وامتدت منها إلى ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وغيرها من بلاد الغرب الأوروبى، وأطلق على هذه الصحوة اسم (النهضة الكارولنجية)، نسبة إلى البيت الذى ينتمى إليه شارلمان.

والواقع أن الناس فى العصور الوسطى - وبخاصة فى غرب أوروبا - نظروا نحو الماضى وظلوا يتطلعون إلى أيام عظمة روما ومجدها، وقد ساد الاعتقاد أن سقوط الإمبراطورية الرومانية سنة ٤٧ فى أنه لا يعنى سوى حادث مؤقت؛ لأن العالم لا يمكن أن يعيش بلا إمبراطورية وأن الأمل كبير فى إحياء الإمبراطورية ليعود للعالم وجهه المشرق البراق، وفى انتظار الزعيم الذى يمكن أن تحقق على يديه هذه الأمنية، ثم تعاقبت القرون حتى ظهر على المسرح شارل العظيم - أو شارلمان - زعيم الفرنجة الذى قادهم من نصر إلى آخر، وبث فى الكنيسة روحا جديدة وأثبت لمعاصريه أنه المنقذ المنتظر.

ومع أن شارلمان لم يكن عالما فى مجال الفكر والثقافة، إلا أنه استطاع أن يتزعم نهضة فكرية واسعة النطاق، عالجت العديد من جوانب الثقافة والحضارة، حتى غدا بلاطه مجمعا للعلماء المعاصرين الذين نعموا بما قدمه لهم من تأييد وتشجيع وعون، وبذلك أرسى قواعد نهضة فريدة كانت فى غرب أوروبا فى القرن الثامن أشبه بالشمعة المضيئة وسط بحر الظلمات، ومن العوامل التى أضفت على هذه النهضة - نهضة شارلمان أو النهضة الكارولنجية - قدرا من الأهمية، أن شارلمان كان يستعين بمختلف الكفايات ويستوردها من شتى الأنحاء والبلاد، وكان كثير من هؤلاء العلماء وافدين من أيرلندا وإنجلترا، حتى قيل أن الأيرلنديين والسقسون كانوا النواة الحقيقية للنهضة الكارولنجية.

وهكذا ساعدت هذه العوامل على مولد نهضة علمية شاملة، مركزها بلاط شارلمان، ومرت بثلاث مراحل أساسية: المرحلة الأولى فيما بين سنتى ٧٧٣، ٧٨٦، وفيها برز الأدباء ورجال المعرفة من الإيطاليين وعلى رأسهم بطرس البيزى وبولينوس وبولس الشماس.

والمرحلة الثانية فيما بين ٧٨٦ ، ٨٠٠ ويمكن تسميتها عصر الكوين وفيها بلغت النهضة الكارولنجية الذروة، وأخيرا تأتى المرحلة الثالثة فيما بين سنتى ٨٠٠ وهى سنة تتويج شارلمان

إمبراطورا وسنة ٨١٤ وهى السنة التى توفى فيها، وقد شهدت هذه المرحلة الأخيرة تدهورا بطيئا تدريجيا فى مسيرة النهضة الكارولنجية وبرز فيها من الأعلام ثيودلف وانجلبرت واجنهارد.

وإذا كان علماء هذه النهضة قد نبغوا فى عديد من العلوم، وبخاصة التاريخ واللغة والآداب فإنه من الملاحظ أن بعضهم كان يجهل اليونانية نظرا لقلة الكتب اليونانية بين أيديهم، وقد أظهر بعضهم حرصا على تعلم اليونانية، ولكنهم فى غرب أوروبا كانوا لا يجدون الكتب اليونانية التى تشدهم لدراستها، وهكذا كان تعلُّم اليونانية يتطلب عندئذ جهدا كبيرا دون فائدة تذكر.

وبين علماء النهضة الكارولنجية، يمثل ألكوين Alcuin (٧٣٥- ٨٠٤م) مكان الزعامة بوصفه المرآة الكبيرة لتلك النهضة. ولم يكن ألكوين هذا إيطاليا، أو غاليا من أبناء غاليا، وإنما كان إنجليزيا من مواليد يورك، ولد سنة ٧٣٥ فى الفترة التى شهدت امتداد الصحوة الفكرية من أيرلندا إلى إنجلترا، وكان أن درس بمدرسة دير يورك، وأظهر اهتماما بالتحصيل فى علم الفلك والرياضيات فضلا عن علوم النحو والبلاغة والتشريع، ومن المرجح أن ألكوين قام فى تلك الأثناء برحلتين أو ثلاث إلى القارة، وأنه التقى بشارلمان فى بارما سنة ٧٨٢، وعندئذ ألح عليه شارلمان فى مصاحبته إلى غاليا، ولبى ألكوين الدعوة ولم يلبث أن احتل الكوين منذ ٧٨٣ مكانا بارزا فى بلاط شارلمان، حتى صار أقرب مستشاريه إليه، بالإضافة إلى قيامه بالإشراف على شؤون الثقافة والتعليم فى المملكة، وذلك حتى وفاته عام ٨٠٤.

وترجع شهرة ألكوين الحقيقية إلى شخصيته الجذابة وقوة تأثيره على سيده شارلمان وجهوده فى خدمة الحضارة عن طريق نشر الثقافة وتشجيع التعليم، ويذكر التاريخ لألكوين قيامه بخدمة العلم والتعليم وحماسته لتحقيق المخطوطات وعنايته بإصلاح المدارس.

وكانت الكنيسة فى تلك العصور تقف موقفا سلبيا من الانحرافات والخرافات الاجتماعية بسبب جهل رجال الدين من القساوسة والرهبان، مما أدى بشارلمان ومعاونه ألكوين إلى العمل بدءا بنشر الوعى بين رجال الدين. وإلى ذلك العصر يرجع تاريخ نشأة معظم المدارس الديرية الكبرى، مثل فولدا وفونتنيل وفرير، وغيرها من المدارس التى أحرزت شهرة واسعة فيما بعد، والتى تخرَّج فيها ونسب إليها كثير من المفكرين فى القرن التاسع. هذا فضلا عن جهود ألكوين فى العناية بالكتب، مما أدى إلى انتعاش مكتبات الأديرة، حتى قيل أن الفترة المظلمة فى تاريخ غرب أوروبا بين سنتى ٨٥٠، ١٠٠٠ تمثل العصر الذهبى لانتعاش المكتبات الديرية.

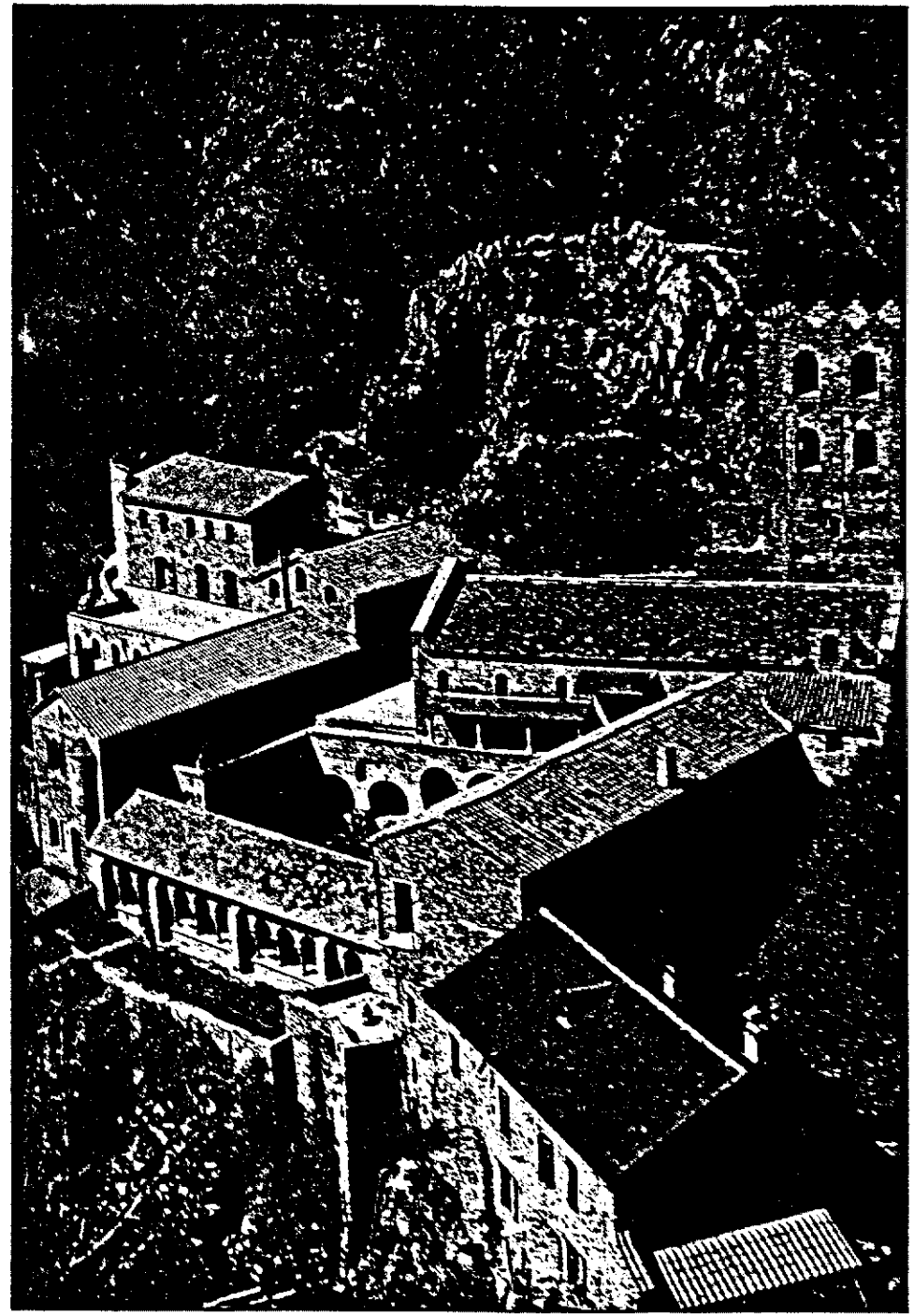

دير سانت «مارتن» فى تور

صفحة من مخطوط ألمانى سنة ٩٨٠ م

أما فيما يتعلق بجهود ألكوين كمعلم، فإنه قضى الفترة الواقعة بين سنتى ٧٨٢ و ٧٩٦ مقيما فى بلاط شارلمان حيث تولى رئاسة مدرسة القصر وتنظيمها، وكانت هذه المدرسة قديمة يتدرب فيها أبناء الأمراء والأسر الكبيرة على كل ما يتعلق بشؤون الحكم وقواعد البروتوكول: ولكن هذه المدرسة ظلت حتى أيام ألكوين مفتقرة إلى العلم الحقيقى. وهكذا حتى استطاع ألكوين أن يجعل منها معهدا دراسيا له منهجه وأهدافه، وحسبنا أن نعرف أنه كان من تلاميذ ألكوين فى هذه المدرسة شارلمان نفسه وأبناؤه الثلاثة، فضلا عن أخته وابنته وبعض مستشاريه ومعاونيه، أمثال إدلهارد وإنجلبرت، فضلا عن بعض رؤساء الأساقفة.

وهنا ينبغى ان نذكر أن الدراسات الدينية فى ذلك العصر ظلت المحور الأساسى الذى دارت حوله عجلة النشاط الفكرى والتعليمى داخل مدرسة القصر وخارجها. وقد اعتقد العلماء معلمون ومتعلمون أن الهدف الأساسى لكافة الدراسات هو اللاهوت. ومن جهة أخرى فإن مدرسة القصر بكامل هيئتها كانت تصحب شارلمان فى حله وترحاله، وأن كل من فى هذه المدرسة تسمى باسم أحد كبار مشاهير رجال العلم والفكر فشارلمان: داود، وألكوين: فلاكوس وانجلبرت: هومر.. وهكذا عاش ألكوين فى بلاط شارلمان معززا مكرما حتى تقدم به العمر وبلغه الكبر، وعندئذ رأى من الأفضل له أن يعتزل حياة البلاط ويركن إلى حياة العزلة والانقطاع للعبادة، وفعلا جمع

ألكوين أوراقه وطلب من سيده شارلمان السماح لـه بأن يعتزل مكانه ليعيش بعيدا عن جلبة البلاط وضـوضاء المدينة، وقد حاول شـارلمان منعه، ولكنه اضطر تحت إلحاحه إلى السـماح له سنة ٧٩٦ بالانتقال إلى دير سـانت مارتن فى تور، حيث قضى الفتـرة الأخيرة من عمـره، وحل محله فى مدرسة القصـر أحد الأيرلنديين واسمه كنت.

على أن ألكوين لم يستـسغ حياة السكون فى مقره الجـديد، فأخذ يواصل جهوده فى تنظيم دير سانت مارتن وإمداد مكتبته بالمخطوطات النادرة، ومن ناحية أخرى فإنه أرسل بعض شـباب الرهبان إلى يورك بإنجلترا لنـسخ المخطوطات غير المتوافرة فى سـانت مارتن. وهكذا شق دير سانت مـارتن طريقه بفضل جهود ألـكوين، كما ذاع صيت مدرسة سانت مارتن حتى غدت نموذجا للمدارس الإقليمية، الديرية الكنسية، وكان التعليم فيها دينى الروح والـطابع، فى حين كانت الدراسة على مرحلتين: الأولى تخـتص بتعليم القراءة والكتابة والحـساب والنحو، فضلا عن الترانيم الـدينية، والثانية اختـصت برجال الدين، يدرسون فيها الإنجيل واللاهوت وكتابات القديسين، فضـلا عن القوانين الكنسية، ومن يجتاز المرحلة الثانية بنجاح غالبا ما كان يعين مقدما لاحد الأديرة فى ألمانيا أو غاليا.

أما شارلمان فلم يرض بأن تتوقف علاقتـه بألكوين عند هذا الحد، وإنما تابع إرسال المبعوثين إليه لإقناعه بالعودة إلى البلاط. وكان شارلمان يأمل فى أن يصحبه ألكوين فى رحلته إلى روما سنة ٨٠٠، وهى الرحلة التى تم فيهـا تتويج شارلمان إمبراطورا ولكن ألـكوين لم يعدل عن رأيه حتى وفاته سنة ٨٠٤ وحـسب ألكوين فى التاريخ، أنه يقول فى إحـدى رسائله إلى شارلمان مـا نصه: «لقد قمت فى ربيع حياتى ببذر بذور المعرفة فى بريطانيا والآن ـ وأنا فى خريف العمر أقوم ببذرها فى غاليا» وفى العـبارة التى نقشت على قبره وصف ألكوين نفسـه بأنه لم يكن إلا «سائحا على وجه الأرض» وأنه «كان دائما محبا للعقل والحكمة».

وقد ترك ألكوين إنتاجا متنوعا فى الأحكام الدينية، والمسائـل السياسية والأدبية والتاريخية، فضلا عن بعض الأشـعار. وكثير من كتابـاته اتجهت نحو تفنيد هرطقة التبنى ودحـضها ،على أن معظم كتاباته تناولت النظم الكنسية والطقوس الدينية، مما جعله عالم عصره فى اللاهوت.

على أن ألكوين لم يكن وحيد عصره، وإنما وجد إلى جانبه عدد من أعلام الفكر عملوا فى بلاط شارلمان وفى مـدرسة القصر، وأسهـموا فى النهضة الثـقافية فى ذلك العـصر. ومن هؤلاء نكتفى بذكر إجنهارد وثيودلف وإنجلبرت، وقد كتب أولهم مؤلفا عن شارلمان يعتبر من خيرة كتب التاريخ المعاصرة وله مؤلفات أخرى عن السكسون، أما ثيودلف فكان من أبرز شعراء عصره، وفى الفترة التى شغل فيها منصب أسقف أورليان وجه عناية خاصة نحو تنظيم التعليم فى أسقفيته.

واشتهر إنجلبرت بنشاطه الأدبى شعـرا ونثرا حتى أطلق عليه معاصروه اسم «هوم»، كذلك عنى بالكتب والمكتبات واستطاع أن يجمع منها الكثير.

هكذا حفل عهـد شارلمان بنهضة حضـارية متعددة الآفاق فى عـصر حالك الظلام بالنسبـة لغرب أوروبا،وفى إشارتنا لأعلام هذه النهضـة لا ينبغى أن ننـسى شارلمان نفسه وجهوده فى حث العلماء على العلْم والعمل. وكثيرا ما كان شارلمان يدخل دائرة النقاش فى موضوع علمى، ويناقش ويسأل ويؤيد ويعارض، حتى أنه سمح للعلماء بالوقـوف معه فى حلقة النقاش العلـمى موقف الند للند. هذا عدا استعداده دائما للدفـاع عن المسيحية ونظمها ومؤسسـاتها. ويقال إن شارلمان تعلم اللغة اليونانية وأجادها، مما مكنه من الدخول فى النقـاش مع الإمبراطور البيزنطى. وكان ذلك فى الوقت الذى أجاد الإلمام بقواعـد النحو اللاتينى. ومما ساعد على اتساع أفق شـارلمان حرصه على لقاء المسـافرين والرحالة الأجانب وسـؤالهم والاستفسـار منهم عن كل ما يرغب فى معرفـته عن البلاد الأخرى وعادات أهلها وتقاليدهم.

أما التاريـخ فقد بلغ من شغفـه به حرصه على الاستـماع إلى حوادثه وقصـصه أثناء تناوله الطعام، هذا فـضلا عن عنايته بجمع الأسـاطير التى تتعلق بتـاريخ شعب الفرنجة وجـذوره وسير أبطاله.

التعليم والمدارس والمكتبات

وإذا كانت هذه هـى نظرة شارلمان إلى العلم والمشـتغلين به فـلا بد وأن هذه النظرة انعكس مداها على سـياسة شـارل العظيم (شارلمان) وأسلوب حكمـه بوصفـه أعظم حاكم عرفـه الغرب الأوروبى فى حقبـة العصور الوسطى، وتبدو هذه الصورة واضحـة فى الرسائل العديدة التى دأب شارلمان على أن يبعث بها إلى الأساقفة ومقدمى الأديرة، يحثهم فيها على فتح مدارس فى مناطق نفوذهم وبذل أقـصى جهد لتـعليم الصغار والكبـار، ومن بين هذه الرسائل رسـالة بعث بها سنة ٧٨٧ إلى بوجلف ـ مقدم دير فـولدان يطالبه بالعناية بتعليم الرهبـان ورجال الدين، والعمل على رفع مستـواهم الفكرى، لأنه كما جـاء فى الإنجيل «بكلامك تتبرأ، وبكلامك تدان» (إنجـيل متى ١٢، ٢٧).

وفى سنة ٧٨٩ أمر شارلمان بتعميم المدارس فى جميع الأديرة والكاتدرائيات داخل دولته، وأن يتعلم الأطفال داخل هذه المدارس الترانيم والموسيقى الدينية، إلى جانب القراءة والكتابة والحساب والنحو، مع تزويدهم بنسخ مصححة من الكتب الدينية. وسرعان ما أثمرت الجهود التى بذلها شارلمان، فكتب إليه أسقف ليون يقول إن عنده مدارس للمنشدين ومدارس للقراء على درجة كبيرة من التقدم، أما ثيودلف أسقف أورليان فقد أصدر قرارا بأن يكون تعليم الصغار فى المدارس الدينية مجانا، ودون مقابل سوى ما قد يتبرع به

الترانيم والموسيقى الدينية

رسم القديس لوقا ـ من كتاب للقديس أوغسطس ـ القرن السادس الميلادى

الخيّرون من أهالى الأطفال الملتحقين بمدرسة الكنيسة أو الدير، وترجع أهمية هذا القرار إلى أن الوثيقة الوحيدة التى تشير إلى تعليم لغير أهل المؤسسة الدينية، وما عدا ذلك فإن جميع ما وصلنا من قرارات أو مراسيم لم يتعد تعليم رجال الدين، كذلك حث ثيودلف الأهالى على إرسال أبنائهم إلى المدارس، وعدم الانقطاع عنها إلا بعد إتمام تعليمهم.

وإلى جانب هذا النوع من المدارس الأولية، وجدت مدارس عليا لأولئك الذين يرغبون فى إتمام تعليمهم. ومن المدارس الدينية الشهيرة التى برزت أسماؤها فى غرب أوروبا فى ذلك العصر، ثولدا، وسانت جال، وكوربى.. وغيرها.

والواقع أن رعاية شارلمان للتعليم كانت تخفى وراءها أهدافا خفية، منها العمل على رفع مستوى رجال الدين من ناحية والاستفادة من المتعلمين فى رفع مستوى رجال الدين من ناحية أخرى، وبعبارة أخرى فإن شارلمان استهدف من نشر التعليم ودعم مؤسساته تحقيق أهداف دينية وسياسية؛ ذلك أن شارلمان بوصفه راعيا للكنيسة الفرنجية كان فى حاجة إلى من يعينه فى الإشراف على الكنيسة وأهلها وحل مشاكلها، وهذا هو السبب فى أن الكنائس التى ارتبطت بإشراف شارلمان كانت مدارس دينية فى المقام الأول، مما أدى إلى عدم وجود نظام تعليمى مستقل عن الدين. وقد عبر المعاصرون عن هذا الإحساس بقولهم إن الأصابع الثلاثة التى تمسك بالقلم إنما تشير إلى الثالوث المقدس.

ولكن على الرغم من ضيق أفق المدارس فى تلك الحقبة، إلا أن أثرها كان كبيرا بالنسبة للأجيال التالية. ذلك أنها أدت إلى إحياء اللغة اللاتينية لتصبح أداة الأدب والعلم، مما مكنها من مقاومة ذلك السيل المتدفق من الكلمات والتعبيرات الجرمانية الدخيلة، كما قاومت ما دخل عليها من تحريف فى صياغة المشتقات وتركيب العبارات والجمل. ومن ناحية أخرى فإن خريجى هذه المدارس هم الذين نهضوا فيما بعد بنسخ ونشر ما عثروا عليه من تراث العصور السابقة. وبالإضافة إلى الكتابات الدينية وكتب اللاهوت فإنهم نسخوا بعض كتب كاسيدور، ويؤثيوس، وبدى، وغيرهم. وقد فتح ألكوين الطريق أمام هؤلاء الناسخين من خريجى المدارس الكارولنجية، عندما قام بتحقيق ترجمة الإنجيل عن طريق جمع عدة نسخ منه ومقارنتها بعضها ببعض وتحقيق الأخطاء الشائعة فيها.

وتحقيقا لرغبة شارلمان وتأييدا لرأى ألكوين زودت أديرة تور وفولدا وغيرها من كبار الأديرة ببعض النُّساخ المهرة، مما جعل الكتب المنسوخة فى ذلك العصر نماذج فريدة فى الدقة والإتقان فضلا عن سلامتها من الأخطاء ودقتها.

والواقع أن العناية بالكتب والمكتبات تمثل مظهرا من مظاهر الرقى الحضارى فى عصر النهضة الكارولنجية. وبالإضافة إلى العدد الكبير من الكتب التى امتلكها شارلمان، زخرت مكتبات الأديرة بمئات المخطوطات فى شتى ألوان المعرفة، مثل كتابات المؤرخ اليهودى فلافيوس يوسف (٣٧- ٩٥) وأيوزيب (٢٦٥- ٣٤٠) مؤلف تاريخ الكنيسة، وأشعار فرجيل (٧١- ١٩ ق م)، فضلا عن كتابات رجال الكنيسة الأوائل مثل القديس أوغسطين (٣٥٤- ٤٣٠)، والقديس هلير (٣٠٣- ٣٦٧)، وجريجورى العظيم (٥٤٠- ٦٠٤) وغيرهم، وتكاد تكون كتابات القديس أوغسطين بالذات من الكتب التى لا تخلو منها مكتبة أو كاتدرائية فى ذلك العصر.

النهضة الأدبية

وكان من الطبيعى أن تؤدى العناية بالتعليم والمدارس من جهة، وبالكتب والمكتبات من جهة أخرى، إلى نهضة أدبية كبرى، هى فى الواقع الصورة المعبرة عن النهضة الكارولنجية. وقد أراد شارلمان أن يتشبه بأباطرة روما القدامى، ليس فى عظمتهم السياسية والحربية فحسب بل أيضا فى المجال الحضارى؛ فجمع حوله وفى بلاطه جماعة من الأدباء والمؤرخين والشعراء، مما هيأ له ولدولته وجها حضاريا مشرقا. وهنا لابد من التنويه بأن النهضة الشارلمانية ـ الكارولنجية، لم ترتبط بعلم معين وأنه ليس لها إلا وجها واحدا، بمعنى أنها ليست نهضة فلسفية أو تاريخية أو أدبية، وإنما هى نهضة شاملة، عالجت مختلف الأوجه الحضارية المتعددة، كل ما هنا لك هو أنها اكتسبت طابعا دينيا نظرا للعلاقة بين شارلمان والكنيسة الغربية؛ لذلك كانت الصدارة فى الجانب الأدبى للأدب الدينى ـ ثم جاء التاريخ ليحتل المكانة الثانية فى سماء النهضة الكارولنجية فامتازت الكتابات التاريخية فى تلك النهضة بالأمانة وسعة الأفق وحسن الصياغة، مع العناية بالأسلوب اللاتينى. وفيما عدا سير الفرنسيين، اهتم مؤرخو العصر الكارولنجى بكتابة الحوليات التى امتاز بعضها بالطول، وخاصة تلك التى دونت تحت إشراف رجال البلاط.

وإذا كان الشعر قد فاق النثر فى النهضة الكارولنجية، فإن هذا التفوق جاء فى الكم وليس فى النوع، ذلك أن الشعر فى الوثبة الكارولنجية امتاز بجودة الصياغة، وجمال الحبك، وانتشر استعماله على نطاق الدين والدنيا، وفى الأغراض التاريخية والمراسلات والرواية، فضلا عن الأغراض الدينية. وكان من المألوف نظم أشعار لتزيين أبواب الكنائس.

وقد ظلت اللغة اللاتينية هى اللغة المستخدمة فى الأدب الراقى والإدارة الحكومية فى عصر النهضة الكارولنجية. على أن شارلمان لم يتخل تماما عن لسان أجداده من الفرنجة؛ ولذلك أمر بوضع قواعد اللغة الفرنجية، كما أطلق أسماء فرنجية على أشهر السنة، وجمع الأشعار الفرنجية القديمة التى تتناول تاريخ الفرنجة فى مرحلة التوسع والبطولة.

على أنه كان من الصعب فرض اللغة اللاتينية الفصحى على جميع أفراد الشعب ـ فى حياتهم الخاصة والعامة؛ لذلك شاع فى تلك الحقبة استخدام اللاتينية فى قالبها العامى، حتى غدت اللاتينية الدارجة أو العامية هى اللغة الشائعة فى جميع أنحاء غاليا. وفى سنة ٨١٣ تقرر فى

مجمع تور الدينى وضع التعاليم والمواعظ الدينية فى تلك اللغة الشائعة لتكون قريبة من فهم عامة الناس.

أحد النصوص الكارولنجية (حرف P)

القانون والتشريع والإدارة

يحتل التشريع والنظم القانونية والإدارية مكانة كبيرة فى تاريخ الحضارات والدول، وذلك لارتباطها بالأمن والاستقرار والعدالة، وقد حظيت هذه الأركان بقدر كبير من عناية شارلمان، وكان لها نصيب واضح فى النهضة الكارولنجية التى توجت حضارة غرب أوروبا فى العصور الوسطى. ويتضح ذلك فى حرص شارلمان على أن ينصح رعاياه بالتمسك بمكارم الأخلاق واحترام تعاليم الكنيسة وعدم مخالفتها، هذا إلى أن مراسيمه الخاصة بالتجارة والتعليم والقضاء... وغيرها، تأثرت جميعا بعلاقته بروما وكنيستها. وكان يصحب كل زيارة يقوم بها شارلمان لروما تغيرات وإصلاحات فى الأديرة ونظم الحكم. وفى معظم زيارات شارلمان لروما، كان يعود وفى ركابه عدد ضخم من الأدباء والمعلمين ورجال الدين والمشرعين فضلا عن الفنانين.

أما عن تشريعات تلك الحقبة من تاريخ غرب أوروبا فى العصور الوسطى، فإنها محددة وليست كثيرة ولم يبق منها سوى القليل، ومن هذا القليل ما يتعلق بالمبعوثين وهم مندوبو الملك أو الإمبراطور الموفدون من قبله إلى كبار المسئولين فى مهام خاصة. هذا إلى أنهم يجمعون أخبار

تلك الأقاليم وكبار موظفيها ويعودون بها إلى الإمبراطور ليلم بشؤون الشعوب التابعة له. وقد قسم شارلمان الإمبراطورية سنة ٨٠٢ إلى دوائر وأوفد اثنين من المبعوثين إلى كل دائرة، أحدهما من رجال الدين والثانى من رجال الإدارة.

وثمة مهمة أخرى للمبعوثين هى التفتيش على الضياع التى خصها الملك للأغراض الخيرية والتأكد من سلامة الإنفاق فى الأغراض المخصصة لها تلك المنح.

وبالإضافة إلى ذلك قام شارلمان بتصحيح وتقويم القوانين القائمة، واستبدال القضاة بهيئات أكثر دقة وانتظاما فى إصدار الأحكام، ثم إن شارلمان أمر سنة ٨٠١ بتدوين التراث التشريعى القومى لمختلف شعوب الإمبراطورية.

شارلمان والكنيسة

كنيسة آخن التى بناها شارلمان

قامت حضارة غرب أوروبا فى العصور الوسطى على دعامتين كبيرتين: الكنيسة والنظام الإقطاعى، أما عن الكنيسة فتعبر عن الدين ومدى نفوذ رجاله فى عصور عرفت فى التاريخ باسم عصور الإيمان. وعندما أحست الكنيسة بالضعف فى الشطر الأول من العصور الوسطى، وبخاصة بين القرنين الخامس والثامن للميلاد ولت وجهها صوب دولة الفرنجة ورأت فى ملوكها خير سند ومعين، وهكذا حتى كان تتويج شارلمان إمبراطورا سنة ٨٠٠م.

ومن ناحية أخرى فإن حكام دولة الفرنجة وجدوا فى الكنيسة أقوى دعامة تبرر حكمهم وتقربهم من شعبهم.

والمعروف أن النظرية التى قامت عليها الإمبراطورية الكارولنجية تعتبر الإمبراطورية وحدة دينية قبل أى اعتبار آخر، وظل شارلمان طوال حكمه يعمل لتأكيد هذه الحقيقة، ولكن عدم تحديد العلاقة بين السلطتين الدينية والزمنية لم يساعد الكنيسة عندئذ على تحقيق طموحاتها. وكان شارلمان يحرص دائما ليجعل الكنيسة الغربية دائما تحت إشرافه وسيطرته. وساعده على ذلك اعتراف الكنيسة به حامى حمى المسيحية فى غرب أوروبا، وعلى هذا الأساس أخذ شارلمان يتدخل باطمئنان فى كل المشاكل الدينية وفى كل ما يتعلق بالتنظيم الكنسى، وصار هو الذى يعين الأساقفة، ويدعو لعقد المجامع الدينية، ويشرع القوانين الكنسية.

وتتضح هيمنة شارلمان على الكنيسة وحرصه على تنظيم شؤونها فى كثير من الإجراءات والتشريعات الكنسية التى استحدثها فى إمبراطوريته - من ذلك أنه أعاد إلى كبار الأساقفة سلطاتهم، وحدد مناطق نفوذهم، أما الأديرة فقد شدد فى مبدأ احترام مقدم الدير بحيث يكون موضع احترام كافة الرهبان داخل الدير وخارجه. وفى الوقت نفسه شدد شارلمان فى احترام الحصانة التى يتمتع بها رجال الدين وحتم أن يكون الفصل فى القضايا المشتركة بين رجال الدين والعلمانيين بوساطة هيئة مشتركة يرأسها الأسقف وكونت الإقليم.

ومن ناحية أخرى حرم شارلمان زواج رجال الكنيسة كما حرم عليهم دخول الحانات وأماكن اللهو، وحمل السلاح وممارسة الصيد.

النظام الإقطاعى

سبق أن ذكرنا أن حضارة أوروبا فى العصور الوسطى قامت على أساس دعامتين: الكنيسة والنظام الإقطاعى.

أما الكنيسة فقد أوضحنا أنها تضم ما يتعلق بالدين ورجال الدين فى عصور عرفت باسم عصور الإيمان، مما جعل للدين المكانة الأولى فى قلوب البشر وجعل من رجاله السلطة العليا فى بناء بقية الكيان السياسى. والآن وقد فرغنا من الكلام عن الكنيسة ننتقل إلى النظام الإقطاعى ودوره فى بناء الهيكل الحضارى للمجتمع الأوروبى الغربى.

وهنا أيضا نجد أنفسنا شبه مضطرين إلى أن نتخذ من دولة الفرنجة محورا عندما نتطرق إلى النظام الإقطاعى فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى، ذلك أن تاريخ دولة الفرنجة فى غاليا (فرنسا الحالية) يكشف عن كثير من العادات والتقاليد التى يمكن اعتبارها إقطاعية والتى تعتبر فعلا بذورا وجذورا للنظام الإقطاعى فى العصور الوسطى.

ولكى نستوعب حقيقة النظام الإقطاعى ونشأته فى غرب أوروبا علينا أن نبدأ باستيعاب طبيعة البناء الاجتماعى للغرب الأوروبى فى الشطر الأول من العصور الوسطى، وهى الحقبة التى عرفت باسم العصور المظلمة. ذلك أن هذا البناء تألف من عنصرين أساسيين، فقامت شعوب قبلية من عنصر الجرمان وغير الجرمانى باقتحام أراضى الإمبراطورية الرومانية التى كان يسكنها أهل البلاد الأصليين الذين كانوا يعيشون فى ظل نظام قبلى راسخ الجذور وقد أطلق الرومان على هؤلاء الدخلاء اسم «البرابرة» أى المتخلفين حضاريا، وقد جلبوا معهم كثيرا من عناصر التنظيم القبلى، لا سيما فيما يتعلق بتقديس رابطة الدم.

ومن المعروف أن النظام الملكى يكون دائما ضعيفا فى المجتمع القبلى، لأن القوة الحقيقية لذلك المجتمع تكمن فى نفوذ رؤساء القبائل. وإذا كانت بعض الملكيات الجرمانية - مثل الملكية الميروفنجية وقد نمت واشتد نفوذها فى غرب أوروبا، فإن هذه حالات خاصة جاءت وليدة تمتع روح الاستقرار مما أثر فى تنظيمها الاجتماعى.

وكان محاربو الفرنجة بوجه عام من المشاة باستثناء الملوك والنبلاء الذين امتطوا الخيول، وقد أراد أحد ملوك الفرنجة وهو شارل مارتل (٦٨٩- ٧٤١م) أن يتوسع فى نظام الخيالة ليدعم جيشه، وعندئذ اكتشف أن هذا الإجراء يتطلب منه نفقات ضخمة، لما يتحمله إعداد الفارس من نفقات - فرس ودرع وسلاح - فضلا عن أن هذا النوع من المحاربين الفرسان كانوا فى حاجة إلى مورد يتعيشون منه حتى يتفرغوا للحرب والقتال ولما كانت دولة الفرنجة فى القرن الثامن محدودة الإمكانات فإن شارل مارتل لجأ إلى حل يتفق وطبيعة العصر، إذ سجل أسماء المحاربين، وبعد أن أقسموا له يمين الولاء، أقطع كلا منهم قطعة من الأرض تكفى لسد حاجته على أن يبقى هذا الإقطاع فى حوزته، ما دام يؤدى الخدمة العسكرية، وعندما اتضح لشارل مارتل أنه من الصعب عليه توفير الأرض اللازمة لتلك الأعداد الكبيرة من رجال جيوشه وأنه لا يستطيع إضعاف موارد الحكومة بتوزيع الأراضى الحكومية على الجند أخذ يتطلع إلى أراضى الكنيسة فوضع يده على بعضها ليوزعها على هيئة إقطاعات على فرسانه، وبذلك تمكن شارل مارتل من التغلب على صعوبة كبيرة واجهته فكون جيشا كبيرا من الفرسان استغله فى طرد المسلمين من غاليا فى الجنوب وفى محاربة السكسون فى الشمال وكان أن تعاقب ملوك الفرنجة ببين القصير (٧٤١ - ٧٦٨) ثم شارلمان (٧٤٢- ٨١٤) فى الأخذ بهذا النظام الإقطاعى لبناء جيوشهم.

طبقات من النبلاء ورجال الدين فى العصور الوسطى

والواقع أن الحروب العنيفة التى قامت بين ملوك الفرنجة وخصومهم أشاعت حدا من الفوضى لا سبيل لمواجهته إلا بقوة السلاح، هذا بالإضافة إلى الحروب الداخلية التى قامت بين لويس التقى وأبنائه والتى استمرت بين الأبناء بعد وفاة أبيهم، بحيث أصبح الملك لا يتملك جيشا كبيرا، وفى تلك الأجواء اشتدت هجمات الفيكنج والمسلمين والمجربين على غرب أوروبا ووسطها، وذلك فى القرن التاسع للميلاد. وعندئذ صار لزاما على الفرد العادى الحر أن يختار أحد طريقين: إما أن يكون جنديا وإما أن يكون قنا مرتبطا بالأرض.

وقد دأب الملوك والأمراء وكبار ملوك الأراضى وغيرهم ممن يمتلكون أرضا تفوق احتياجاتهم على منح هذه الأرض لأتباع لهم من المحاربين بحيث لا يتمتع بها إلا وهو فى خدمة «سيده حربيا» وتسترد منه الأرض إذا لم يقم بواجبه الحربى فى الدفاع عن سيده، وبذلك يصبح هذا التابع فصلا إقطاعيا. وكان يحتفل عادة بقيام علاقة وتلية بين السيد وفصله بأن يضع الفصل يده

قَسَمُ الفرسان

فى يد سيده الإقطاعى ويقسم على أن يظل أمينا له حريصا على حمايته. وبعد ذلك يناوله السيد الإقطاعى حفنة من التراب رمزا للأرض، كما يسلمه علما وعكازا ووثيقة تثبت أوصاف الأرض الممنوحة للتابع ومساحتها وتسمى هذه العملية «التقليد».

وهكذا أخذت تتكون فى غرب أوروبا فى القرن التاسع طبقة تألفت من السادة الإقطاعيين والأفصال، وصار المحارب أو الفارس الصغير الذى لا يمتلك من الأرض إلا مساحة صغيرة فصلا لمالك أكبر ربما كان كونت الإقليم، فى حين صار هذا الكونت فصلا لسيد أكبر قد يكون الدوق أو الملك، ولم يكتمل بناء هذا الهرم الإقطاعى الذى جلس الملك على قمته وتربع الفارس الصغير فى قاعدته إلا فى القرن التاسع، إذ ظلت بعض أراضى الملكيات الحرة خارج نطاق النظام الإقطاعى، وبقيت منتشرة فى غرب أوروبا حتى القرن الثانى عشر.

وهنا ينبغى أن نلاحظ أنه لم توجد أية عضاضة فى تلك العصور فى أن يكون الإنسان فصلا لسيد أعلى منه درجة؛ لأن هذا الفصل كان بدوره سيدا لمن هو دونه فى الدرجة، هذا بالإضافة إلى أن هذه التبعية الإقطاعية تعنى أن صاحبها فى طبقة المحاربين وهى الطبقة التى اشتهر فرسانها فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى بالشجاعة والمروءة والكرم وغيرها من الأخلاق والصفات المشرفة التى تحلى بها الإقطاعيون، ومن الواضح أن عملية التنظيم الإقطاعى تعنى تنازل السلطة المركزية فى الدولة عن نفوذها وحقوقها وواجباتها، بسبب ضعفها وعجزها عن حماية الأوضاع المحيطة بالدولة.

تمثال نحاسى
لفارس من العصور الوسطى سنة ١٢٥٠

ولا ينبغى أن يقف تفسيرنا لعملية التنظيم الإقطاعى عند حد الوجه الاقتصادى لتلك العملية، إذا إنها كما يبدو بوضوح ظاهرة اجتماعية وسياسية امتدت إلى شبكة الحكم فى الدولة، فإذا أعلن الملك تنازله عن حق جباية الضرائب فى إقليم أو منطقة معينة لسيد معين، فليس معنى ذلك أن المزارعين والمحصلين فى هذه المنطقة أو الإقليم استراحوا من عبء تلك الضرائب؛ لأن الذى حدث هو أنهم استمروا يدفعون ما عليهم من التزامات ولكن الدفع يكون للسيد الإقطاعى الذى حدده الملك. إن ذلك السيد -وفقا للنظام الإقطاعى- غدا صاحب السيادة المباشرة على الإقطاع، وغدا صاحب الحق فى تحصيل الضرائب المقررة على الإقطاع الممنوح له والتعامل مباشرة مع المزارعين فى المنطقة المحددة وهى المنطقة التى أقطعها الملك لشخص معين ليستعملها لحسابه.

ومثل هذا الوضع يسرى فى إطار النظام الإقطاعى على شؤون العدالة والقضاء فكان تنازل الملك عن حقوقه القضائية فى منطقة لأحد فصائله يعنى قيام هذا الفصل بما كان من حق الملك أن يمارسه. أما فى الجانب الحربى فإن المنح الإقطاعية كانت فى معظم الحالات مشروطة بأن يقوم الشخص المقطع أو المنعم عليه بمناصرة الملك والوقوف إلى جانبه وإمداده بالقوة اللازمة وفق الشروط المتفق عليها. وهكذا تجرى العملية بشكل مسلسل، فالملك يعتمد على معونة أفصاله الكبار، وهؤلاء يعتمدون على أتباعهم ممن هم دونهم فى المرتبة والمنزلة.

وفى هذه العملية الإقطاعية فى غرب أوروبا لم تقف الكنيسة خارج الدائرة، بل تمتعت الكنيسة والأديرة بإقطاعات واسعة منحها إياها الحكام والملوك، هذا مع ملاحظة أن معظم المنح التى أنعم بها ملوك الجرمان على الأسقفيات الكبيرة والأسقفيات الواسعة كانت على هيئة إقطاعات ضخمة قرر المقطعون إعفاءها من الضرائب كما أعفيت فى معظم الحالات من الواجبات والالتزامات الإقطاعية. وكان يكتفى بالدعاء للواهب أو الترحم عليه فى حالة وفاته.

الحقوق والواجبات الإقطاعية

على أن النظام الإقطاعى اختلف فى نشأته من مكان إلى آخر فى غرب أوروبا، وذلك وفقا لظروف البيئة والمناخ وظروف كل إقليم وما قد يكون قد تعرض له من تيارات سياسية واجتماعية، ولكن مهما يبلغ هذا الاختلاف والتباين فى النظم الإقطاعية فإنه تبقى الحقيقة قائمة، وهى أن النظام الإقطاعى فى جوهره قام على أساس العلاقة التى ارتبطت بحيازة الأرض؛ ذلك أن التمتع باستغلال الأرض كان تمتعا بالوفاء بالتزامات معينة، مقابل تعهد السيد الإقطاعى بالوفاء بواجبات محددة تجاه فصله، ومعنى هذا أن كل طرف من الطرفين - السيد الإقطاعى والفصل المقطع - له حقوق وعليه واجبات تجاه الطرف الآخر. وكما أوضحنا كان التعاون فى ميدان الحرب هو المحور الأساسى للعلاقات الإقطاعية بين السيد وأفصاله لأن المهمة الأولى للسيد الإقطاعى كانت حماية أفصاله وأراضيهم، فى حين كان الواجب الأول على هؤلاء الأفصال هو العمل فى جيوش سيِّدهم ضد خصومه.

ولم يكن هناك تحديد فى أول الأمر لنوع الحروب التى يتعين على الفصل أن يشارك سيده فى القيام بها، ولكن بمرور الوقت ظهر التمييز بين الحروب الهجومية والحروب الدفاعية، وكان ذلك فى عصر هجمات الفايكنج وتعرض غرب أوروبا لعدوان المغيرين، عندئذ أدرك الأفصال أنهم ملزمون بالخروج بأسلحتهم لصد المعتدين والقيام بواجباتهم الإقطاعية للدفاع عن سيدهم الإقطاعى وممتلكاته. أما إذا قام السيد الإقطاعى بهجمات عدوانية على جيرانه وأراضيهم وقلاعهم فعندئذ كان الأفصال يحاولون التهرب من مشاركته فى أطماعه وسياسته العدوانية؛ ولذا جاء السادة الإقطاعيون إلى استشارة أفصالهم قبل الإقدام على عمل هام. وهناك شبه قاعدة جعلت الحد الأقصى للمدة التى يلتزم بها الفصل فى خدمة سيده الإقطاعى فى حروبه العدوانية بأربعين يوما فى العام.

المجتمع الأوروبى فى ظل النظام الإقطاعى

إحدى المبارزات بين الفرسان فى العصور الوسطى

الصيد بالصقور

انقسم المجتمع فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى إلى ثلاث طبقات؛ طبقة رجال الدين، وطبقة أرباب السيف وهم المحاربون من النبلاء والفرسان ثم طبقة المزارعين.

أما الطبقتان الأوليان فكانتا تمثلان الهيئة الحاكمة من وجهة النظر السياسية والأرستقراطية السائدة من وجهة النظر الاجتماعية والفئة الثرية من وجهة النظر الاقتصادية، هذا فى حين كانت طبقة المزارعين تشمل عامة الكادحين المغلوبين على أمرهم، المحرومين من النفوذ والثروة.

وكان لكل طبقة مكانها ومهامها فى المجتمع؛ فرجال الدين عليهم أن يتعبدوا ويشبعوا الجانب الروحى فى المجتمع، والنبلاء والفرسان كان عليهم أن ينهضوا بمهام الحرب للدفاع أو الهجوم، وأما الفلاحون والمزارعون فحسبهم أن يكدُّوا ويشقُّوا ليشبعوا بطون الطبقتين السابقتين. ويلمس الباحث فى تاريخ غرب أوروبا فى العصور الوسطى فجوة واسعة بين طبقتى الفرسان المحاربين والفلاحين المزارعين. وكان من الصعب النادر أن يتمكن عامىٌّ من أن يصبح صاحب إقطاع حتى ولو كان حر المولد. وكان يحدث فى بعض الأحيان أن ينجح مزارع فى تكوين ثروة كبيرة ومع ذلك يظل وضيع المقام بحكم أصله. وربما ساعد على ذلك افتقاره إلى التدريب العسكرى الذى كان لا يتاح إلا لأبناء طبقة الفرسان ثم إن مصطلح الفروسية كان يعبر عن مستوى معين من الأخلاق والسلوك وهو ما يتدرب عليه الفارس فى مرحلة الإعداد والنشأة.

ومن الواضح أن حياة السلم كانت تعنى البطالة بالنسبة لمحاربين محترفين، لا عمل لهم إلا الحرب؛ لذلك ابتكر فرسان العصور الوسطى فى غرب أوروبا تقليد المبارزة لقتل الملل والفراغ من جهة والتباهى بإظهار الشجاعة والذكاء من جهة أخرى. وكانت هذه المبارزات تتم بطريقة استعراضية تمثيلية تستهدف إظهار أكبر قسط من الشجاعة بأقل قدر من الإصابات والخسائر.

أما الحصون الإقطاعية فكانت فى أول الأمر بمثابة المعاقل التى يلوذ بها أهل المنطقة فرارا من الهجمات التى يشنها المغيرون والأعداء، وبخاصة الفايكنج فى غرب أوروبا. ومع تطور النظم الإقطاعية تطورت الحصون والقلاع حتى غدا الحصن مقر السيد الإقطاعى ومركز حكمه.

وفيما عدا المبارزة اعتاد الأمراء أن يقتلوا أوقات السلم بالتلهى بالصيد وغير ذلك من وسائل التسلية؛ لذلك احتفظ الأمراء بعدد من طيور وحيوانات الصيد، كما اعتادوا أن يصطحبوا معهم نساءهم عند خروجهم للصيد، فإذا أمضى السيد الإقطاعى بعض الوقت فى محل إقامته فإنه يقتل الوقت بمعاقرة الخمر والمقامرة، ولعب الشطرنج الذى عرفه الغرب الأوروبى عن المسلمين فى عصر الحروب الصليبية.

المجتمع الزراعى ونظام الضيعة

كان الفلاحون فى أوروبا العصور الوسطى يمثلون أكثر عناصر السكان عددا وأحطها قدرا. . وقد تكونت طبقة الفلاحين المزارعين أساسا من الرقيق والأقنان الذين تقاربت ظروفهم جميعا فذاب الرقيق وسط محيط الأقنان. وفى فترة الظلام الذى ساد أوروبا فى القرن التاسع نتيجة للحروب الأهلية من جهة والإغارات الخارجية من جهة أخرى، اضطر الضعيف إلى البحث عن حماية القوى، حتى ولو كلفه ذلك التضحية بحريته الشخصية، مما ساعد على مولد طبقة جديدة من الأقنان ترجع أصولها إلى جذور من الأحرار، وهذه الفئة الجديدة من الأقنان اختلطت بالرقيق القدامى لتنشأ من الخليط طبقة واحدة من أهل الفلاحة لها وضعها فى المجتمع الأوروبى، وفى القرنين التاسع والعاشر تحدد ما يعرف باسم نظام الضيعة أو النظام السنيورى، نتيجة لازدياد أعداد من فقدوا حريتهم. حقيقة إن نظام الضياع نفسه قديم، ترجع جذوره إلى أصول رومانية وجرمانية، ولكن الجديد فى العصور الوسطى هو أن أوروبا اتخذت هذا النظام أساسا للحياة الاقتصادية فى الوقت الذى انكمشت فيه أهمية المدن وضعف النشاط التجارى.

وعندما نقول الضيعة فإنما نعنى وحدة نظام الملكية الزراعية فى تلك العصور، وكان من الممكن أن يتألف الإقطاع من عدد من الضياع، وفى أوروبا العصور الوسطى كانت الضيعة تكفى نفسها بنفسها، ويحكمها سيد يتمتع بسلطة شبه مطلقة، فضلا عن أنها تمتلك جميع مقومات الاكتفاء الذاتى، بحيث يشبع إنتاجها الحاكم والمحكومين جميعا.

ولم تكن الضيعة وحدة سياسية فحسب، بل كانت أيضا وحدة اقتصادية واجتماعية ودينية، ولكل ضيعة قساوستها وكان مالك الضيعة يعيش فى دوارها، الذى لا يخلو من مظاهر الترف، أما الفلاحون فيعيشون فى أكواخ مظلمة لعدم وجود منافذ أو فتحات بها. والغالب أن الفلاح كان ينام مع غروب الشمس وينهض مع شروقها، وفى تلك العصور كانت الشموع قليلة فى أوروبا، واستخدامها مقصور على الميسورين، وكان الأقنان ملزمين بحلق رؤوسهم حيث إن الشعر الطويل من صفات الأحرار وحدهم.

وقد فرضت طبيعة نظام الضيعة روح التعاون على فلاحيها، وبخاصة فى مواسم الحرث ح الواحد لم تكن لديه الإمكانات اللازمة للقيام بتلك العمليات.

وهكذا كان الأقنان المزارعون يحيون فى العصور الوسطى حياة شاقة يغلب عليها البؤس والفقر، وظل الوضع على ذلك شطرا طويلا فى أوروبا إلى أن أخذ نظام الأقنان فى الانهيار منذ أواخر القرن الحادى عشر. وقد أسهمت الحروب الصليبية فى التعجيل بانهيار نظام الأقنان، حتى أن الحملة الصليبية الأولى وحدها فتحت الباب أمام عشرة آلاف قن تركوا الأرض التى ارتبط بها آباؤهم وأجدادهم بحجة المشاركة فى

الفلاحون فى أوروبا فى العصور الوسطى

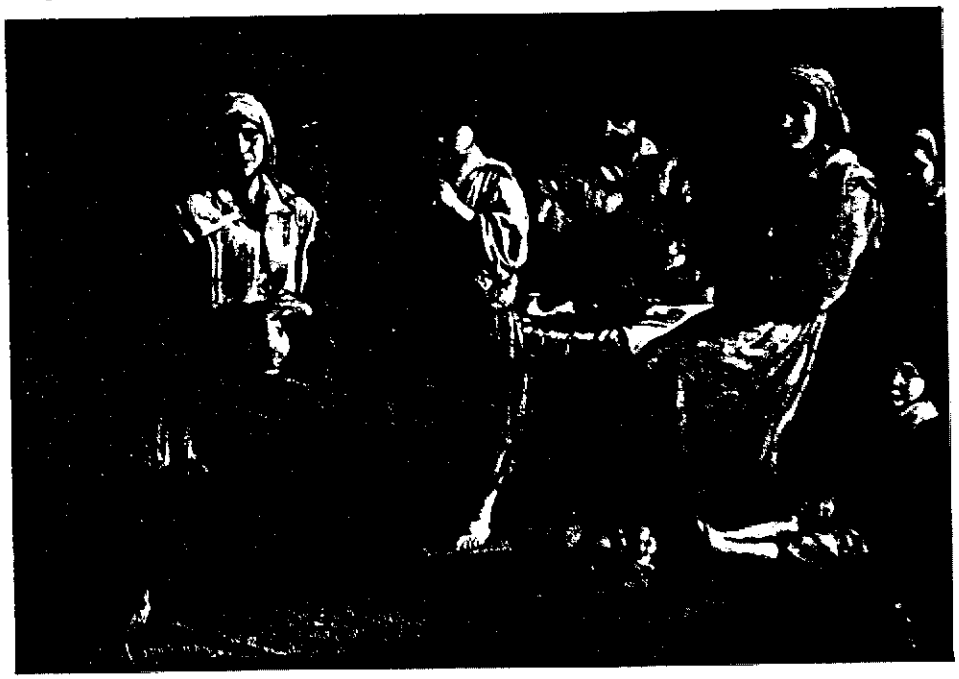

حياة الفلاحين الفقراء المظلمة - فى أوروبا فى العصور الوسطى

تصوير جدارى «فريسك» - مدريد

محاربة المسلمين، ومن ناحية أخرى فإن أصحاب الضياع فى غرب أوروبا اكتشفوا أن نظام استخدام الرقيق والأقنان غير اقتصادى وأنه من الأوفر لهم استخدام عمال مأجورين فى فلاحة الأرض.

أيقونة بكنيسة سان فرنسيسكو - موجودة بمتحف اللوفر - باريس

أما عن مكانة المرأة فى مجتمع الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى، فإن هذه المكانة كانت ثانوية؛ ذلك أن اختيار الزوجة كان يتوقف على المصالح العائلية والمالية، وبعد الزواج كان مطلوبا من المرأة أن تضع مولودا ذكرا، فإن لم يتم ذلك صار عقد الزواج مهددا بالفسخ، أما الأرملة فتكون تحت وصاية ابنها أو سيدها، وإذا كان قد أبيح للمرأة أن ترث إقطاعا، إلا أنها كانت لا تستطيع أن تدير شؤون هذا الإقطاع إلا عن طريق الزوج أو الابن.

وبالنسبة لموقف الكنيسة من المرأة فإن هذا الموقف كان متناقضا؛ فمن ناحية نظرت إليها الكنيسة على أنها شريكة آدم التى تسببت فى انحرافه نحو المعصية والخطيئة؛ ولذلك فهى تستحق الاحتقار والامتهان، ومن ناحية أخرى نظرت الكنيسة إلى المرأة على أنها تمثل مريم العذراء أم المسيح عيسى ابن مريم؛ ولذلك فهى جديرة بكل حب واحترام وتقدير، ويبدو أن هذه الفكرة الأخيرة كانت هى الغالبة فكان احترام المرأة وتبجيلها دليلا على أن الفارس جدير بكل تقدير، حتى قال بعضهم: «إن الفارس نصير الله والمرأة».

ومع ذلك فإنه من الملاحظ أن المرأة لم تتمتع بأى حق قبل زوجها، بل إن بعض كتاب العصور الوسطى من الأوروبيين أيدوا مبدأ حق الزوج فى ضرب زوجته وإيذائها إذا خالفته وكل ما فعلته الكنيسة فى هذا الموقف هو أنها حددت حجم وأوصاف العصا التى يحق للزوج استخدامها فى هذه الحالة.

رأينا كيف أخذ نظام الأقنان يتصدع وينهار فى غرب أوروبا منذ القرن الحادى عشر، وعندئذ أخذ الأقنان ينزحون إلى المدن ليباشروا نوعا آخر من النشاط الاقتصادى يوفر لهم لقمة العيش.

والواقع أن نشأة المدن فى الشطر الأخير من العصور الوسطى الأوروبية يمثل ثورة بالغة الخطورة ليس فى الميدانين السياسى والاقتصادى فحسب، وإنما فى الميدان الاجتماعى أيضا. ذلك أنه لم تكن ثمة علاقة تربط المدينة الأوروبية التى ظهرت فى العصور الوسطى بالمدن القديمة التى عرفت فى العصر الرومانى والتى بلغت ذروة التقدم فى القرنين الأول والثانى للميلاد. وجاء ذبول المدينة القديمة نتيجة للأخطار التى تعرضت لها الإمبراطورية الرومانية فانكمش حجمها وضعف نشاطها، ولم تعد مركزا لنشاط حضارى منذ القرن الخامس للميلاد، وإذا كانت هذه المدن قد احتفظ بعضها بقدر من الأهمية فى العصور المظلمة، فإن مرجع ذلك هو أنها غدت مراكز أسقفية بمعنى أن هذه الأهمية ارتبطت بالعامل الدينى، أما أهالى المدن الرومانية القديمة فقد صاروا أقنانا وإن استمر فريق منهم يشتغلون ببعض الحرف وبخاصة فى الأديرة، وهكذا لم تعد المدينة الرومانية التى قدر لها البقاء تحت نفوذ رجال الدين، أكثر من مركز دينى ولم يبق لها من أوجه النشاط التجارى أو الصناعى إلا النزر القليل الذى يسد حاجة رجال الدين وأتباعهم.

ومن الثابت أن الاقتصاد الأوروبى اتخذ طابعا زراعيا بحتا منذ نهاية القرن الثامن للميلاد، فغدت الأرض المصدر الرئيسى للثروة واعتمدت كافة طبقات المجتمع على ما تدره الأرض من خيرات. وهكذا ذبلت التجارة أو كادت تنعدم بعد أن غدت الأرض وحدها هى الأساس الذى قام عليه بناء الحياتين الاقتصادية والاجتماعية فى أوروبا. أما النشاط التجارى الذى مارسه الأوروبيون بين القرنين الثامن والعاشر فقد اقتصر على التجارة المحلية الضيقة من ناحية والعلاقات التجارية بين بعض المدن الإيطالية والدولة البيزنطية من ناحية أخرى، ثم النشاط التجارى الذى قام به

الفانكنج فى بحر الشمال وسهول روسيا من جهة ثالثة، وربما ساعد على انحطاط النشاط التجارى عندئذ موقف الكنيسة التى ظلت تنظر إلى الكسب التجارى على أنه غير مستساغ، وأن الأرض الزراعية هى وحدها المورد الحلال الذى يجب أن يتعيش منه الإنسان وإذا كان الاقتصاد الأوروبى قد اتخذ طابعا زراعيا بحتا منذ نهاية القرن الثامن، فخدت الأرض المصدر الرئيسى لرؤوس الأموال واعتمدت كافة طبقات المجتمع على ما تدره الأرض من حاصلات، وهكذا ذبلت التجارة وكاد يتوقف النشاط التجارى بعد أن غدت الأرض وحدها هى الأساس الذى قام عليه بناء الحياتين الاقتصادية والاجتماعية فى أوروبا وذلك فيما بين القرنين الثامن والعاشر.

ثم كان أن ظهرت فى العصر الإقطاعى مجتمعات من الأقنان اختاروا العيش بجوار القصور والحصون والأديرة للاحتماء بها. وفى بعض الحالات تمكنت بعض هذه المجتمعات من مباشرة لون من ألوان النشاط الصناعى المحدد، بل إن الاقنان الذين كانوا يعملون صيفا فى مجال الزراعة أخذوا يشغلون وقتهم فى الشتاء بالتجارة وصناعة الجلود والأوانى الفخارية ليبيعوا إنتاجهم فى أقرب سوق محلى.

على أن إحياء النشاط التجارى فى أوروبا أواخر العصور الوسطى يرجع فى الواقع إلى التجار الجائلين وبخاصة من اليهود الذين قاموا باستيراد السلع والبضائع التى يفتقر إليها الإنتاج المحلى، وقد بلغت سيطرة اليهود على التجارة المحلية فى أنحاء أوروبا فى تلك الفترة المظلمة أن لفظ «يهودى» صار مرادفا للفظ تاجر، وإذا كان هؤلاء التجار فى أول الأمر متنقلين فإنهم لم يلبثوا أن مارسوا حياة الاستقرار تدريجيا حتى غدت لهم مخازن تجارية ذات مكانة.

وكان أن سمح الأمراء المحليون لهؤلاء التجار بالإقامة بجوار حصونهم وقلاعهم عندما لمسوا الفائدة التى يحصلونها منهم مقابل ما يفرض عليهم من رسوم وضرائب، فضلا عن النشاط الاقتصادى وإثارة حركة تجارية واقتصادية فى الأماكن التى اتخذها هؤلاء التجار مراكز لنشاطهم، وهكذا ما كاد ينقضى القرن الحادى عشر إلا وكان هؤلاء التجار قد أقاموا لأنفسهم شبه حظائر متاخمة لحصون الأمراء مارسوا حياتهم فيها بقدر من الحرية لم يتوافر للأقنان فى الضياع المجاورة.

وهكذا أخذت هذه التجمعات التجارية تتطور لتتمخض عن مولد مدن العصور الوسطى، وفى الوقت نفسه أخذت الحقوق التى حصلت عليها تجمعات التجار تتبلور لتصبح نواة للعهود والبراءات الإعفائية التى تمتعت بها المدن فيها بعد.

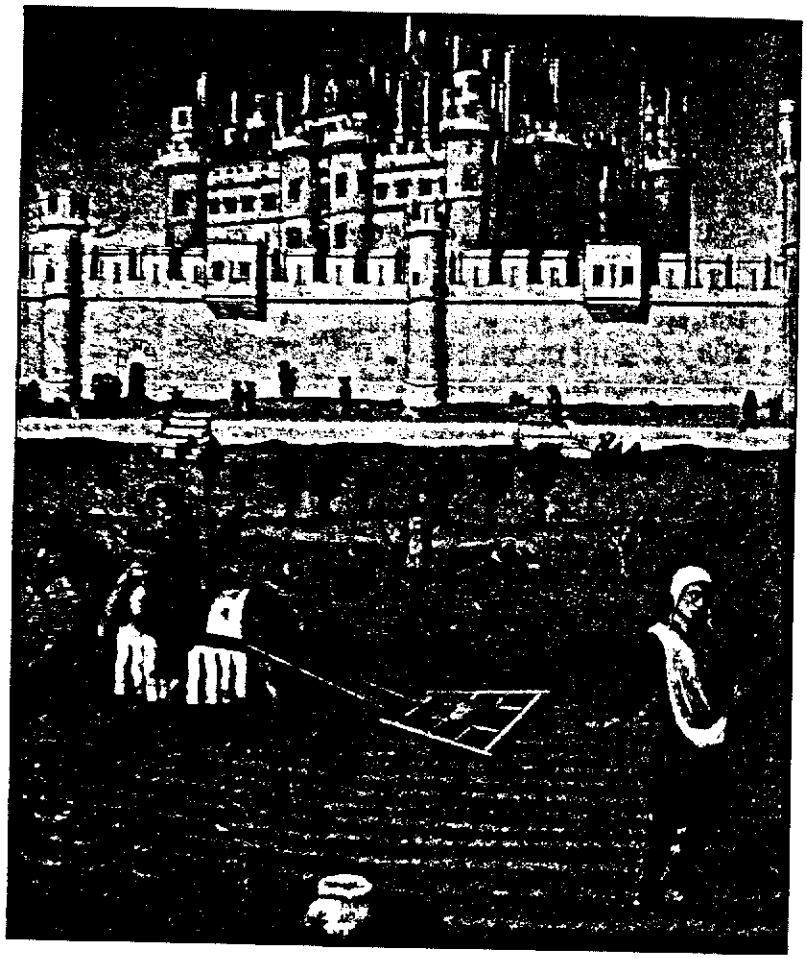

تصوير لحياة الفلاحين بجوار القلاع

وإذا كانت الفترة الواقعة بين سنتى ٥٠٠، ١٠٠٠م تمثل حلقة مظلمة فى تاريخ المدن الأوروبية فإنه يمكن القول بأن القرن الحادى عشر شهد مولدا جديدا للمدينة الأوروبية، أهم معالمه إحياء التجارة وظهور طبقة التجار. ذلك أن القرن الحادى عشر شهد حالة من السلام والاستقرار مكنت التجار من مباشرة نشاطهم. فإذا أضفنا إلى ذلك ما شهده ذلك القرن من حركة إصلاح الكنيسة من جهة وقيام الحروب الصليبية من جهة أخرى وجدنا أنفسنا أمام عدة عوامل أدت إلى تحطيم الضيعة، وتشجيع النشاط التجارى والصناعى، بحيث لم تعد الأرض المصدر الوحيد للثروة

وهنا نلاحظ أن التوسع الإسلامى فى حوض البحر المتوسط منذ القرن السابع حطم الوحدة السياسية وأضعف من النشاط التجارى الأوروبى فى ذلك البحر، ولكنه لم يوقف ذلك النشاط. ذلك أن تعثر المسلمين فى الاستيلاء على القسطنطينية ترك الباب مفتوحا أمام التبادل التجارى بين المدن الإيطالية ـ وبخاصة البندقية من ناحية وأراضى الدولة البيزنطية من ناحية أخرى، ومع ذلك فإنه يمكن القول بأن النشاط التجارى فى غرب أوروبا انحط إلى الدرك الأسفل فى القرن العاشر، وظل كذلك إلى حين بدأت الحروب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر، وجاء مولد الحروب الصليبية إيذانا بإحياء النشاط التجارى للمدن البحرية فظهرت على المسرح التجارى: أمالفى وجنوة وبيزة ومرسيليا وناربون وبرشلونة، فضلا عن البندقية التى تمثل حجر الأساس وكان البنادقة بوجه خاص.. يحملون إلى أسواق مصر والشرق الرقيق من المماليك والجوارى، فضلا عن الأخشاب والحديد ويستوردون بدلا منها التوابل والبخور والحاصلات الشرقية.

وعندما تكدست البضائع المستوردة من الشرق فى تلك الموانى والمدن، أخذت تشق طريقها نحو وسط أوروبا وغربها عن طريق السهول اللمباردية وممرات جبال الألب وطريق نهر الراين، مما أثار نشاطا كبيرا فى المدن الواقعة على هذه الطرق. ولم يلبث هذا النشاط التجارى فى جنوب أوروبا ووسطها وغربها، أن شق طريقه إلى شمال أوروبا. واتخذ هذا النشاط فى القرن الثانى عشر إقليم فلاندرز قاعدة له، وذلك بحكم مميزاته الجغرافية وما اشتهر به من كثرة أنهاره وموانيه. وهكذا اتسع نطاق النشاط التجارى فى أوروبا ولم يعد وقفا على اليهود وحدهم.

ويحتل القرن الثالث عشر أهمية كبرى فى التاريخ التجارى، حيث إن طرق التجارة القديمة استبدلت بأخرى جديدة. ذلك أن استيلاء الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ أضر بطريق القسطنطينية التجارى، فى حين نهض فرسان التيتون فى شمال أوروبا بالتجارة فاتسع نطاقها على شاطئ البحر البلطى. ثم كان أن دمر المغول مدينة كييف سنة ١٢٤٠ وبذلك قطعوا الطريق التجارى بين البحرين البلطى والأسود، كما غزوا العراق وخربوا بغداد سنة ١٢٥٨، مما أدى إلى تركيز التجارة العالمية بين الشرق والغرب فى طريق البحر الأحمر وموانى مصر المملوكية. ولا شك فى أن هذه التغيرات أثرت فى النشاط التجارى للمدن الأوروبية الناشئة تأثيرا عميقا، حتى بلغت قيمة ما تستورده البندقية وحدها من بضائع الشرق عن طريق دولة سلاطين المماليك فى مصر مليون دوكات، ذهبى.

ويمكن القول بأن الفترة الواقعة بين سنة ١٠٧٥، وهى السنة التى نجحت فيها ثورة مدينة كولونيا ضد أسقفها، وسنة ١١٨٣، وهى السنة التى حصلت فيها مدن الحلف اللمباردى على

حقوقها فى الاستقلال الذاتى فى الحكم من الإمبراطور فردريك بربروسا، هذه الفترة تصور دور البطولة فى تاريخ نشأة مدن أوروبا العصور الوسطى؛ ذلك أن المدن الإيطالية بوجه خاص غدت عندئذ مثلا احتذته بقية المدن الأوروبية فى بروفانس، وحوض الراين وفلاندرز للحصول على استقلالها. وجاءت نشأة المدن بطيئة وتدريجية على الرغم مما نسمع به من ثورات فى بعض المدن مثل ميلان وكامبراى وكولونيا وغيرها، وبفضل هذه الخطوات التدريجية أخذت المدن تنتزع من ساداتها الإقطاعيين اعترافات بحقوقها، فازداد عدد البراءات والعهود الإعفائية التى حصلت عليها تدريجيا. ومع أن هذه البراءات تباينت كثيرا فى تفاصيلها، حتى أنه ليصعب العثور على براءتين متشابهتين لمدينتين مختلفتين، إلا أنها اتفقت جميعا فى روحها، وفى خاتمتها التى تنص على حدود الأرض التى قامت عليها المدينة، وعلى أن كل من يعيش فى هذه المدينة سنة ويوما واحدا يعتبر حرا. وهكذا أخذت قبضة الأمراء تخف عن المدن فى النواحى الإدارية والقضائية والمالية، وكلما تنازل أمير عن حق من حقوقه تلقفته المدينة فى صورة إعفاء، حتى تكتمل جميع هذه الإعفاءات فى براءة تعبر عن حقوق المدينة ودستورها، وتحفظ هذه البراءة فى أرشيف المدينة.

على أنه يلاحظ أن هذه البراءة التى حصلت عليها المدينة بعد كفاح شاق طويل، لم تكن حقا مكتسبا يتمتع به كافة سكان المدينة، وإنما تمتع به فريق محدود من هؤلاء السكان. وتنوعت هذه الامتيازات بتنوع ظروف المدينة، فربما اختصت بها جماعة من التجار أو الصناع أو غيرهم.

وكانت هذه الفئة المحدودة تمثل الهيئة الممتازة التى يختار منها محافظ المدينة وموظفوها. غيرهم ممن يتمتعون بالامتيازات المدنية كاملة، وفى بعض الأحيان لجأ أعضاء هذه الأقلية الممتازة إلى التوسع فى منح الامتيازات لغيرهم من سكان المدينة ـ لا سيما الأثرياء القادرون، فى حين تظل بقية فئات السكان محرومة لا نصيب لها فى شئون الحكم.

وكان أن أدت هذه التفرقة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين أهالى المدينة الواحدة إلى اضطراب تاريخ المدن الأوروبية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، فاحتدم الصراع بين البورجوازية والطبقات الدنيا، وبين أصحاب العمل والعمال، هذا فى حين أن نقابات التجار والصناع التى بدأت نشاطها فى شكل اتحادات بين أفراد أحرار متكافئين، لم تلبث أن تحولت إلى هيئات احتكارية تتحكم فى رؤوس الأموال، وفى أسعار البضائع والسلع، وفى تحديد الأجور وساعات العمل.

ولم تكن نشأة المدن فى أوروبا العصور الوسطى ظاهرة محلية انفردت بها بعض المدن دون الأخرى، وإنما اتخذت هذه النشأة طابعا عاما فى غرب أوروبا، فبدأت واضحة فى لمبارديا وفلاندرز، ثم أخذت تنتشر بسرعة فى بقية بلاد الغرب. ومن الطبيعى أن تتباين المدن فى تاريخ

مدينة البندقية - رسم عام ١٥٠٠م

نشأتها، ولكنها اتفقت جميعا فى العوامل والظروف الأساسية التى أدت إلى مولدها وصحبت قيامها. من ذلك أن نشأة المدن جاءت فى جميع الحالات ثمرة انتعاش التجارة والصناعة، أما التباين بين بعضها وبعض فمرجعه اختلاف الظروف السياسية المحلية أو تباين الأوضاع الاقتصادية والجغرافية، وهنا نلاحظ أن عنصر التقليد والمحاكاة كان قويا واضحا فى نشأة المدن، فتستعير مدينة ناشئة دستور مدينة أخرى تكبرها عمرا، وتأخذ عنها الكثير من نظمها، مما جعل المدن تتخذ شكل مجموعات أو أسرات تضم كل مجموعة أو أسرة عددا من المدن المتشابهة فى نظمها والتى استقت هذه النظم من مصدر واحد.

وكان يحيط بالمدينة سور - وربما خندق - لحمايتها، وحول هذا السور يتجمع الفقراء من اللاجئين والمعوزين. وخارج البوابة الرئيسية للمدينة تقام المشانق العمومية لعقاب المذنبين المخالفين، وحول سور المدينة الخارجى يحفر خندق يقام عليه جسر متحرك أمام البوابة وداخل هذه الأسوار تمتد الطرقات داخل المدينة، وهى غالبا ضيقة لا يزيد عرض الطريق الواحد عن عشرة أقدام فقط. ويكتنف الظلام هذه المدن فى المساء فينتشر اللصوص وقطاع الطرق.

وهكذا جاءت نشأة المدن فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى - منذ القرن الحادى عشر - لتحدث انقلابا وتحولا فى الأوضاع الاقتصادية. وقد جعلت المدن من أنفسها كيانات اقتصادية إذ غدت أسواق مركزية محلية يتعارض كيانها مع الوضع الحضارى فضلا عن الكيان الإقطاعى، وعلى هذا الوجه انهار النظام الاقتصادى للضيعة، وبدلا من الاكتفاء الذاتى حل نظام العلاقات المتبادلة مع المدينة، فيحمل إنتاج الريف إلى أقرب مدينة ليباع فيها، بدلا من حمله إلى مقر السيد الإقطاعى، ومن ناحية أخرى فإن هذا النشاط الاقتصادى فى المدن جاء مرتبطا بالتوسع فى استخدام النقود بدلا من تقديم الخدمات الإقطاعية. ويرجع الفضل إلى مدن الغرب الأوروبى فى ظهور وابتداع كثير من النقود التى ما زالت شائعة فى غرب أوروبا مثل الجنيه والشلن والبنس.

وصفوة القول إن المدينة الأوروبية فى العصور الوسطى نهضت بالكيان الحضارى فى الغرب نهضة جديدة، بعد أن نجحت فى خلق نظام اقتصادى جديد يقوم على عدة أسس أهمها التنظيم التجارى والنمو الرأسمالى والرغبة فى المغامرة بروس الأموال، وعدم الأخذ بآراء رجال الدين التى كثيرا ما اتصفت بالتزمت والجمود.

وفى تعرضنا لنشأة المدن كظاهرة حضارية فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى علينا ألا ننسى حقيقة أساسية هى أن بعض هذه المدن استطاعت أن تحقق لنفسها قسطا كبيرا من النفوذ يفوق ما حصلت عليه سائر المدن. وقد ظهر هذا النوع من المدن أول ما ظهر فى إيطاليا - وبصفة خاصة فى لمبارديا وتسكانيا فى أواخر القرن الحادى عشر، وأطلق عليها اسم (القومونات) ومفردها قومون. وصار هذا المصطلح يطلق على المدينة ذات الكيان السياسى والاقتصادى المستقل. وجاء مولد القومونات عندما ضاق النبلاء والتجار والصناع وغيرهم ذرعا من تعسف الأساقفة وتسلطهم على كل صغيرة وكبيرة فى شؤون المدن، فأقاموا اتحادات تستهدف وضع قيود على نفوذ الأساقفة. ولم يستطع رجال الكنيسة الصمود أمام هذه التكتلات العلمانية فسلموا لها بكل مطالبها، وبذلك ظهرت هذه القومونات فى هيئة قوة عظمى لها نشاطها فى المجالات الحضارية بوجه عام والاقتصادية بوجه خاص. ولم يمض وقت طويل حتى امتدت حركة القومونات منذ أواخر القرن الحادى عشر إلى فرنسا وفلاندرز، ثم ألمانيا وإنجلترا. وكان العصر الذهبى للحركة القومونية فى غرب أوروبا بين سنتى ١١٠٠، ١٤٠٠ عندما اجتمع عدد كبير من التجار والصناع والنبلاء ضد الأساقفة وانتزعوا ما كان لهم من نفوذ.

ومن المهم أن نلاحظ أن النقابات كانت أكبر من مجرد تنظيمات اقتصادية استهدفت دعم أرباحها وحمايتها. لقد قامت النقابة على خدمة أعضائها ورفع مستوى الإنتاج والحرص على سلامة المقاييس والمكاييل والموازين. هذا فضلا عن رفع المستوى الحضارى ورعايته اجتماعيا. فأعضاء النقابة كانوا بمثابة أسرة واحدة، يشتركون فى إحياء الأعياد ويشاركون بعضهم بعضا فى الأفراح والأتراح. وانعكست صورة هذا النشاط على المجتمع الأوروبى فى غرب أوروبا لتضفى عليه بريقا حضاريا لامعا.

على أن هذه الخطوات التى خطتها أوروبا فى العصور الوسطى فى مجال النشاط الاقتصادى كانت ترتطم دائما بعقبات تضعف من أثرها فى عالم التجارة بوجه خاص وفى مجال الحضارة بوجه عام، ذلك أنه من المعروف أن النشاط الحضارى يتطلب دائما عدم العزلة؛ لأن العزلة قد تؤدى إلى جمود وركود. والحضارات البشرية كما سجلها التاريخ متداخلة مترابطة، متكاملة؛ لأن الإنسان هو الإنسان بإمكاناته وتطلعاته، والإنسان لا يمكن أن يعيش فى عزلة، ولا يمكن أن يرقى وحيدا دون مجتمع يعيش به يتأثر ويؤثر، وقد قال أحد المفكرين: إن الذى يستسيغ الحياة الانفرادية إما أن يكون حيوانا دون مستوى البشر أو متألها فوق مستوى البشر.

وإذا ذكرنا أن مجتمعا من المجتمعات قطع شوطا بعيدا فى مجال الحضارة، فلابد وأن هذا المجتمع أقام شيئا من الاتصالات مع بعض المجتمعات الاخرى ليستفيد ويفيد، ومثل هذه المجتمعات قد تكون قريبة أو بعيدة، وفى جميع الحالات لابد من وسائل مواصلات ليكون الاتصال الحضارى بوجه عام - السياسى أو الاجتماعى أو الاقتصادى على وجه التحديد- ميسورا ومفيدا.

وعلى هذا الأساس فإننا عندما نضع حضارة أوروبا فى العصور الوسطى فى الميزان، فإننا لابد وأن نعمل حسابا للاتصالات التى دارت بين العالم الأوروبى من جهة وبقية أنحاء العالم المعروف والمطروق من جهة أخرى، وهنا نواجه حقيقتين: الأولى هى أن الله -عز وجل- خلق العالم متكاملا، يكمل بعضه بعضا بحيث لا يوجد إقليم واحد تتوافر فى بيئته كل ما يحتاج إليه سكانه من مستلزمات الحياة، ومن هنا كانت الاتصالات بين أنحاء العالم منذ أقدم العصور لا غنى عنها.

أما الحقيقة الثانية فإن هذه الاتصالات والروابط تتطلب مستلزمات ليتمكن الإنسان من إنجاز عملية الأخذ والعطاء بأيسر الطرق وأخفها حملا.

وبالربط بين هاتين الحقيقتين نرى أن النشاط التبادل الحضارى - وبخاصة فى المجال التجارى - تطلب دائما من أية دولة أو مجتمع يباشر ذلك النشاط إعداد الطريق أو الطرق التى تربط بين الطريقين وتيسر الانتقال من جانب إلى آخر.

وفى دراستنا للتاريخ القديم نرى الرومان زمن ازدهار دولتهم وقد أقاموا شبكة ضخمة من الطرق ربطت روما وغرب أوروبا بعالم البحر المتوسط، ولكن إهمال هذه الطرق نتيجة لتدهور الإمبراطورية ثم سقوطها أثار مشكلات ضخمة أمام الغرب الأوروبى عندما أخذ يدخل مرحلة الإفاقة فى صدر العصور الوسطى، ولم يجد التجار فى تلك المرحلة وسيلة للسفر ونقل بضائعهم سوى استخدام الدواب والسفن، فى حين اضطر صغار التجار على حمل البضائع فوق ظهورهم والتنقل بها سيرا على الأقدام من مدينة إلى أخرى. أما التاجر الكبير فكان يستأجر أحيانا بعض الحراس لحراسته هو وبضائعه من قطاع الطرق.

على أن سوء أحوال الطرق البرية وصعوبة السير فيها كانتا من العوامل التى ساعدت على تفضيل الأنهار حتى غدت القوارب والنقالات النهرية على درجة من الكثرة تطلبت ظهور العديد من الموانى الداخلية على الأنهار، فضلا عن كثرة عمال النقل النهرى، وبخاصة فى العديد من مدن فرنسا وإيطاليا وألمانيا، وكلها بلاد تجرى فيها أنهار كبرى عديدة. ومع ذلك فإن النقل النهرى لم يسلم من عدة صعاب وعقبات أهمها تجمد مياه الأنهار فى فصل الشتاء، وأخطار الفيضانات فى فصل الربيع وقلة عمق مجارى بعض الأنهار. هذا، بالإضافة إلى أن الطرق النهرية لم تسلم هى الأخرى من مكوس فرضت على البضائع، لا تقل عن المكوس المفروضة على الطرق البرية.

أما النقل البحرى فعلى الرغم مما اعترض سبيله هو الآخر من صعاب وعقبات وأخطار إلا أنه تفوق على النقل البرى فى كثير من الحالات فى أوروبا العصور الوسطى. وكانت السفن فى أول الأمر تلتزم السير قرب الشاطئ وعلى مرأى منه، تجنبا للغرق وتخوفا من أن تضل الطريق فى أعماق البحار، ولكن معرفة البوصلة عن طريق العرب فى القرن الرابع عشر شجع الأوروبيين على شق البحار بشىء من الجرأة والشجاعة والاطمئنان، ولم تسلم البحار هى الأخرى من قراصنة هددوا السفن ونهبوها وأدى التنافس بين القوى البحرية والرغبة فى السرقة والنهب إلى قيام حروب بحرية بين المدن البحرية بعضها وبعض واستعانة بعض تلك القوى بالقراصنة ضد خصومها.

والواقع أن النقل البحرى مع جميع هذه الأخطار والمعوقات فاق فى أهميته بقية طرق ووسائل المواصلات التى عرفتها أوروبا فى العصور الوسطى، لعدم وجود مكوس على البضائع والسلع التى تحملها السفن.

الأسواق

وفى حديثنا عن مراكز النشاط التجارى فى أوروبا العصور الوسطى لابد من الإشارة إلى - نوع من المراكز أو المؤسسات مارست نشاطها اليومى أو الأسبوعى، ونعنى بها الأسواق.

والواقع أن أوروبا لم تعرف فى الشطر الأول من العصور الوسطى، وهو الشطر الذى أطلق عليه اسم العصور المظلمة، أسواقا كبرى فى مدنها إذا استثنينا بعض الأسواق التى استمدت شهرتها وبنت مكانتها على أسس دينية لارتباطها بالمؤسسات الدينية أو بمناسبات دينية تشد اهتمامات الناس، ومن أمثلة هذه الأسواق سوق سانت دنيس قرب باريس، وفيما عدا هذه الأسواق ذات الصبغة الدينية لم تعرف أوروبا فى القرنين التاسع والعاشر، سوى بعض الأسواق المحلية الأسبوعية التى يتردد عليها الأهالى من المناطق القريبة لبيع بضع دجاجات أو بعض البيض أو قطع من النسيج. وفى داخل هذا النطاق الضيق كانت تتم عمليات البيع والشراء على مستوى محدود.

ولكن ازدياد النشاط التجارى منذ القرن الحادى عشر تطلب ظهور أسواق كبرى - وخاصة فى جنوب أوروبا وغربها - للقيام بالعمليات التجارية على نطاق كبير واسع. وأوضح مثل لهذا

النوع من الأسواق التى برزت أهميته فى الشطر الأخير من العصور الوسطى، شامبنى الذى دأب أمراء الإقليم على مدى ثلاثة قرون على رعايته والعناية به، حتى غدا بمثابة قبلة النشاط التجارى فى غرب أوروبا، وحلقة الوصل بين الجنوب والشمال، وكان كبار التجار يحضرون قبل موعد افتتاح السوق بعدة أيام لتنظيم عرض بضائعهم، وفى المدة المحددة لافتتاحه وعلى مدى أيام الافتتاح كان يعلن عن مواقيت العمل بدق أجراس ضخمة. وكان التجار الذين يعملون فى السوق تحت حماية أمير شامبنى الذى يقع السوق فى دائرة نفوذه. هذا عدا وجود مشرفين وملاحظين يعملون على حفظ النظام، والفصل فى المنازعات التى قد تنشب بين التجار، ويحملون أختام السوق لختم المعاملات التى تعقد بين البائعين والمشترين.

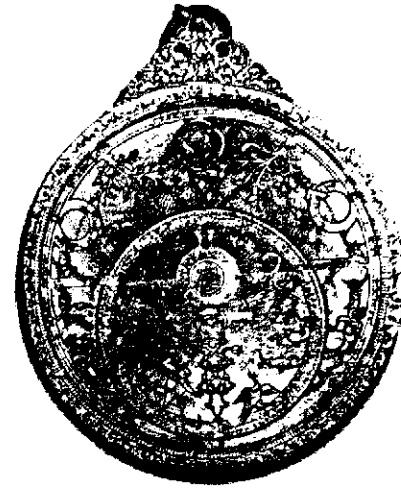

إسطرلاب (عبد الكريم المصرى)، حيث ظهر للإفادة فى إبحار السفن

الصيارف والمصارف

وفى نطاق تمتع كثير من الأمراء الإقطاعيين بحق سك العملة المتداولة فى دائرة نفوذهم السياسى، ذخرت الأسواق الأوروبية بعدد كبير من الصيارفة، يستبدلون العملات للتجار كل بالعملة التى يطلبها ويحتاج إليها فى إجراء عملياته التجارية.

ويعتبر نشاط هؤلاء الصيارفة بمثابة النواة الأولى للنظام المصرفى الرأسمالى، وكان كل صراف يحتفظ عادة بصندوق متين يكون بمثابة الخزانة لنقوده مما شجع كثيرين على إيداع أموالهم لدى الصيارفة لتكون فى مأمن من تطلعات الطامعين. ولم تلبث أن استخدمت فى إيطاليا الحوالات والكمبيالات المالية وبذلك صار نظام الدفع بالحوالة بدلا من النقود المعدنية، ولم يستخدم هذا الأسلوب الجديد فى المعاملات داخل البلد الواحدة، وإنما انتشر ليستخدم بين المتعاملين فى البلدان المختلفة وهكذا أخذت وظائف ومهام البنوك تظهر تدريجيا فى أواخر العصور الوسطى لتحل محل الصيرفة والصيارفة. وجاء هذا التطور مصحوبا بعملية الإقراض وتقديم

الصيرفى - لوحة من عصر النهضة المبكر

الأموال لأهل الثقة من الملوك والأمراء وبخاصة منذ القرن الثانى عشر، وبذلك أخذ الصيارفة يحلون محل اليهود تدريجيا فى إنجاز العديد من جوانب النشاط الاقتصادى، وبعبارة أخرى استطاع التجار الإيطاليون أن يحلوا تدريجيا محل اليهود وخاصة بعد أن أتت الحركة الصليبية بكثير من التشريعات والقوانين التى حدت من نشاط اليهود فى غرب أوروبا.

التعليم فى أوروبا الوسطى

اتصف التعليم فى أوروبا العصور الوسطى بطابع مميز، وهو أنه لم يقتصر على المدارس وغيرها من المؤسسات المشابهة وإنما اتسعت دائرته لتشمل بيوت الأسطوات فضلا عن بلاط الأمراء الإقطاعيين والملوك، وقد ترتب على ذلك أن انكمشت دائرة المتعلمين وقل الإقبال عليهم.

ومن المعروف أن العصور الوسطى ورثت النظم التعلمية التى كانت سائدة عند الرومان، وذلك عن طريق المؤسسات الكنسية والديرية التى احتفظت بالطابع العام للتعليم القديم. هذا مع الاعتراف الثابت بأن نمو النشاط الفكرى فى العصور الوسطى جاء على حساب الدراسات الكلاسيكية القديمة. ومع ذلك فإننا نستطيع أن نقرر أن الفجوة بين العصور القديمة والوسطى لم تكن متسعة فى نظم التعليم مثلما كان الحال فى المواد التى تدرس فظلت المدارس على وضعها دون تغيير كبير فى نظمها وإن اختلفت وتباينت فى الإطار العام، وكما أخذ التعليم الرومانى عن اليونان فى العصور القديمة كذلك أخذ التعليم فى العصور الوسطى عن الرومان، وكان أوائل عصر الإمبراطورية الرومانية قد شهد مرحلتين من مراحل التعليم إحداهما التعليم الابتدائى وتلقن فيه القراءة والنحو والحساب والموسيقى، والأخرى هى المرحلة العليا وفيها تدرس علوم البلاغة

والخطابة والآداب والفلسفة والتشريع، وهذا النوع الأخير الذى أطلق عليه اسم مدارس البلاغة لم يلبث أن اختفت مدارسه فى القرن الخامس للميلاد حيث إن العصر الذى أعقب غزوات البرابرة وما صحب هذه الغزوات من سقوط الإمبراطورية فى غرب أوروبا، كان أحلك العصور فى تاريخ أوروبا الثقافى.

على أن أهم ما ميز ذلك العصر هو أن التعليم أخذ يخضع خضوعا تاما للكنيسة مع انحلال السلطة العلمانية وازدياد نفوذ البرابرة فى المجتمع الأوروبى، وقد رأت الكنيسة تدريس الفنون السبعة الحرة، وهى التى كانت تلقن للتلاميذ فى المدارس الوثنية ولكن على أسس مسيحية، وسبب ذلك هو أن الكنيسة وجدت أن هذه الفنون لابد من استيعابها لفهم الكتاب المقدس وأحكامه.

وهكذا ظلت المدارس فى الغرب ـ حتى سنة ٦٠٠م ـ تقدم تعليما ابتدائيا عاما، ولكنها لم تلبث أن تحولت إلى كليات لإعداد رجال الدين للمستقبل، وما كاد ينتهى القرن السابع إلا وكان التعليم فى أوروبا يتصف بمسحة دينية واضحة واستمر الوضع على ذلك حتى القرن الثانى عشر.

شارلمان والعناية بالتعليم

وفى دراسة تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى تبرز شخصية شارلمان ملك الفرنجة ومؤسس الإمبراطورية الكارولنجية وراعى كنيستها والنشاط الحضارى فيها (٧٤٢- ٨١٤) ذلك أن الاهتمام بنشر التعليم ورفع مستواه والعناية بالمدارس، كل ذلك أسهم فى بناء ما يعرف باسم «النهضة الكارولنجية» وهى النهضة التى تفخر بها أوروبا فى العصور الوسطى، وقد بدأت هذه الحركة الحضارية بالعمل على رفع المستوى الحضارى لرجال الدين ووضع حد للأخطاء التى يقعون فيها، مما أضر بالدعوة للمسيحية وأساء إلى الكنيسة وأهلها.

وفى دعمه للمؤسسات الدينية وحرصه على رفع مستوى رجال الدين، حرص شارلمان على رفع المستوى الفكرى فى المدارس وعلى رأسها مدرسة القصر، ذلك أن شارلمان جعل من المدارس مراكز يجتمع فيها العلماء والأدباء، وهكذا لم تعد المدارس مجرد حلقات يجتمع فيها القسيسون والرهبان لترديد آراء لا تخلو من مبالغات وأخطار، وإنما هى مراكز للعلم والتعليم ومجامع لأهل العلم والرأى، ويرتبط بذلك أن التعليم لم يقتصر على رجال الدين وحدهم وإنما شمل أيضا طلاب المعرفة من المشتغلين بالفلك والحساب والطب، وغير ذلك من العلوم. وصحب ذلك

تقسيم التعليم إلى ثلاث مراحل: الأولى درس فيها القراءة والكتابة ومبادئ اللاتينية مع بعض دراسات سطحية عن المسيحية وأصول الدين والكتاب المقدس، والمرحلة الثانية تشتمل على الفنون السبعة الحرة، وهى العلوم العقلية والوجودية، هذا فى حين تشتمل المرحلة الثالثة على اللاهوت وكتابات آباء الكنيسة.

على أن حركة الإحياء الكارولنجية لم تلبث أن استنفدت طاقتها فى أواخر القرن التاسع نتيجة للأخطار الخارجية والانحلال الداخلى، وعندئذ قامت المدارس الديرية بدور كبير فى حفظ الحضارة الغربية بحيث أصبح التعليم فى أوروبا تحت هيمنة رهبان الأديرة، ويبدو أن تيار النشاط العلمى فى أوروبا أخذ يتحول منذ أواخر القرن التاسع، من غاليا إلى ألمانيا وذلك تحت تأثير نفوذ ملوك الأسرة السكسونية مما أدى إلى قيام نهضة فى القرن العاشر عرفت باسم النهضة السكسونية، وكانت أبرز مدارس ألمانيا فى ذلك الدور مدرسة دير سانت جال، أما رئاسة كل مدرسة فكان متروكا لأسقفها.

الصحوة الحديثة فى القرن الثانى عشر

ولم تلبث أن تزعمت المدارس الكاتدرائية النشاط الفكرى فى غرب أوروبا عند بداية القرن الثانى عشر. وقد أنجبت هذه المدارس مجموعة من أئمة المفكرين. والواقع أن أوروبا شهدت نهضة فكرية عظيمة فى القرن الثانى عشر ساعد عليها الانتعاش الاقتصادى والاستقرار الاجتماعى والسياسى واتساع دائرة الاتصال بين أوروبا والثقافة الإسلامية عن طريق الأندلس وصقلية والشام. وعندما اتسع نطاق المعرفة فى غرب أوروبا لم تتسع لها المدارس واتضح أنه لابد من قيام معاهد جديدة تستوعب هذا النوع والقدر من المعارف، وهكذا ظهرت الجامعات التى تعتبر أعظم ما قدمته العصور الوسطى للعصور الحديثة.

ولم تلبث أن شهدت أوروبا فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر مولد كثير من الجامعات الجديدة التى تزعمتها جامعة باريس فى الغرب وجامعة نابلى فى الجنوب ـ واحتضنت هذه الجامعات العلوم والمعارف الواسعة التى غدت تغذى الحياة الفكرية فى غرب أوروبا فى الأدب والفلسفة اللاهوت والقانون والطب والرياضيات والفلك وغيرها، أما اللاهوت والعلوم الدينية فإن أهميتها أخذت تضعف تدريجيا لأن الاهتمام فى الجامعات اتجه نحو القانون الرومانى.

وبعد، فإن دراسة التاريخ الحضارى لبلد أو إقليم أو أمة فى حقبة من حقب التاريخ ليست كما يبدو للبعض أمرا سهلا ميسورا. إن مصطلح الحضارة بمعناه العلمى الكبير يعبر عن المستوى الاجتماعى والاقتصادى والثقافى، فضلا عن السياسى والحربى للفرد أو للجماعة، ومعنى هذا أن

دراسة الحضارة وتاريخها تشكل صورة متعددة الجوانب للإنسان، وهذه الصورة ليست على حال واحدة فى شتى عصور التاريخ، إذ تبدو بعض جوانبها مضيئة مشرقة فى حلقة من حلقات التاريخ، معتمة قائمة فى حقبة أخرى، وهنا يبرز دور المؤرخ اليقظ الواسع الأفق، الذى يلاحق الأحداث فى يقظة وأمانة فيربط اللاحق بالسابق والبعيد بالقريب.

ونحن فى عرضنا لحضارة أوروبا فى العصور الوسطى، نبدأ بعصور فى التاريخ

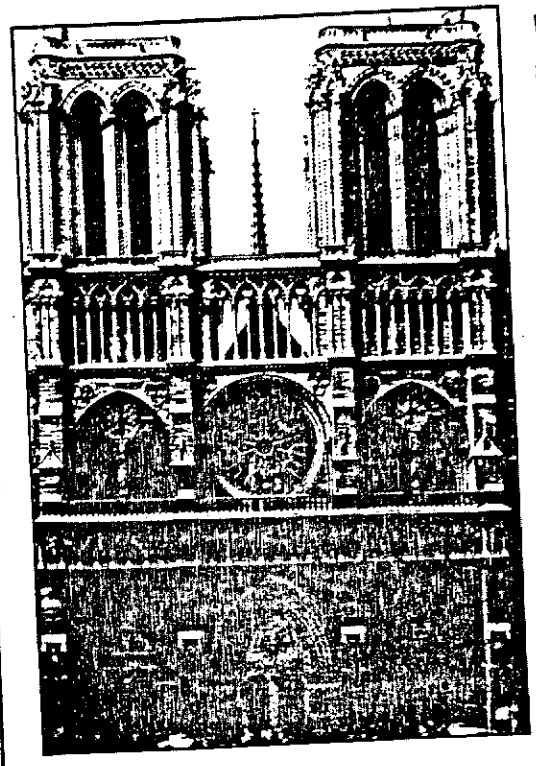

كاتدرائية نوتردام - من أعظم كاتدرائيات العصور الوسطى

الأوروبى، اتفق على تسميتها باسم «العصور المظلمة» ونتوقف عند حلقة نعتبرها فجر العصور الحديثة، بكل ما تحويه من منجزات تفخر بها الحضارة البشرية بوجه عام، وإن كانت لا تخلو من مثالب يسجلها لها التاريخ.

الرهبان والدراسة اللاهوتية

المراجع

- Bailey (A.E.): The Art and Religion.
- Barker (E); Clark (G), Vaucher (p): The European Inheritance.
- Boissonmade (p): Life and work in Medieral Europ.
- Coulton (G.G.) : Life in the Middle Ages.
- Drapper : A History of Intellectual Development of Europe.
- Eyre (E.) : European Civilization.
- Haskins (C.A.) : The Rise of Universaties Studles in Medical Culeire.
- Lodge (R): The Close of The Middle Ages.
- Painter (S.) A History of The Middle Ages.

- سعيد عاشور :

أوروبا فى العصور الوسطى، الجزء الثانى - النظم والحضارة.

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
- مقدمة	١
- مراكز الحضارة والمعرفة	٢
- المراكز الدينية	٤
- بلاط الملوك والأمراء	٩
- المدن	١٢
- الجامعات	١٥
- النهضات الحضارية في غرب أوروبا فى العصور الوسطى	١٩
- النهضة الكارولنجية	١٩
- التعليم والمدارس والمكتبات	٢٥
- النهضة الأدبية	٢٩
- القانون والتشريع والإدارة	٣٠
- شارلمان والكنيسة	٣١
- النظام الاقطاعى	٣٣
- الحقوق والواجبات الإقطاعية	٣٨
المجتمع الأوروبي فى ظل النظام الإقطاعى	٣٩
- المجتمع الزراعي ونظام الضيعة	٤١
- المدن والنشاط الاقتصادى	٤٥
- إحياء المدن وبعثها لنشاط التجارى	٤٥
- الأسواق	٥٣
- الصيارف والمصارف	٥٤
- التعليم فى أوروبا العصور الوسطى	٥٥
- شارلمان والعناية بالتعليم	٥٦
- الصحوة الحديثة فى القرن الثانى عشر	٥٧

The span of time of Medieval European history lies between the fifth and fifteen century of our era. This period was mainly characterized by the religious zeal and predominance of the Roman Church over all walks of life.

The supremacy of the Pope and his satellites all over Western countries had colored the Middle Ages with a hyper religious rigidity, which left its impact on the political, social, and cultural levels in the four corners of Europe, East and West.

It is noteworthy that Medieval Europe alienated itself from the classical heritage and indulged completely in matters of dogma, and that is why historians usually depict that period as the Dark Ages. This state of darkness persisted until the middle of 15th Century when Europe began to move towards a new era known as the Renaissance.

Dr. Said Abdel Fattah Asshour

الأكاديمية العربية الدولية

الأكاديمية العربية الدولية

المقررات الجامعية

www.aiacademy.info | care@aiacademy.info